طه حسين

حياته وفكره في ميزان الإسلام

أنور الجندي



دار الاعتصام

طه حسين

حياته وفكره في ضوء الإسلام

أنور الجندي

الطبعة الأولى
١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

وقــائع البحــث

الموضوع	الصفحة

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

لمع اسم الدكتور طه حسين لمعانا خاطفا فى الثلاثينات عندما أصدر كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى حمل معه مجموعة من الآراء الخطيرة التى تعارضت مع أصول الاسلام ومفاهيمه فأحدثت ضجة ضخمة واسعة المدى فى الجامعة والأزهر والصحافة • ثم والى الدكتور طه مهاجمته للرأى العام عن طريق الشك الفلسفى واثارة قضايا الدين والحضارة والفكر على نحو بدا معارضا للاصالة العربية الاسلامية فى دعوة جريئة الى طرح نظريات الفكر الغربى فى مختلف المجالات • وقد سار الدكتور طه حسين فى طريقه ذاك لم يتخلف عنه حتى نهاية حياته فترك ركاما من الأبحاث والدراسات هى فى حاجة الى اعادة النظر فيها فى ضوء الاسلام • ذلك أن الدكتور طه قد ألح الحاحا شديدا على انه يصدر عن الفكر الاسلامى ويشارك فيه بأبحاثه عن القرآن وهامش السيرة وتاريخ الصحابة والفتنة الكبرى •

وجرى فى أبحاثه المختلفة مجرى كتاب الغرب واعتمد أساليبهم ومناهجهم فى دراسة أدب العرب وتاريخ الاسلام •

والحق ان الدكتور طه حسين قد اكتسب شهرة واسعة وانتج انتاجا غزيرا وكان له نشاطه الواسع فى مجال الجامعة ووزارة المعارف بالاضافة الى مجاله فى الصحافة والتأليف • ولا نريد أن نتعجل الحكم على الرجل وآثاره وانما نود أن نضىء الطريق الى فهمه بتقديم الوقائع والوثائق المتصلة بحياته وفكره على النحو العلمى الصحيح حتى يجىء الحكم عليه منصفا عادلا غير مشوب بأقل قدر من التحامل أو التحيز •

برز طه حسين الى الناس فى ثوب من الضجيج الشـــديد عندما نشر كتابه (فى الشعر الجاهلى) وكشف عن تلك الفكرة التى قدمها والتى كانت موضع أخذ ورد شديدين والتى أعطت طه حسين : ذلك الموقف الذى تردد فيه المثقفون والباحثون بين الحملة العاصفة على الصورة التى كتب بها مصطفى صادق الرافعى والنقد الهادىء الذى كتب به محمد فريد وجدى وكان أخطر قوله : للتوراه أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى فضلا عن اثبات هـــذه القضية التى تحدثنـا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة ونحن مضطرون أن نرى فى هـــذه القصة نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهـــة وبين الاسلام واليهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى » ٠

هذا أقسى ما كتب طـه حسين : تكذيب القرآن وانكار نبـوة ابراهيم واسماعيل ، غير انه بعد أن صمت طه حسين صمتا شـــديدا ازاء الزوبعة العاصفة التى قامت والتى أسرع فغادر البلاد حتى تهدأ ٠

لم تكد تمر شهور حتى كان حـــديث طه حسين عن تأثير الوثنيـة واليهودية والنصرانية فى الشعر العربى وادعاء ان لليهـــود أثر فى الأدب العربى وهى محاولة خطيرة لها دلالتها متصلة بانكار ابراهيم واسماعيل ٠ ولم يمض طويل وقت حتى كتب مقاله عن الدين والعلم : عام أو بعض عام ٠

قال : ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وبين ما وصـــل اليه العلم وقال ان الدين لم ينزل من السماء وانما خرج من الأرض كمـــا خرجت الجماعة نفسها ٠

ثم كان فى نفس العام بحثه عن الضمائر فى القرآن الذى ألقـاه فى مؤتمر المستشرقين وفيه حاول تفسير القرآن تفسيرا خاطئا ٠

وفى نفس الوقت كانت دراساته فى كلية الآداب عن القرآن واستقدام كازنوفا ليحدث شـــباب مصر المسلم عن القرآن مثيرا الشـــبهات حول المـكى

والمدنى وأثر النصرانية فى مكة وأثر اليهودية فى المدينة الى آخر هـــذه الشبهات العاصفة •

ولم تمر الا سنوات قليلة حتى أثار طه حسـين شبـهة تحريق العرب لمكتبة الاسـكندرية ونشر بحث المستشرقين فى اتهـام المسلمين باحراقهـا وحملته على أحمد زكي باشا شيخ العروبة عندما حاول الدفاع عن المسلمين •

وفى هذه السنوات كانت محاولة اتهام القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون من خــــلال دراسته لعدد من الشعراء المـاجنين امثال بشار وأبى نواس ومحاولة تصوير العصر كله من خلال قلة من الزنادقة مغضيا عن أثر عشرات العلماء والفقهاء والدعاة والمصلحين •

وهكذا امتد الطريق بالدكتور طه حسين دون أن يجد حرجا من معارضة الفكر الاسلامى لآرائه ، وعنــــدما أحس طه حسين انه أصـبح فى موقف لا يحسد عليه كتب هامش السيرة وانتقل الى معسكر الوفد ، وحاول بذلك خداع البسطاء بأنه يكتب عن سيرة الرسول وأذيع انه قد عاد الى الاســلام مـــع أن كتاب (على هامش السيرة) تهكم صريح وقد كشف أمره صـديقه وزميله فى مدرسة التجديد : « الدكتور محمد حسين هيكل » الذى قال ان اتجاه طه حسين هذا شديد الخطر ليس على الأدب وحده ولكن عـــلى الفكر الاسلامى كله لأنه يعيد غرس الأساطير والوثنيات والاسرائيليات فى سـيرة النبى مرة أخرى بعد أن نقاها العلماء المسلمون منها وحرروها من آثارها •

ولم يلبث طه حسين أن دعا الى الفرعونية ودعا الى الأخذ بالحضـــارة الغربية حلوها ومرها ، ما يحمد منها وما يعاب ، فى كتابه (مستقبل الثقافة) الذى كان منهجا لتغريب التعليم المصرى وقد تولى على أثر ذلك مناصب كبرى فى وزارة المعارف : المستشار ومراقب الثقافة والوزير بعد ذلك واستطاع خلال ذلك أن يثبت آرائه ومخططاته فى التعليم كله ، ثم كانت سيطرته بعد الجامعة ووزارة المعـارف على مراقبة الثقافة بالجامعـة العربية ورئاسة مجمـع اللغة العربية وفى كل هذه المؤسسات له أعمـــاله وآثاره البعيدة المدى فى مناهج التعليم والثقافة واللغة •

كل هذا كان يجرى واسم طه حسين يدوى بالشهرة وبالحديث وبالنقد وبالمعارضة وكان من حوله كوكبة من أوليائه يصورونه بصورة العميد والقائد

والزعيم والمفكر والعبقرى ، ومن ورائه مجموعة ضخمة من كتاب الغرب ومستشرقيه يذودون عنه ويكتبون عنه ويترجمون له آثاره • ومع ذلك فان حركة اليقظة الإسلامية ظلت قائمة على الحق منذ اليوم الأول تكشف زيفه وترد خطأه وتبين اتجاهه وتدحض دعواه •

وقد جاءت هذه الأجيال الجديدة فلم تر هذه المعارك ولكنها رأت رجلا يوصف بأنه عميد الأدب تحاط آرائه بهالة من التبريز والدوى ، فقد عاش بعد أن توفى مصطفى صادق الرافعى والمازنى وزكى مبارك وهيكل والزيات فاستطاع بهذا الامتداد فى العمر أن يكسب نوعا من التقدير الذى يشبه القداسة ، والواقع أن الأمر كان غير ذلك تماما وان هذه الكوكبة التى عاشت حول طه حسين لم تستطع أن تحول دون كشف زيفه ودعواه وباطله ، ذلك لأن أغلب من سار معه على الطريق فى أول الأمر لم يلبث أن عرف حقيقته ودخيلته فانصرف عنه •

وفى مقدمة هؤلاء أعلام الفكر الاسلامى والثقافة العربية فى عصره ، وما بالك بالعقاد والمازنى وهيكل وزكى مبارك ونجيب البهبينى وفؤاد حسنين واسماعيل مظهر وتوفيق الحكيم وكلهم أصدقاء عصره وأحباب عهده وأولياء جيله ، قد كشفوا هذا الزيف وانضموا الى رواد حركة اليقظة الذين سبقوا على الطريق •

ولكى نكون على طريق الحق الذى يقتضى الاسلام منا أن نظاهره فاننا لا نتهم طه حسين بشىء ، ولا نحكم عليه ، الا بعد أن نستعرض وقائع حياته ومفاهيمه وآرائه بالأدلة والأسانيد والوثائق •

ولعل ترتيب وقائع البحث تقتضينا أن نقدم هذا الثبت الحافل من الدراسات التى تناولت طه حسين وفكره وآرائه فى حياته وفى ابان الوقائع :

محمد الخضر حسين : نقض كتاب الشعر الجاهلى •

مصطفى صادق الرافعى : تحت راية القرآن : الرد على الشعر الجاهلى •

محمد فريد وجدى : نقد كتاب الشعر الجاهلى •

محمد لطفى جمعة : الشهاب الراصد

دكتور محمد أحمد الغمراوى	: النقد التحليلى .
ابراهيم عبد القادر المازنى	: كتاب قبض الريح (فصول الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء ومجنون ليلى) .
السيد محب الدين الخطيب	: ما أعرفه عن طه حسين (كتاب) ونشر ملحقا بالزهراء م ٣ ص ٢٦٨ .
اسماعيل أدهم	: طه حسين (كتاب ملحق بمجلة الحديث م ١٢/١٩٣٨ .
محمد الههياوى	: جريدة المنبر (١٩٣٩) (ابريل - مارس - ديسمبر)
الدكتور محمد غلاب	: مجلة النهضة الفكرية ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ .
عباس محمود العقاد	: مجلة الاثنين ٤٣/٥/٣ ، ١٩٤٣/٤/٢٦ .
زكى مبارك	: جريدة البلاغ ٢٨ يونيه ١٩٣٥ .
حسن البنـــا	: ان كان هذا حقا يا دكتور فقد اتفقنـــا (١٩٣٩) مجلة التعارف .
محمود محمد شاكر	: بحث عن المتنبى وبحث عن الفتنة الكبرى.
ساطع الحصرى	: آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية .
أحمد زكى باشا	: جريدة السياسة ١٩٢٤ .
شكيب أرسلان	: مقدمة كتاب النقد التحليلى .
الدكتور محمد حسين هيكل	: نقد كتاب على هامش السيرة (السياســة الأسبوعية) .
رفيق العظم	: نقد اتجاه طه حسين التاريخى (السياسة اليومية)
اسماعيل مظهر	: معــركة مرجرات (العصور ح ٦ م ١/ص ٦٥١)
توفيق الحكيم	: مجلة الرسالة ٢ يوليو ١٩٣٤ .
ابراهيم المصرى	: أسلوب طه حسين (البـــلاغ) ٢١ يونيه ١٩٣٤ .

دكتور عمر فروخ	: عبقرية العرب
فتحي غانم	: يوليو ، أغسطس ١٩٥٤ (آخر ساعة) .
دكتور علي العناني	: محاضرته عن طه حسين (النهضة الفكرية ٥ ديسمبر ١٩٣٢) و ٩ مايو ١٩٣٢ .
محمد سيد كيلاني	: كتاب فصول ممتعة .
دكتور حلمي علي مرزوق	: تطور النقد والتفكير الأدبي في مصر .
دكتور محمد محمد حسين	: الاتجاهات الوطنيــة ج ٢ ص ٣٨٦ وما بعدها . مجلة الأزهر : حصوننا مهــددة من داخلها (عام ١٩٥٦/١٣٧٧ هـ) .
محمد محمود بدير	: مجلة النهضة الفكرية (٧ نوفمبر ١٩٣٢) شبهة المسيحية .
دكتور محمد نجيب البهبيتي	: مقدمة كتابه (تاريخ الشــعر العربي في القرن الثالث الهجري الطبعة الرابعــة ـ مايو ١٩٧٠) .
دكتور فؤاد حسنين	: مقدمة كتابه شمس الله تشرق على الغرب .
مجموعة من العلماء	: تقرير الأزهر وتقرير لجنة الوزارة في ٢ نوفمبر ١٩٢٧ ، ٢ يونيه ١٩٢٨ الفتــح م ٦ ص ٦٥٠ .
خليل تقي الدين	: مجلة الأديب (آب ١٩٤٥) .
ايزاك شموس	: السياسة ٢٢ فبراير ١٩٣٤ .
الدكتور ناصر الدين الأسد	: مصادر الشعر الجاهلي .
سامي الكيالي	: طه حسين (جزءان) مجموعة اقرأ .
كمال قلته	: طه حسين وأثر الفرنسية في أدبه .
محمد أحمد عرفه	: نقض مطاعن في القرآن .
جرجس صال	: ما سرقه طه حســين من جرجس صال (الأهرام ٢١ مايو ١٩٢٦) .

البير بيزان : (سكرتير طه حسين) مذكراته (الانذار) ٢٥ فبراير ١٩٣٤ .

عبد ربه مفتاح : مقال (الآن وقد عصيت قبل) الأهرام ١٢ مايو ١٩٢٦ .

(٢) موضوعات أثارت ضجة :

تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية فى الشعر العربى (السياسة ١٣ يناير ١٩٢٦) .

حرق كتب طه حسين فى سوريا (المقطم ٩/٥ و ١٩٣٣/٩/٦) .
نظرات فى النظرات (مقالات طه حسين عن المنفلوطى) العلم آخر مقال ٢٥ نوفمبر ١٩١٠ .

مقال طه حسين عن محمد عبده ـ الوادى ـ ١١ يوليو ١٩٣٤ .

مقال طه حسين عن أحمد زكى باشا ـ الوادى ـ ٨ يوليو ١٩٣٤ .

مقال أحمد أمين عن طه حسين ـ الرسالة ـ ١ يونيه ١٩٣٦ .

تحريق مكتبة الاسكندرية ـ ومقال كازنوفا ترجمة طه حسين ١٨ ابريل ، ٢ مايو ١٩٣٣ (السياسة اليومية) .

جريدة كوكب الشرق : بدأ عمل طه حسين فى الوفد (مارس ١٩٣٣) .

شراء امتياز جريدة الوادى ـ يونيه ١٩٣٣ الى ديسمبر ١٩٣٤ .

آراء غريبة للدكتور طه حسين فى القرآن فى الجامعة ـ كوكب الشرق ٢٧ مارس ١٩٢٨ .

الضمائر فى القـــــرآن (بحث فى مؤتمر المستشرقين) كوكب الشرق ١٥ أكتوبر ١٩٢٨ .

الخلاف بين طه وهيكل : الرسالة ١٧ يونيو ١٩٣٣ .

خطاب المازنى الشهير الى طه حسين عن فصل زكى مبـــارك من الجامعـــة : البلاغ ١٩٣٢/١٢/٣١ .

مقال زكى مبارك (لو جاع أولادى) الصباح ١٩٣٦/١/١٧ .

مجلة الاثنين : حديث طه حسين حول صلته بالصهيونية (١٩٤٦) •
سلامة موسى بقلم طه حسين : الجمهورية ٢٥ ديسمبر ١٩٥٣ •

(٣) مناقشات عن طه حسين فى مجلس النواب :

١٣ سبتمبر ١٩٢٦ : كتاب الشعر الجاهلى :
٢٩ يونيو ١٩٢٧ : اثارة موضوع طه حسين •
٥ مايو ١٩٣٠ : اعادة البحث فى كتاب الشعر الجاهلى •
١٩٣٩ : النظر فى موقف طه حسين •

ونستطيع فى سبيل استعراض حياة طه حسين وفكره أن نقدم مجموعة من آرائه توالت على الأيام وأثارت كثيرا من الضجيج والنقد :

١ ـ لأمر ما اقتنع الناس أن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم ولأمر ما شعروا بالحاجة الى اثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب •

٢ ـ ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وبين ما وصل اليه العلم من النظريات والقوانين ، فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يستطع العلم الى الآن أن يثبتهما • والعالم الحقيقى ينظر الى الدين كما ينظر الى اللغة وكما ينظر الى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة • وتتبع الجماعة فى تطورها وتتأثر بما تتأثر به الجماعة أن الدين فى ناحية والعلم فى ناحية وليس الى التقائهما من سبيل ومن زعم غير هذا فهو خادع أو مخدوع •

٣ ـ ان الفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين وستبقى كذلك بل يجب أن تبقى وتقوى والمصرى فرعونى قبل أن يكون عربيا ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها والا كان معنى ذلك : اهدمى يا مصر أبا الهول والأهرام ، وانسى نفسك واتبعينا ، لا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطى ، مصر لن تدخل فى وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد ، وأؤكد قول أحد الطلبة القائل : لو وقف الدين الاسلامى حاجزا بيننا وبين فرعونيتنا لنبذناه •

٤ ـ خضــع المصريون لضروب من البغى والعـــدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضا •

٥ ـ أريد أن أدرس الأدب العربى كما يدرس صــاحب العلم الطبيعى علم الحيوان والنبات ، ومالى أدرس الأدب لأقصر خياتى على مدح أهل السنة وذم المعتزلة • من الذى يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشرا للاسلام أو هادما للالحاد •

٦ ـ ان الانسان يستطيع أن يكون مؤمنا وكافرا فى وقت واحـد ، مؤمنا بضميره وكافرا بعقله فإن الضمير يسكن الى الشىء ويطمئن اليه فيؤمن به أما العقل فينقد ويبدل ويفكر أو يعيد النظر من جديد فيهدم ويبنى ويبنى ويهدم •

٧ ـ علينا أن نسير ســـيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا فنأخذ الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب •

(٤)

أولا : رفع أحد علماء الأزهر الدعوى العامة أمام النيـــابة على طه حســين (١٩٢٦) وجاء الكشف عن سرقة كتابه الشعر الجاهلى من كتاب مقاله فى الاسلام جرجس صال (كشف عنها عبد المتعال الصعيدى) •

ثانيا : قررت عصبة العمل القومى فى سوريا احراق كتب طه حســين فى ميدان عام لأنه (واحد من الذين يهونون أمر العرب ويصغرون شأنهم ويرفعون الصوت بالدعوة التى يكرهونها آلا وهى الفرعونيــة) وذلك قوله (خضع المصريون لضروب من البغى والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضا) ١٩٣٣ •

ثالثا : أرسل اليه الأستاذ توفيق الفكيكى من مفكرى العراق برقية احتجاج عام ١٩٣٨ قال فيها :

« ان شعاركم الفرعونى سيكسبكم الشنار وستبقى أرض الكنانة وطن الاسلام والعروبة برغم الفرعونية المندحرة » •

رابعا : كشف الأستاذ محمد محمود بدير عن توزع طه حسين بين الاسلام والمسيحية (النهضة الفكرية ـ ٧ نوفمبر ١٩٣٢) •

خامسا : اتهام طه حسين بالصداقة اليهودية على أثر انشاء مجلة الكاتب المصرى ومساءلته فى مجلة الاثنين ١٩٤٦ •

(٥)

تعرضت آراء طه حسين الى نقد النقاد :

الفرعونية والعروبة : دراسة الفريق محمد فوزى •

الشعر الجاهلى : دراسة الدكتور ناصر الدين الأسد •

مستقبل الثقافة : دراسة ساطع الحصرى •

الشعر الجاهلى : دراسات فريد وجدي والغمراوى والرافعى ولطفى جمعة والخضر حسين •

مع المتنبى : دراسة محمود محمد شاكر •

على هامش السيرة : دراسة دكتور محمد حسين هيكل (يراجع كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية) •

(٦)

أشار الباحثون الى أن آراء طه حسين نقلت على النحو الآتى :

١ ـ آرائه فى الشعر الجاهلى أخذها عن جرجس صال ومرجليوث •

٢ ـ آرائه فى حديث الأربعاء أخذها عن جورجى زيدان والأغانى •

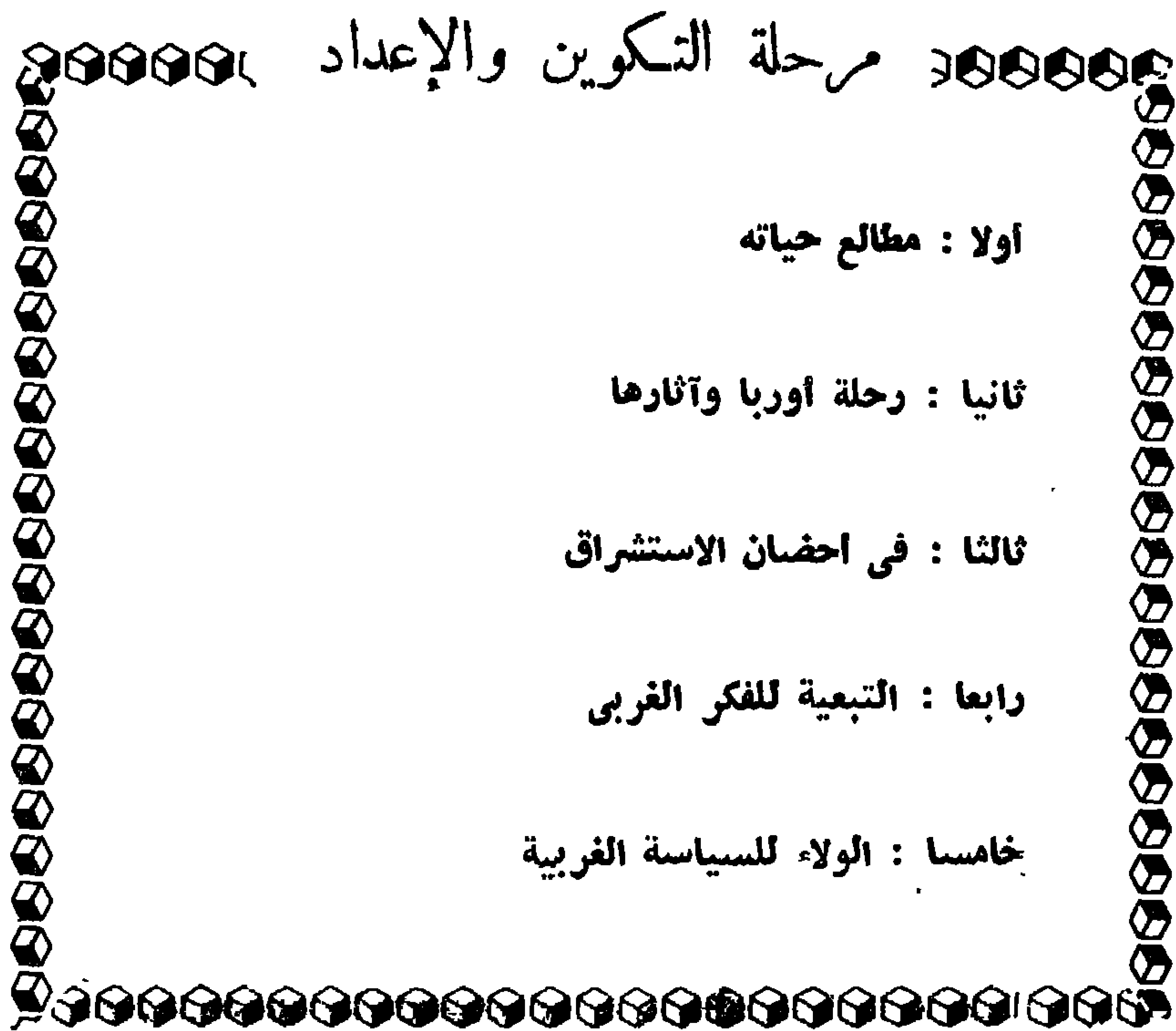
٣ ـ آرائه فى هامش السيرة اعتمد فيها على الأساطير وكتاب أجنبى •

٤ ـ آرائه فى مستقبل الثقافة : هى جماع ما أورده المستشرقون وكتاب التغريب عن حضارة البحر الأبيض والفرعونية •

هذه كلها مقدمات أردت بها أن أقدم لك هذه الشخصية لترى فيها رأيك فى ضوء الاسلام •

* * *

الباب الاول



مرحلة التكوين والإعداد

أولا : مطالع حياته

ثانيا : رحلة أوربا وآثارها

ثالثا : فى احضان الاستشراق

رابعا : التبعية للفكر الغربى

خامسا : الولاء للسياسة الغربية

الفصـــل الأول

مطـالع حيـاتـه

القرية ـ الأزهر ـ الجامعة

تتمثل وقائع حياة طه حسين فى أنه ولد فى قرية الكيلو (إقليم المنيا) (١) عام ١٨٨٩ ودخل « كتاب » القرية شأن أترابه فى ذلك العهد ، حتى حفظ القرآن وكان قد كف بصره فى العام الخامس على أثر مرض لم يعالج علاجا حاسما ، ثم قصد إلى القاهرة وكان شقيقه محمد قد سبقه إليها فدخل الأزهر عام ١٩٠٢ وبقى به حتى عام ١٩٠٨ عندما بدأ يختلف إلى الجامعة المصرية فى أول نشأتها وكانت تضم عدداً من المستشرقين الفرنسيين والإيطاليين :

[جويدى ـ ليتمان ـ نلبينو ـ سانتلانا ـ ملبونى ـ ماسنيون] وبذلك عرف بيئة المستشرقين الذين وجدوا فيه شابا طموحاً ناقما على الأزهر فعملوا على إعداد نفسه بالآمال فى بيئة الغرب وتأريث الكراهية لبيئة الأزهر ثم للإسلام نفسه ومن ذلك أن بعض المستشرقين كان يحرص على اصطحابه إلى حلقات الأزهر ، وقد أشار فى مذكراته إلى أنه صحب سانتلانا إلى الأزهر لحضر معه درسا فى التفسير كان يلقيه الشيخ سليم البشرى وكان يفسر آية (ولو أننا نزلنا عليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) سورة الأنعام الآية (١١١) .

---

(١) كان والده يعمل بفاوريقة الدائرة السنية ثم انتقل الى مغاغة بوظيفة قبانى واستقر بعزبة الكيلو عام ١٨٨١ وظل يعمل فى شركة كوامبو حتى سنة ١٩٣٢ فعاد الى المنيا وتوفى ١٩٤٢ (مجلة الادب ـ يناير ١٩٦٣) .

فاعترض طه على تفسير الشيخ قائلا : هذه جبرية مطلقة فأجاب الشيخ البشرى : من أين تعلمت هذا الكفر ، من أساتذتك الأفرنج ! هنالك وضع ساتيلانا يده على كتف طه طالباً منه السكوت .

ولقد كانت فترة إقامته فى الأزهر فترة دقيقة ، كان موزعا فيها بين الحلقات يختار منها ، ويعرض ، ولايستقر فى أيها ، إلا حلقة الأدب والشعر ولذلك فقد كانت ثقافته فى العلوم الإسلامية قاصرة بحيث لم يتمكن من تكوين فكرة كاملة عن الإسلام ولقد عرف طه حسين فى الأزهر دروس الأدب ولم يقبل على دروس الفقه والعقائد وقد إتصل بدروس الفقه والمنطق والتوحيد والنحو ولكنه ألم بذلك إلماما سريعا حتى توقف عن درس الأدب وسرعان ما ضاق صدره بالأساتذة لأنه لم يصبر على فهم دقائق المسائل وظل الخلاف يتسع بينه وبين مشايخه حتى أغلق الباب بينه و بينهم واحداً واحداً ولقد ساء ظنه بالأزهر وشيوخه ، الذين أعرضوا عنه لسوء بادرته وجفوته بهم ، وقد تأثر بالمستشرقين فى الغض من شأن المشايخ وطرحهم بالأسئلة المضللة ، والرد عليهم فى عنف وفى سخرية وذلك كله وارد فى مذكراته (الأيام) وسوء موقفه من أساتذته واضح لا ريب فيه بأكثر من صورة وحادثة ولعل هذه الجفوة هى التى دفعت أساتذته إلى إحراجه فى امتحان العالمية حين عجز عن الإجابة على سؤال يسير .

فى هذه الفترة كان اتصاله بالبيئات السياسية : وكان موزعا بين الحزب الوطنى وصداقة عبد العزيز جاويش ، وحزب الأمة وصداقة لطفى السيد وكلاهما متعارضان فى مذهبهما ، كذلك كان اتصاله بالجامعة القديمة وبمستشرقيها وفى خلال هذه الفترة كان يكتب فى العلم والجريدة وكانت له معركته الحاده التى حمل فيها على المنفلوطى حملات عنيفة ثم ظهر من بعد أن ما كان يكتبه منقول من مذكرات كان يكتبها (صادق عنبر) وقد عبر طه حسين فى سنواته الأخيره عن أسفه لهذه المقالات وكان طه حسين من قبل من المعجبين بالمنفلوطى وينتظر مع صديقيه الزيات ومحمود زناتى مقالته الأسبوعيه فى المؤيد .

ولكن عواصف السياسة ذهبت به هنا وهناك ، فلم يستقر على إتجاه ، وكانت كتاباته فى هذه الفترة تتراوح بين ما يلقيه إليه عبد العزيز جاويش وما يلقيه ساتلانا ولطفى السيد ، وكانت له صله بآل عبد الرازق .

(٢)

وبقى طه حسين فى الجامعة المصرية القديمة من عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ حين تقدم برسالته عن ذكرى أبى العلاء وكانت أول رسائل الدكتوراه فى الجامعة المصرية

ثم سافر إلى أوربا حيث التحق بجامعة مونبيليه حيث درس الأدب الفرنسى واللغات الفرنسية واليونانية واللاتينية ، ثم عاد إلى مصر فأقام بها فترة ثم عاد إلى جامعة باريس حيث جاز امتحان الليسانس ١٩١٧ وأحرز الدكتوراه عن ابن خلدون عام ١٩١٧ ثم عاد إلى القاهرة حيث تولى تدريس مادة التاريخ القديم (اليونانى والرومانى) ثم انتقل إلى الجامعة الرسميه عام ١٩٢٥ حيث تولى تدريس الأدب العربى وأصدر عام ١٩٢٦ كتابه فى الشعر الجاهلى .

(٣)

وقد أعلن الدكتور طه فى عدد نوفمبر ١٩٢٧ من الهلال الأسباب التى أخرجته من الأزهر فقال :

بينما كنا نقرأ كتاب الكامل للمبرد وردت هذه العبارة (ومما كفر الحجاج به الفقهاء قوله : والناس يطوفون بقبر النبى ومنبره إنما يطوفون برمة وأعواد) فقلت أنا : إنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب وبلغ قولى شيخ الأزهر وسمعت أنه سيطردنى فذهبت إلى الجريدة أريد كتابة مقال عن هذا الموضوع ، و هناك تقابلت مع الأستاذ لطفى السيد فرفض المقال : ولكنه عرض أن يتوسط لإرجاعى ، فى ذلك الوقت شعرت بأن الأزهر لم يعد يشبع ما فى نفسى من الأغراض الأدبية فتركته والتحقت بالجامعة المصرية .

هذه هى بدايه التحول يقول الدكتور غلاب : إن التاريخ يسجل بالخط العريض : أن الدكتور تقدم لإمتحان الشهادة النهائية (العالمية) ظنا أنه على شىء من العلم فلما جاء أمام لجنة الإمتحان وسئل و نوقش أخفق اخفاقاً لم يشهد التاريخ مثله فنكص على عقبة وخرج لايلوى على شىء ولايزال الذين تقدم للامتحان بين أيديهم أحياء يرزقون ومن ذلك الوقت أخذ يحارب الأزهر (مجلة النهضة الفكريه ١٩٣٢)

ويقول البير برزأن سكرتيره الأول عن هذه المرحلة من حياته أنه فى سنة ١٩١١ كان قد تخرج حديثاً من الأزهر بعد حادثته المشهورة أو بعبارة أدق كان قد أخرج من الأزهر إخراجا فاعتزم أن يتعلم الفرنسية فاجتمع ببعض متخرجى الفرير وأنا منهم وكنا نتحدث بالفرنسية وبجانبنا الشيخ طه ولم يكن قد حصل على شهادة ما أوصل هذا الإتصال الشيخ أحمد حسن الزيات أستاذ اللغة العربية بمدرسة الفرير وماذكرنا له كلمة فرنسية إلا أتقن حفظها وتفهم معناها واشتقاقها .

وقد أفاض الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام عن هذه المرحلة وكشف فى الجزء الثالث عن الأسباب التى يراها سبباً لإسقاطه فى امتحان العالمية .

كما أشار بصراحة (١) إلى إعراضه عن كل علوم الأزهر وشغفه بالأدب حين اتصل بالشيخ سيد على المرصفى الذى وصفه بأنه كان يكره الأزهريين وتقاليدهم ويزدرى دراستهم ومذاهبهم فى هذه الدراسة وكان يقضى أكثر وقته عابثاً بالشيوخ ساخراً منهم محاولا أن يحبب الأدب إلى تلاميذه ويبغض إليهم دروس الأزهر المألوفة ، منذ ذلك الوقت فتنت بالأدب وجعلت أسخر من شيوخنا ولقد دافع طه حسين عن نفسه فى مذكراته بشأن خروجه من الأزهر والتحاقه بالجامعة ومنه يفهم أن الأزهر لم يحقق له كفاية ثقافية أو علمية .

وتلك قضية فيها رأى يقول : أن المدة التى قضيتها فى الأزهر كانت فترة انتقال فكان الشيخ محمد عبده يفسر القرآن على طريقة جديدة والشيخ المرصفى يعلمنا الأدب وكلاهما يذم الطريقة الأزهرية ، وكانت الجريدة تنادى بمعان جديدة فى السياسة والإجتماع وشعرنا نحن تلاميذ الشيخ المرصفى أن طرق الأزهر عتيقة . وشعرت أن الأزهر لم يعد يشبع ما فى نفسى من الأغراض الأدبية فتركته والتحقت بالجامعة .

يقول الأستاذ حسن الشقرا : « ومن هنا يفهم القارىء أن السر فى اخراج الدكتور طه من الأزهر عدم كفاية الأزهر لسد مطامعه الأدبية وهذا كذب صراح على التاريخ وجرأة مفضوحة على الحق ، والتاريخ يسجل بالخط العريض

---

(١) فؤاد دواره « ك » عشرة أدباء يتحدثون .

أن الدكتور تقدم للامتحان فى الشهادة العالمية فلما جاء أمام اللجنة وسئل ونوقش أخفق إخفاقا لم يشهد التاريخ مثله فنكص على عقبه وخرج ومنذ ذلك الوقت أخذ يحارب الأزهر ويغض من قدر أساطين المسلمين .

(٤)

كانت كتاباته كلها فى هذه الفترة مثار خلاف فى الرأى بينه وبين العلماء والأدباء ، فقد كان حريصا على تبنى الرأى المثير ، وكان يحدث الدوى ، حتى يكون حديث الدوائر الأدبية ، ولقد أثارت رسالته (ذكرى أبى العلاء) ضجة ، رفعت عبد الفتاح الجمل أحد أعضاء الجمعية التشريعية إلى أن يقدم مذكرة يطالب فيها بحرمان طه حسين من حقوق الجامعيين لأن كتابه به بعض المفاهيم المضطربة التى تميل إلى الإلحاد .

وكان الأمر كذلك بالنسبة لرسالته عن « ابن خلدون » : فقد أثارت كثيراً من الشبهات ذلك أن الدكتور طه حسين حضر هذه الرسالة تحت إشراف (إميل دوركايم) الفيلسوف الإجتماعى اليهودى الذى كان يغض من قدر ابن خلدون ، وقد سار طه حسين على طريقته إرضاء له ، ومات دوركايم قبل أن تناقش رسالة طه حسين وحضر بدلا منه سلستان بوجليه ، وكذلك حضر طه حسين دروس كازانوفا فى تفسير القرآن فى الكوليج دى فرانس : المعهد الذى شكل فيه الفرنسيون أتباعهم دعاة الفكر الفرنسى من العرب .

وعندما أعيد إلى مصر بعد سفره عام ١٩١٤ لظروف الحرب اختلف إلى درس الشيخ محمد المهدى فى كلية الآداب فكتب فى جريدة السفور مقالا هاجم فيه أسلوب الشيخ وقارن بينه وبين أساتذة الآداب الفرنسية ، فى انتقاص وازدراء فكان لذلك أثراً سيئاً كاد أن يلغى بعثته لولا أن سارع إلى من كان يلوذ بهم ويشفقون عليه لآفته فعاد وأتم الدراسة وعندما عاد ١٩١٩ كان فكره قد تغير تماماً ووضع آراءه وفكره على النحو الذى كان يتحدث به قبل ١٩١٤ فى دائرة الصمت ، وبدأ يواجه القضايا والأفكار والناس على نحو آخر مختلف تماما .

وبعد فماذا كانت بيئة طه حسين التى تركت آثارها فى تكوينه وتصرفاته .

(٥)

كانت البيئة الأولى : بيئة القرية هى أشد البيئات أثراً فى حياة طه حسين ، وأهم العوامل التى كان لها أثرها هى :

(١) الأسرة الفقيرة ذات العدد الكبير من الأبناء مع قلة الزاد .

(٢) كف البصر الذى أصيب به فى الطفولة وأثره على حياته فى محيط الأسرة .

(٣) علاقاته بأهل القرية ، وبالكتاب ، وبالقاضى وبأصدقاء والده .

وكان لهذه الخلفيات أثرها البعيد فى حياته كلها ، ومواقفه كلها : حدة الطبع والتحدى ، وتأكيد الذات ، وكان له من طبائع المكفوفين قدرتهم على المناورة ، وكسب القلوب ، والانسحاب السريع فى حالات الخطر ، وقد ظلت عوامل الريف والصعيد والبيئة الأولى قائمة فى كيان طه حسين بعد أن سافر إلى أوروبا وصقلته الأساليب العصرية فى الحديث والحياة والحركة ، ظلت قائمة فى أعماق النفس ومن وراء الوعى ، وكانت تظهر فى الأزمات ، وفى بعض المواقف كاشفة عن هـذه الطبيعة العنيدة ، الخائفة فى نفس الوقت ، المندفعة إذا خلا الجو ، المتراجعة إزاء الخطر .

(٦)

ولقد أمضى طه حسين فى هذه البيئة ثلاثة عشر عاما ، ثم انتقل إلى بيئة الأزهر ، قاهرة المعز ، حى الربعماية ، هذه المنطقة الحافلة بصورة القاهرة القديمة من حول الجامع الأزهر العتيق .

ولكن طه حسين لم يتوقف كثيراً عن بيئة الأزهر وبيوت علمائه خاصة من كان يحبهم أمثال المرصفى أو المهدى ، ولكنه لصداقته لعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق أوغل إلى عابدين حيث كان قصر آل عبد الرازق القائم خلف القصر ، وحيث كانت جماعات كثيرة من رجال حزب الأمة تصل إلى هناك ثم كانت بيئة الجريدة حيث لطفى السيد وجماعة الدعاة إلى المصرية الكارهين

للوحدة الإسلامية وللعروبة ، والسافرين منها إلى « مصر للمصريين » والمؤمنين بأن الطريق الوحيد إلى الحرية هو التعاون مع الاستعمار والالتقاء بالغرب فى منتصف الطريق وقبول أسلوب المراحل و وكانت النماذج المعروضة أمثال سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى هى النماذج التى كونها الاستعمار وأعطاها مقادة الأمة ، فكانت تلك موضع إعجاب الشباب المتطلع الطموح أمثال طه حسين .

وكانت هناك بيئة الحزب الوطنى ومعرفة طه حسين للشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان أحد دعائم فكرة العبور إلى أوربا وكان قد فتح جريدة العلم والشعب وصحيفة الهداية لطه حسين ليكتب فيها .

وفى الشعب كتب طه حسين مقالاته العاصفة ضد المنفلوطى ، وفى الهداية كتب مقداته لجرجى زيدان .

وكان طه حسين واحداً من الشباب الذين كانوا يقتربون من المكتبة الزكية ومن أحمد زكى باشا ليتعلموا أو يسمعوا ويقرأوا بعض المخطوطات النادرة ، وكان زكى باشا أستاذ الحضارة الإسلامية فى الجامعة المصرية القديمة .

كذلك فقد حاول طه حسين أن يحضر دروس الشيخ محمد عبده فى الرواق العباسى وحضر منها درسا أو درسين وكان يغرى نفسه بأن يكون على هذا الطريق .

وكانت تلك الجماعة : طه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود زناتى تتجمع هنا وهناك لتقرأ المؤيد واللواء والجريدة ، وتعيش فى هذا الجو متطلعة إلى مستقبل غامض .

وكان طريق الحزب الوطنى هو طريق الوطنية الحقة والنضال الطويل ، وكان طريق حزب الأمة هو طريق الوصول : طريق مذهب المنفعة الذى كان لطفى السيد يشير إليـــه دائما عن قراءات « بنتام » .

كان طه حسين يشترك فى هذه البيئات جميعا ، ولم يحدد موقفه منها إلا بعد

أن عاد من أوربا ، اما قبل ذلك فكان منطلقا ، وكانت الجامعة المصرية القديمة قد جمعت بين أعلام الفكر المسلمين : (أحمد زكى باشا ، أمين صفوت) ، وأعلام المستشرقين ، وكان لطه حسين بهم صلة وثيقة طمعا فى تحقيق حلمه فى العبور إلى اوروبا ودخول السربون .

فى هذه البيئة المضطربة وجد طه علو صوت حزب الأمة ، والمستشرقين وأبناء المبيوتات ووجد أسلوبهم هو المصالحة مع النفوذ الأجنبي ومسايرته وكان مذهب بتنام « المنفعة » الذى دعا إليه لطفى السيد وألح عليه من أبرز الوجوه التى وجهت طه حسين وحددت موقفه وقررت اختياره ، وقد كان ، فقد تعاونت هذه القوى على إعانته ودفعه إلى بعثته وسفره إلى أوروبا بالرغم من كل المعوقات .

(٧)

وكان لطه حسين فى هذه المرحلة شعر وقصائد مديح ورثاء وكتابات وكلها قاصرة تدور فى مجال الولاء ومن أجل ذلك أخفى عنها بعد عودته من أوربا كما أخفى عن ماضيه كله وإن ذلك ليكشف عن إجابات كثيرة على أسئلة متنوعة لماذا حزب الأحرار الدستوريين بعد عودته ولماذا تركه إلى حزب الاتحاد ولماذا هجرهما إلى حزب الوفد وهدد أصحابه القدامى بكشف أسرارهم ولماذا مدح فؤاد وفاروق ولماذا سار فى كل ركاب وساير كل اتجاه ، لقد فعل ذلك فى سبيل تأكيد ذاته وتحقيق هدفه الذى كان يطويه فى أعماقه .

وقد اشار طه حسين فى مذكراته إلى أنه جرب نفسه فى الشعر ، لم يكن يأخذ فى الكتابة حتى عرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد فلما كان الشباب يقدمون عليها فى تلك الأيام وأنه كان موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة مذهب الاعتدال والقصد وذلك كان لطفى السيد يدعوه إليه ومذهب الغلو والإسراف وذلك الذى كان الشيخ جاويش يغريه به ويحرضه عليه تحريضا وقال إنه إذا اقتصد فى النقد نشر فى الجريدة وإذا غلا فى النقد نشر فى صحف الحزب الوطنى .

والمعروف أنه اتجه إلى الجريدة اتجاها كاملا بعد هجرة الشيخ عبد العزيز جاويش والى بنفسه كاملا فى أحضان مفهوم المنفعة الذى كان يدعو إليه حزب الأمة ولطفى السيد .

ومن أسلوبه فى الولاء وأحكام العاطفة : موقفه من المنفلوطى فقد كان يقول : « لقــد كنت أمقت (المؤيد) كل المقت إلا يوم ينشر فيه نظره أو أسبوعية فقد علم الله أنى كنت أشغف به كل الشغف وأقبل عليه كل الإقبال » .

ولكن عند ما أريد أن يهاجم المنفلوطى من جانب الحزب الوطنى كان طه هو مخلب القط فقد حمل عليه حملة واسعة متصلة استمرت عاما كاملا تحت عنوان (نظرات فى النظرات) بلغت ٢٣ مقالا نشر أولها فى اللواء ثم امتدت فى العلم الذى صدر فى مارس ١٩١٠ واستمرت إلى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٠ .

(٨)

من أبرز مواقفه فى هذه الفترة : تلك الجرأة على أساتذته ومهاجمتهم وتطاوله عليهم : وهذا ما سجله فى مذكراته حين قال عن الشيخ المهدى « وكان الفتى جريئاً عليه يجادله فى الدرس فيرهقه من أمره عسراً وربما أضحك منه الطلاب » وقد تحولت جرأته هذه فى مهاجمة من كانوا فى صف خصوم أوليائه الذين كانوا يعطفون عليه ووجدوا فيه قلما جريئا ، أما أحبابه فكانوا هم الزعماء الذين أنكرتهم الأمة ، عدلى وثروت وكان سوطاً قاسياً يلهبون به خصومهم ، ويصور هذا المعنى فى مذكراته حين يقول « وكان صاحبنا أطول الكتاب لساناً وأجرأهم قلماً فى مهاجمة سعد ونقد سياسته قبل أن يلى الحكم وبعد أن وليه وبعد أن اضطر إلى اعتزاله وأصاب الفتى من هذه الخصومة مكروه أى مكروه » .

كان يصدر فى أحكامه عن العاطفة ، وعن الهوى ، وليس عن عقيدة معينة أو هدف واضح .

وكذلك موقفه من الشيخ سيد المرصفى : يقول الدكتور محمد غلاب : كان الدكتور

طه تلميذاً مقرباً من المرحوم الشيخ سيد المرصفى وكان يتودد إليه ولكن لما ألف على عبدالرازق كتاب السياسة وأصول الحكم وحكم مجلس الأزهر عليه بالطرد كان الشيخ المرصفى أحد أعضاء هذه الهيئة ، وكان ذلك كافياً فى نظر الدكتور طه لاعتبار الشيخ المرصفى آثما يستوجب الاحتقار والإعراض من جانبه .

ويقول إسماعيل أدهم أحمد فى تراوح طه حسين بين المذاهب والبيئات أعتقد أن نقطة تحول طه حسين لم تكن إلا بعد إتصاله بالمستشرقين ، فقد كانت كتاباته قبل ذلك سويه ، خاصة فى اتصاله بالشيخ جاويش (١) .

وقد أشار طه حسين فى أحاديثه التى أفاض فيها فى أواخر حياته إلى مسالة إسقاطه فى إمتحان العالمية وقال (إن شيخ الأزهر سليم البشرى طلب إلى اللجنة أن تسقطنى فى الامتحان ومصدر ذلك أنى هجوته بشعر نشر فى بعض الصحف) ولكن الذين يعرفون الوقائع يشهدون بأن طه حسين سئل عن شىء صغير مما يعرفه الطلاب فى أوائل الدراسة الأزهرية فعجز عنه .

كما أشار إلى تأثره بالمستشرقين حين قال (تأثرى بالمستشرقين شديد جداً ولكن لا بآرائهم بل بمناهجهم فى البحث) .

وتكشف هذه الدراسة أن طه حسين تأثر بآرائهم وتابعها بالرغم من معارضتها للحقائق التاريخية والعلمية الأصيلة .

* * *

(١) كتابه عن طه حسين المنشور فى مجلة الحديث — ابريل ١٩٣٨

الفصل الثانى

رحلة أوربا وآثارها

عند ما وصل طه حسين إلى أوربا واستقر فى فرنسا طالبا بالجامعة وجد نفسه مقبلا على الدراسة التى تؤهله لأن يكون عالماً فى واحد من تلك العلوم التى تدرسها الجامعات الأوروبية ، وقد اختار التاريخ القديم وتاريخ اليونان والنلاتين ، ولكن كان عليه قبل ذلك أن يحصل على شهادة « الليسانس » الفرنسية .

وقد اتاحت له الأقدار تلك الفرصة التى كان لها أبعد الأثر فى تحقيق غايته ، وهى الاتصال بالأسرة الفرنسية التى نزل عندها بما ربط بينه وبين زميلته فى الجامعة برباط الصداقة الذى انتهى إلى الزواج ، فقد أعانه هذا اللقاء على اقتحام ذلك الجو العلمى وكان له أثره الواضح فى الخط الذى قبل به طه حسين وعمل له . فقد كان هناك ذلك القس الذى دافع عن خطبته بعد أن اعترضت عليها عائلة الفتاة واستطاع أن ينتصر له ويحقق له ذلك الأمل الذى كان يعده هو انتصاراً شخصياً له ولفرنسا وللفكر الغربى وكانت الكوليج دى فرانس هى أخطر المؤسسات التى اتصل بها طه حسين فى باريس فهى المصنع الذى يصنع فيه رجال الشرق فى محاولة إعدادهم لخدمة الثقافة الغربية وقد مر بها كثيرون من العرب واستطاعوا النجاة من تبعيتها .

ولقد كانت هــذه المرحلة من حياة الغرب ، قائمة على اصطناع الثقافة والجامعة وسيلة لتأكيد النفوذ الغربى فى بلاد المسلمين عن طريق هؤلاء المبعوثين وكانت فرنسا تحس بأن بريطانيا قد كسرت نفوذها الواسع فى مصر منذ عصر محمد على بعد الاحتلال وأنها غيرت وبدلت وأعلت من شأن الثقافة

الإنجليزية واللغة الإنجليزية ، وكان هناك صراع عنيف بين الثقافتين واللغتين : الفرنسية والإنجليزية ولذلك فإن القدرة على احتضان مجموعة من المثقفين المصريين كانت أمراً بالغ الأهمية فى نظر السياسة الفرنسية وكانت وزارة الخارجية قد جندت مجموعة من المستشرقين للعمل فى ميدان الجامعات لهذا الغرض أمثال ماسنيون ، الذى كان يدعو إلى استبدال الحروف العربية بحروف لاتينية ، وكان يدعو إلى إعلاء شأن اللهجات العامية فى البلاد العربية لتحطيم أواصر الفصحى : لغة القرآن ، وكان الوقت قد حان لاستشراء السيطرة التلمودية على الفكر الغربى وكانت أقوى هذه المؤسسات هى المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى كان يقودها دوركايم وليفى بريل اليهوديان ، وكان هناك أيضاً محاولة لتلقين الشباب المسلم فى مدرسة اللغات الشرقية تفسيراً للقرآن يقدمه رجل فرنسى اللغة مسيحى الدين ولكنه كان صهيونى الفكرة هو « كازنوفا » .

واجه طه حسين هذه المخططات ، وأوغل فى هذه التيارات ، متقبلا لها ، محبا لها ، فهو بطبيعته الطموحة إلى التبريز والشهرة وتأكيد الذات نتيجة عاهته ، قد مضى شوطا ، مع الآمال المعلقة ، التى يثيرها الجو العلمى حوله فى الجامعة والجو الاجتماعى حوله فى محيط الأسرة .

ولذلك فقد كان طه حسين صادقا أشد الصدق حين عبر عن نفسه أنه بعد عودته من أوروبا قد تغير تماما حتى لقد كان لذلك أثره الرجعى فى معارفه وصداقاته واتصالاته بأعلام الفكر الإسلامى فى مصر ، أحمد زكى باشا شيخ العروبة ، الشيخ محمد عبده ، الشيخ محمد الخضرى ، كل أساتذته هؤلاء لم يلبث بعد أن عاد أن هاجمهم فى عنف أو أعرض عن طريقهم فى العمل ، فقد كانت قد استوت له طريقة أخرى مخالفة أشد المخالفة .

نعم ، كان للرحلة إلى أوروبا أثرها البعيد والعميق فى التكوين الثقافى والاجتماعى لطه حسين حتى يمكن أن يقال إنها خلقته خلقا جديداً ، وأسلمته ولاءاً جديداً ظل مؤمنا به مدافعا عنه إلى أن غرغرت الروح ، بينما تغير كثيراً من أصدقائه وزملائه وتلاميذه محمد حسين هيكل ، منصور فهمى ، زكى

مبارك ، إلخ ولـكنه هو لم يتغير وظل ثابتا على منهجه ومذهبه كأنما كانت هناك قوة تحرسه عن أن يعود إلى الأصالة كما عاد هؤلاء .

ولقد أنتجت الرحلة إلى أوربا آثاراً متعددة أهمها :

(أولا) الاتصال ببيئات الاستشراق وتبنى مفاهيمها ومعطياتها وقد بلغ الدكتور طه فى هذا الاتجاه مبلغا جعل بعض الناس يظن أنه واحد من المستشرقين، وكان يقول أنه يرث عقلا يونانيا من أجداده القدامى، وكان يشير دائما بشيء من السخرية ولـكن بشيء من الرضا إلى ما كان يقال من أنه سفير فرنسا فى مصر أو سفير الثقافة اللاتينية (اليونانية الوثنية والفرنسية العلمانية) فى البلاد العربية .

(ثانياً) الإعجاب بفرنسا والولاء لها ، وهو إعجاب وولاء كان يصل به إلى أن يرجح كفتها على حقوق أمتنا ويقف معها مدافعا بينما تضرب بقنابلها دمشق . ويهاجم المجاهدين فى المغرب ويصفهم بالبداوة .

(ثالثاً) التأثر الشديد بثقافة الثورة الفرنسية ومطامحها ، بينما الثورة الفرنسية هى عمل اليهودية العالمية للسيطرة على المجتمع الأوربى والفكر الغربى ، ويبدو ذلك واضحا فى إعجابه بفولتير وديدرو وروسو وغيرهم .

(رابعاً) إتساع الخصومة مع الفكر الإسلامى والأزهر ، وذلك من طبيعة الأمور حيث لم يدع ميدانا للاسلام فيه رأى إلا قال فيه رأى الاستشراق وأثار شبهاته ودفع الناس دفعا إلى الدخول فى بوتقة التغريب وقد بلغ ذلك أقصى مدى حين دعا إلى الأخذ بالحضارة الأوربية خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، مايحمد منها وما يعاب .

(خامساً) بعث الأدب الشعوبي والفكر الباطنى والوثنى والمجوسى القديم وذلك من طبيعة الهدف الذى حمل لواءه ومن شان الأمانة التى حملها للتغريب والغزو الثقافى .

(٢)

وقد تحدث طه فى مذكراته عن رحلته الأولى إلى أوربا فقال أنه أرسل ليدرس التاريخ وكلف الحصول على درجة الليسانس وتطوع هو بهذه الرسالة لأنه سمع دروس الاجتماع التى كان يلقيها الأستاذ دوركايم فشغف بهذا العلم أى شغف . فكان كل فصل من هذه الرسالة يقرأه الأستاذان : يقرأه الأستاذ المستشرق أولا ثم يقرأه الأستاذ دور كايم وأشار إلى العهد الذى قطعه على نفسه قبل أن يسافر من مصر للجامعة « وهو ألا يقدم رسالة إلى جامعة أجنبية مهما يكن موضوعها إلا بعد أن تقرأها الجامعة المصرية وتأذن فى تقديمها وكان الدكتور منصور فهمى هو الذى اضطر الجامعة إلى أن تأخذ طلابها فى أوربا بأن يقطعوا على أنفسهم هذا العهد ، والناس لم ينسوا بعد ما أثارت رسالة الدكتور منصور التى حصل بها على الدكتوراه من ضجيج وعجيج أثار سخط الهيئات الرسمية أولا وسخط الرأى العام بعد ذلك ، واضطر الصديق الكريم إلى أن ينأى عن مصر قريبا من عام وحيل بينه وبين التعليم فى الجامعة أعواما ، ويتحدث الدكتور طه عن يوم الامتحان وقد رافقته زوجته الفرنسية وكيف إستقبل إستقبالا طيبا من الممتحنين وفهموا ما وراء الأكمة . يقول فى ص ١٩٨ من مذكرات طه حسين :

« ويقبل صاحبنا على الامتحان مشفقا منه أعظم الإشفاق مروعا به أشد الروع ، وإذا الأستاذ قد كتب على أوراق صغيرة أسئلة كثيرة وضعها أمامه ، وجعل الطلاب كلما أقبل واحد منهم على الأستاذ يرقبونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ ويقبل صاحبنا ترافقه زوجته ، فإذا أخذت ورقة ودفعتها إلى الأستاذ نظر فيها ثم ابتسم . ثم قال فى صوت عذب : « لقد أسعدك الحظ بمرافقة هذه الآنسة : حدثنى إذن عن الامبراطورية العربيه أيام بنى أمية » وأعفاه من أسئلة التاريخ الرومانى واليونانى القاسية .

ترى ماذا كتبت السيدة فى الورقة التى دفعتها إلى الأستاذ ، علم ذلك عند الله ولكن الذى فهم الأستاذ هو أن الرجل قد جاء محبا وسيعود مواليا للثقافة الفرنسية

خادما لها ومعه ملاكه الحارس الذى سوف يدفعه دائما ويحول بينه وبين النكوص عما تعاهده .

وفى هذا مصداق ما أشار إليه احد الباحثين حين قال: لقد كان للاعتبارات الروحية فضلا كبيراً على (طه حسين) فى الحصول على إجازته العلمية فى أوربا ، ذلك لأن الأساتذة الذين يتقدم الرجل إليهم ليشهدهم على نجاحه كانوا يتمثلونه فى أذهانهم رجلا شرقيا مكفوف البصر منسوبا — بالحق أو بالباطل — إلى معهد إسلامى هو الأزهر ، فلا يترددون فى سلوك مسلك التسامح معه والعادة المتبعة فى الجامعات الأوربية تقضى على أساتذتها أن لا يتعصبوا ونحن نرى أن وجود طه حسين فى الغرب أمراً كان بالغ الأهمية ، لقد ذهب أحمد حسن الزيات ومصطفى عبد الرازق وزكى مبارك ولكنهم لم يجدوا من العناية ما وجد هو ، أما الزيات فقد كانت أمانته للأدب العربى ولأمته قوية وعميقة ، أما مصطفى عبد الرازق فقد كان لا يزال يحتفظ فى باريس بعمامته بينما ألقى طه حسين عمامته فى البحر الأبيض بعد قيام السفينة به فى مشهد درامى مثير . أما زكى مبارك فقد عارض منهجهم فى رسالته وأصر على رأيه وتابعهم فى القليل وخالفهم فى أمر اللغــــة العربية . أما طه حسين فقد استجاب لهم إستجابة كاملة حتى قال : « ماسينيون » إننا حين نقرأ طه حسين نقول هذه بضاعتنا ردت إلينا .

* * *

الفصل الثالث

فى أحضان الاستشراق

عرف الدكتور طه طلائع المستشرقين فى الجامعة المصرية القديمة ثم ألقى بنفسه فى أحضانهم عند ما سافر إلى فرنسا للدراسة بها فى الفترة ما بين ١٩١٤ – ١٩١٩ . حيث تتلمذ عليهم فى جامعتين : مونبيليه والسوربون . واختاروه لحمل شعارهم فى معهد الدراسات الشرقية ، وقد أعجب طه بطريقة المستشرقين وتأثر بها وخضع لها بل ودافع عنها بعد ذلك دفاعا واسعا ، فى كل كتاباته وقد وجد طه فى معهد الدراسات الشرقية والسكوليج دى فرانس الأجواء التى كانت تهدف إلى احتوائه عن طريق الثقافة فتلقى مفاهيم الفكر الإسلامى من خلال منهج المستشرقين وخاصة فيما يتعلق بالقرآن ودراساته والشريعة والتاريخ ولما كان هو فى الأساس قد أعرض عن ذلك فى الأزهر ، حين تراوح بين الحلقات واستقر فى حلقة الأدب والشعر ، فإنه وجد جديداً فى أسلوب العرض ، وقبل بالسموم التى احتوتها هذه المناهج دون أن يتعمق محاذيرها لقصوره عن استيعاب مصادرها الأساسيه وقد وضع منهج تعليم طه بين المعهدين والجامعة على أساس واضح :

أولا : الإعلاء والتقدير لتاريخ الرومان وأدب اليونان وفلسفة الهيلينيه على نحو أقنعه بأن هذا التراث هو مصدر الفكر البشرى كله ، وأن الفكر الإسلامى تأثر به وتشكل منه ، يقول فى هذا ما كان يقوله أشد كتاب الغرب تعصبا على العرب والإسلام أمثال « رينان » .

راجع (مقدمة صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان) .

ثانياً : الثورة الفرنسية ودور : ديدرو وفولتير وروسو فى إثارتها ، وما ألقى إليه من أن يكون شبيهاً بواحد من هؤلاء فى الفكر الإسلامى والثقافة العربية هدما للقيم التى كانت سائدة ومحاربة للعقائد ودفعا للثقافة إلى أسلوب « الفكر الحر » .

والمعروف أن الثورة الفرنسية هى من صنيع اليهودية العالمية للخروج من خضوع اليهود للكنيسة وقوانينها التى كانت تحصرهم فى « الجيتو » وتحول بينهم وبين الاشتراك فى الحياة الاجتماعية والسياسية .

ثالثا : الاهتمام بدراسة تين ورينان وفولتير ، باعتبار أن رينان وفولتير من أعمدة الفكر الحر ، المعارض المسيحية فى الغرب المهاجم لها وأن تين هو الداعى إلى المذهب المادى فى النظرة إلى الإنسان ونتاجه الأدبى . (وقد كشف طه حسين عن صلته بهؤلاء وإعجابه بهم فى فترة متأخرة بعد أن اتصل بالوفد ١٩٣٥ وأصبح آمناً من معارضة المعارضين) .

رابعاً : ترجمة وإذاعة شعر بودلير العنيف فى إباحيته ، المسف فى أسلوبه ، وترجمة وإذاعة القصة الفرنسية المكشوفة .

(وقد حفلت كتاباته فى جريدة السياسة ١٩٢٢/١٩٢٣ ومن بعدها فى مجلة الجديد وغيره بهذه الترجمات التى كانت مثار تعليق زملائه أمثال المازنى) .

خامسا : الشعر العربى الإباحى القديم ، وتصيده وتصيد شعراء الإباحة والمجون ودراستهم والاهتمام بهم أمثال : بشار وابى نواس والضحاك وغيرهم .

ودعوته إلى تحرير الشعر من قيد الأخلاق ، باسم الفن للفن (اقرأ كتابه حديث الأربعاء) .

سادساً : إحياء الكتب القديمة التى كتبها الباطنية والإباحيون والملاحدة : وقد كان عونا فى إصدار رسائل إخوان الصفا ، وهى نحلة هدامة ، وكذلك أولى كتاب الأغانى إهتماما بالغا ودفع إليه الباحثين من تلاميذه لاتخاذه مرجعاً مع أنه فى تقدير جميع الباحثين لا يصلح لذلك ، كذلك أعان على طبع كتب تعلى من شأن الفكر اليونانى ومحاولة القول بأنه كان بعيد الأثر فى الأدب العربى أمثال كتاب (نقد النثر لقدامة الذى ظهر من بعد إنه لكاتب آخر) .

ويكاد طه حسين فى كل أعماله الكبرى أن يكون خاضعا للاستشراق متأثراً به تابعا له معليا من قدره متحدثا عن فضله على الأدب العربى والفكر الإسلامى .

فى كتابه فى الشعر الجاهلى = أخذ نظريته من مرجليوث .

رأيه فى (مع المتنبى) = أخذ نظريته من بلاشير .

مذهبه فى النقد = أخذ نظريته من تين ، وبرودنير .

بحثه عن ابن خلدون = أخذه من دوركايم .

إتجاهه فى حديث الأربعاء = أخذه من سانت بيف .

عمله فى هامش السيرة = أخذه من كتاب على هامش الكتب القديمة .

وقد تلقى طه حسين فكر الاستشراق فى الجامعة المصرية القديمة أساسا وكانت دراساته فى فرنسا إمتداداً لذلك مع تعمق فى محاولة إثارة الشبهات (وإن كان قد اتبع أسلوب مغايظة الجماهير فعوتب وأعيد إلى أسلوب الماكر) .

أخذ من (نالينو) : مصادر التاريخ الأدبى ومن (برجستراسر) : التطور النحوى ومن (جويدى) : علم اللغة الجنوبية القديمة ومن ليتمان فقه اللغة .

أما فى فرنسا فإن طه حسين تابع « دوكايم » ورأيه فى ابن خلدون إستهانة وانتقاصا ، وتابع « كازنوفا » عن مفهومه للقرآن وتفسيره له ، ولا ريب أن رأى هؤلاء المستشرقين فى القرآن معروف فهم يرون إنه من عند محمد لا من عند الله .

وإنه يختلف فى أسلوبه بين المكى والمدنى ولليهود دخل فى هذا المفهوم فقد أدسوا فيه التأثر والتأثير مع اليهودية فى المدنية ، ومفهوم كازنوفا هذا هو الذى قدمه طه حسين لطلابه فى الجامعة عن القرآن . وكازنوفا مستشرق له صلات بدوائر الاستعمار ومسيحى له إتصال بدوائر الكنيسة ، وفى مفاهيمه إتصال بالفكر التلمودى والوثنى والمليبى ، وكل هذا ممتزج بأرائه فى القرآن مما لا يمكن معه أن يكون صحيحاً ، ومن عجب أن طه حسين يقوّل إنه لم يفهم القرآن فى الأزهر وفهمه فى فرنسا على كازنوفا ، فأى فهم هذا وما مدى صحته بالنسبة لمفهوم الإسلام ،

إنه من المؤسف والخزى والمثير للسخرية أن يترك طه حسين الأزهر إلى باريس ليتعلم منها تفسير القرآن من مستشرق متأثر بالفكر اليهودى الذى كان إذ ذاك مسيطراً على البيئات العلمية فى الغرب ، ثم يجد فى هذه المفاهيم ما يرضى نفسه وما يشعره بأنها المفهوم الحقيقى للقرآن بينما ضاق صدره بمفاهيم القرآن الحقيقية فى كتب المسلمين الأصيلة التى واجهته فى اول حياته فى الأزهر فأعرض عنها وعجز عن فهمها ، إنه لمن المؤسف أن يقال إن طه حسين تلقى فهم القرآن على مستشرق مثل كازنوفا .

(٣)

تابع طه حسين المستشرقين فى آرائهم عن إنكار الشعر الجاهلى وإنكار وحدة اللغة العربية قبل الإسلام، فقد ذهب المستشرقون إلى أنه كان للعرب شعر دينى على مثال قصائد الهند والفرس والأساطير اليونانية ، ورتبوا على ذلك إنكار الشعر العربى المنسوب إلى الجاهلية لأنه خلو من التعبير عن العبادات والشعائر وما إليها ، وقد دحض الباحثون هذه الشبهة ، ووصف العقاد هؤلاء المستشرقين ومن تابعهم على هذا الفهم أمثال طه حسين بالجهل بعلم التاريخ الجاهلى [راجع (اللغة الشاعرة) (مطلع النور)] كذلك رفض المفكرون المسلمون شبهة اختلاف اللغة العربية قبل الإسلام وفى هذا المجال نذكر أن « الإستشراق » فى الغرب نشأ قديماً فى بيئة التبشير ولاتزال منه جذوره ومراميه وقد كانوا فى أبحاثهم إما تابعين لوزارات الخارجية والاستعمار التى تحاول أن تجعل من مهاجمة الفكر الإسلامى وتشويهه وسيلة لتدمير معنويات العرب المسلمين أو تابعين للكنيسة التى لها خلافها العقائدى مع الإسلام أو كانوا قاصرى المدارك فى فهم البيان العربى وتعمقه .

وقد صور زكى مبارك (مع الاحتياط له فى مجال البحث العلمى بتحفظ خاص فى خصومته الشخصية مع طه حسين) يقول له : مضيت فانتهبت آراء المستشرقين وتوغلت فسرقت حجج المبشرين وكان نصيبك ذلك التقرير الذى دمغتك به النيابة العمومية ، اتصلت بالمسيو كازنوفا ففرض عليك رأيه فرضا ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ ووقف مسيو ماسينون وقال: إننى حين اقرأ أبحاث طه حسين أقول هذه بضاعتنا ردت الينا) .

(٤)

دوركايم، وكازنوفا، ماسينيون، عملوا على صياغة فكر طه حسين ليكون غربيا خالصا، وصاغته البيئة الإجتماعية من الناحية الأخرى على نحو جعل أمانته للغرب ولفرنسا أكبر من أمانته للعرب والإسلام، بل جعلته يقدم بلاده للغرب لتكون تابعة له في الفكر ظنا منه أن ذلك قد يحررها من الاستعمار السياسي أو العسكري بينما هو بما قدم إنما استهدف أن يصهر أمته وفكرها في بوتقة الغرب، إحتواءاً وتبعية، ويحاول أن يجد كذلك من التبريرات ما هو كاذب ومضلل وذلك حين يرى أن الفكر الاسلامي خضع للفكر اليوناني قديما ولما كان الفكر الغربي الحديث وليد الفكر اليوناني فإن الفكر الاسلامي يستطيع المتابعة أو التبعية وهيهات أن يكون قوله ذلك صادقا أو مقبولا إلا عند أصحاب الاهواء أو البسطاء السذج الذين غرر بهم في دروسه في الجامعة.

(٥)

صوّر طه حسين علاقته بالمستشرق كازنوفا الذي علمه تفسير القرآن في الكوليج دي فرانس على هذا النحو: يقول « عرفته استاذاً في الكوليج دي فرانس ولم أكد أسمع له حتى اعجبت به إعجابا لم أعرف له حدا، كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس، كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين ولكني لم اكن أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا في اصابة وتوفيق لألفاظ القرآن ومعانيه، والكشف عن أسراره وأغراضه، فلم أكد أجلس الى كازنوفا، حتى تغير رأيي أو قل حتى ذهب رأيي كله وما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت ان الرجل كان اقدر على فهم القرآن وأمهر في تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون انهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق في تأويله، فتنت بهذا الرجل لا لأنه كان عالما حاذقا، ولا لأن منهجه في البحث كان متقنا دقيقا حصيفا بل لهذا ولشيء آخر خير من هذا، كان حراً خصبا رقيقا لا يتعصب لرأي ولا يتأثر بهذه العواطف المنكرة التي تفسد على الناس علمهم وأدبهم وفنهم وحياتهم العقلية والشعورية بوجه عام، كان كازنوفا مسيحيا شديد الايمان بمسيحيته يذهب فيها الى حد التعصب، ولكنه كان إذا دخل

(١) السياسة اليومية — ٢٧ مارس ١٩٢٦

غرفة الدرس فى الكوليج دى فرانس نسى من المسيحية واليهودية والإسلام كل شيء ، إلا ان لها نصوصا يجب أن تخضع للبحث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها فى معاملهم بما يشاؤن من ألوان البحث والامتحان،نعم،لم يكن مسيحيا ولا يهوديا ولامتدينا حين كان يعرض لنص من النصوص القرآنيه يدرس لفظه ويكشف معناه .

وأشار إلى ان ابن خلدون كان أشد ثقلا عليه وأبرهم عنده فى واحد ، وأنه كان يحب ابن خلدون ، ولكنه كان يهاجمه كلما سنحت الفرصة ، ذلك لأن ابن خلدون اتهم العرب تهما وزعم أنهم لايصلحون لحضارة ولا لعمران فلم يكن كازنوفا يغفر له هذا الاعتداء .

وما اشار إليه طه حسين عن كازنوفا ملىء بالمغالطات فلم يكن كازنوفا يفهم فى القرآن مايفهمه علماء المسلمين وإنما كان يفهمه ويبحثه من خلال ذلك المفهوم الاستشراقى للقرآن ، حين يرى الحرية المطلقة فى القول بأن القرآن من كلام محمد وأن آيات القرآن يمكن أن توصف بالقوة والضعف وهذا المنهج الذى تعلمه طه حسين من كازنوفا هو الذى طبقه فى كلية الآداب وسجله تلميذه محمود المنجورى فى بحث نشره فى مجلة الحديث الحلبية سيرد فى موضعه فى هذا الكتاب ، وخلاصته أن هناك قرآن مكي وقرآن مدنى وان الرسول تأثر بالكتب القديمة ، فى أسلوب القصص ، إلى آخر هذا الانجاه الجرىء على الله وكتابه ودينه ، أما موقفه من ابن خلدون فقد كان كاذبا فى اتهامه بما قال عن العرب ذلك أن ابن خلدون لم يكن يعنى العرب بما قال وإنما عنى الأعراب كما أشار إلى ذلك مؤرخوه : ساطع الحصرى وعلى عبد الواحد وافى

وقد أشار طه حسين إلى أن كازنوفا قد عطف عليه وبر به حين عينه فى الجمعية الأسيوية الفرنسية وأنه ظفر له بإحدى الجوائز عن رسالته .

وهذه عبارته : لم أكد أبرح باريس حتى أحسست عطف كازنوفا لى وبره بى فإذا هو يقدمنى إلى الجمعية الأسيوية الفرنسية ويجعلنى أحد أعضائها معه ومع زميله هوار ، فاتصلت بينى وبينه هذه المودة العلمية الخالصة للعلم .

(٦)

وأشاد إلى موقفه من ليتمان : « إذا ذكرت ليتمان إنما أذكر أستاذاً كان له أبلغ الأثر لا أقول فى حياتى الخاصة بل فى حياة كثير من الشباب الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة المصرية القديمة ، ما أعرف أن أحداً أثر فى الحياة العقلية للشباب المصرى فى ذلك الوقت مثل الأستاذ ليتمان والأستاذ نلينو ، نشأ بينى و بينه شىء من المودة لم يلبث أن تحول فى نفس ليتمان إلى حب عميق وكان يعتبرنى ابنه ، وكان يرى أنى قد استطعت أن أفهم عنه (نقول وهذا شىء طبيعى) .

(٧)

وقد سعى المستشرقون إلى إلحاق طه حسين بكل مؤتمراتهم وكانوا فرحين به لأنه كان يأخذ خططهم فينفذها ويقدم لهم من التقارير ما يرضيهم ، ولا يتردد فى أن يقول عن أى موضوع أن المستشرقين يرفضون هذا التفسير أو هذا الرأى ، وأنه لابد من إتخاذ أسلوب آخر يرضيهم ويقنعهم ، وقد ظهر هذا واضحا فى بحثه عن الضمائر(١) فى القرآن وقد حجب الدكتور هذا البحث بعد عودته ولم يسمح بنشره باللغة العربية حتى استطاعت جريدة كوكب الشرق أن تحصل عليه وتنشره .

وقد زيف الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هذا المفهوم الدخيل الذى قدمه طه حسين ويمكن القول بأن طه حسين لم يترك فرصة تمر دون أن يشيد بالمستشرقين ولا يحلو له أن يعرض لموضوع أيا كان ، دون أن يشير إلى الاستشراق بالتمجيد والمتابعة دون تحرج أو تحرز أو حياء من الإحساس الذى ينشأ عند قارئه إزاء تبعيته وعبوديته وولائه الشديد للفكر الوافد .

وقد يصل فى ذلك إلى حد بالغ الخطر .

---

(١) أشارت جريدة الاهرام فى ١٢ سبتمبر ١٩٢٨ الى أن مندوبها رأى صورة من محاضرة الضمائر فى القرآن وأراد الاطلاع عليها ولكن الدكتور قال له انه لا يشاء أن ينشرها باللغة العربية .

يقول الدكتور زكى مبارك فى هذا : لقد نشر المستشرق الروسى (اغناطيوس كراتشفوسكى) كتاب البديع الذى ألفه ابن المعتز . وأطال طه حسين فى الثناء على هذا المستشرق الروسى وتساءل مبارك قائلا : ترى ما هو هذا الجهد الذى بذله ذلك المستشرق الروسى حتى يستحق كل هذا الثناء ، كل ما فى الأمر أنه صحح سبعين صفحة ، ماقيمة ذلك بجانب الجهد القهار الذى بذله مؤلف النثر الفنى وهو يقع فى ثمانمائة صفحة من القطع الكبير ، لقد تجمعت فى طه حسين كل معانى المروءة فى تشجيع التأليف فقال (كتاب من الكتب ، أخرجه كاتب من الكتاب) فهل تعرفون كيف يثنى على من يصحح سبعين صفحة ويتجاهل من يؤلف ثمانمائة صفحة .

الجواب سهل : فذلك الرجل الذى صحح سبعين صفحة يعيش فى أرض بعيدة جدا هى البلاد الروسية ولن يعود عليه الثناء بمنفعة عاجلة أو آجلة تضايق الدكتور طه حسين ، أما الثناء على الرجل الذى ألف ثمانمائة صفحة فهو مخاطرة لها عواقب لأن مؤلف (النثر الفنى) يعيش فى مصر ، والثناء عليه بما هو أهله يضايق الدكتور طه مضايقة عنيفه ويضعه فى كفة الميزان مع شاب كان بمنزلة التلميذ من الأستاذ . أفهمتم كيف يتحكم الهوى والغرض وكيف تختلف الأحكام باختلاف الظروف ، هو يختطف كل ما يراه فى طريقه من الآراء التى تصله من بلد بعيد ، فهو اليوم تلميذ فلان وغدا تلميذ علان وكان بالأمس تلميذ ترتان وتكاد تجزم أنه لا يتشبع لفكرة ما إلا وهو فيها تبع لشخصية يتوهم أنها مستورة عن الناس ، ولكنه فى هذه الناحية سىء الحظ ففى مصر رجل يعرفه كما يعرف نفسه ، وهذا الرجل صحب المستشرقين أكثر مما صحب وهو يعرف من أفواههم أكثر مما يعرف ، فليس بغريب أن نرى الدكتور طه مطوقا بتهمة السرقة الأدبية فى أغلب ما ينشر من الآراء (١) .

(٨)

ولقد تابع المستشرقون طه حسين بالرعاية والتأييد والحديث عنه وتقديره

(١) جريدة البلاغ ٢٨ يولية ١٩٣٥ — وصاحب النثر الفنى هو زكى مبارك نفسه كاتب الكلمة.

ودعوته إلى كل مؤتمراتهم وحتى الساعات الأخيرة لوفاته كانوا يهدهونه جائزة ونيشانا ومالا وكذا دون توقف ، وقد ألف المستشرقون الإيطاليون عنه كتابا أشرف عليه فرانشيسكو جابريلي تحدثوا فيه عن دراساته للتاريخ والنقد والقصة والإسلام وفى هذا الكتاب يقولون أن ما كتبه عن أدب اليونان وتاريخهم وحياتهم خير ما قدم للأدب الغربى ، وأن كتابه على هامش السيرة قد كشف غوامض تاريخ المسيحية فى الشرق (تقول المسيحية لا الاسلام) .

* * *

الفصل الرابع

التبعية للفكر الغربي

قدم المستشرقون إلى طه حسين الفكر الغربي ، فى صورته التى عرفها الغرب فى العقد الأول والثانى من القرن العشرين ، وهو فكر كان قد حاصرته الأيدلوجية التلمودية فانصهر فيها فقد كانت مدرسة العلوم الاجتماعية قد ظهرت فى فرنسا وظهر من قبلها ذلك التيار الخطير الذى هاجم المسيحية وتحول عن الفكر المسيحى والفلسفة المثالية إلى الفكر المادى المتأثر بالمفاهيم التلمودية ، فى حلقات متصلة تبدأ بفولتير ، وفلاسفة الثورة الفرنسية : روسو وديدرو ثم تتصل بأوجست كنت ، وارنست رينان ، وماركس وتصل إلى دور كايم وفرويد وسارتر وتحملها أقلام وألسنة : كازنوفا ، ليفى بريل وماسنيون وغيرهم .

وعن طريق هؤلاء تشكلت فى نفس طه حسين وعقله وأعماقه تلك العقيدة التى عاش متحمسا لها ومدافعا عنها وحفيا بها وهى الولاء للفكر الغربى ولفرنسا وللفكر اليونانى ولأوروبا ، يقول .. « الأب » كمال قلته : فى رسالته عن طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه : أن الفكر الفرنسى بالنسبة إلى طه حسين أكثر من مدرسة أو من معين لقد كان جزءاً من حياته وجزءاً من إنتاجه حتى تكاد تحسب من خلال قراءة ما كتبه عن فرنسا وعن أدباء فرنسا وعن تاريخ فرنسا ما يقنعك بأن هذا الأثر لا ينتجه إلا من كان فرنسيا فكراً وعقلا وثقافة وإحساسا فعلاقة طه حسين بالفكر الفرنسى ليست علاقة أخذ فقط » .

ويصور هذه العلاقة فى تلك المتابعة بالإعجاب والإيمان لآراء المفكرين الغربيين ، كذلك إعجابه بباريس حتى أنها تكاد فى رأيه «تختصر العالم الإنسانى على اختلاف أزمنته وأمكنته». ويقول أنه حين وصل إلى فرنسا اندمج اندماجا تاما فى الحياة الفرنسية .

ويصل الأب قلته بعد تفصيل واسع إلى التساؤل : ما الذى أثر فى طه حسين من الثقافة الفرنسية أكثر من غيره من الأمور ، ويجيب على ذلك بقوله : فى ظنى أن البيئة الفرنسية بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعانى الحسية والمعنوية ، البيئة الفرنسية فى كل مظاهرها الخارجية والثقافية ، البيئة الفرنسية كبلد من بلدان العالم له تاريخه وجغرافيته وأثره البعيد والبيئة الفرنسية كحضارة من أرقى الحضارات ، البيئة الفرنسية كأسلوب من أساليب الحياة العصرية ، إسراف فى الحرية وحب الحرية نادراً مانجد مثله فى غير فرنسا ، حب للحياة وانغماس فيها ، البيئة الفرنسية كثقافة ، وفيها فلسفة إنسانية هى امتداد للفلسفات اليونانية واللاتينية بل لعلها هى ميراث هاتين الفلسفتين ، هذه البيئة الفرنسية هى أهم ما أثر فى طه حسين وفى فكره وفى حياته وفى أسلوب تفكيره وفى نظرته للأمور . لقد كانت حياة طه حسين الفكرية ، وفلسفته تنصب فى ظنى على غاية أساسية أن يخلق من مصر امتدادا لأوربا وللثقافة الغربية وفرنسا بالذات ، لقد كان يود من صميم أعماقه أن تقوم فى مصر حضارة ورقى كما فى أوربا وبخاصة فى فرنسا[1] .

ولا ريب إن هذه العبارة للباحث « كال قلته » تمثل أخطر الآثار التى أحدثتها رحلة اوربا وبيئة المستشرقين فى طه حسين : وهى دعامة فكره كله واتجاهه كله طوال حياته من بعد .

(٢)

ان الفكر الغربى الذى تلقاه طه حسين فى باريس وصدر عنه من بعد

---

(١) ص ١١٤ من كتاب طه حسين

طوال حياته فى كل كتاباته (سواء كانت أدبية أم تاريخية أم إسلامية) يتمثل فى خمسة مصادر هامة :

(١) فولتير : الفكر الحر

(٢) ارنست رينان وتين : الجبر التاريخى ، والاتفاق بين نشأة رينان ونشاة طه حسين (قسيس وشيخ أزهرى) كلاهما رأى نبيه من غير وجهة نظر دينه (كتب رينان عن المسيح وكتب طه حسين عن محمد) من غير وجهة النظر الأصلية .

(٣) أوجست كونت وبول فاليرى : ومفهومهما يتمثل فى قدرة العلم وحده على إيجاد حل للمشاكل والقضايا الفلسفية والاجتماعية ، ويدور حول : الجماعية وإلغاء الفردية والذاتية .

(٤) دور كايم وتين : ويتمثل مفهومهما فى نظرية تقديس الجماعة والإيمان بالجبر التاريخى المطلق .

(٥) ديكارت وسانت بيف ومذهبهما فى الشك الفلسفى .

وقد صور طه حسين اغلب هذه الشخصيات وكشف عن إعجابه بها ومتابعته لها .

(١) اما فولتير فقال عنه انه كان صاحب عبث ولهو ما وسعه العبث واللهو. وكان حاد اللسان حاد الطبع إنتهى به هذا إلى ان اغضب بعض الناس ، وانه كان حاد المزاج سريع التأثر بكل ما يرى ويسمع ويحس ، وانه جاهد فى سبيل حرية الراى وأثر جهاده فى الحياة الفرنسية أولا ثم فى الأوربية بعد ذلك ثم فى الإنسانية بوجه عام ، واندفع فى ذلك إلى غير حد فأساء إلى الدين نفسه وقال إن فولتير كان يحب المجد ويكلف بالشهرة ويحرص على السلطان ، وانه كان عدوا للديانات .

يقول : « وأنه كان يعلل ذلك أولا بأن الديانات مخالفة للإنسانية لأنها

سبب الاضطهاد وسفك الدماء ، تقول (لاشك أن فولتير يقصد اليهودية والمسيحية) وثانيا لأن الديانات مخالفة للعقل لأن فيها اسرار الا يستطيع العقل أن يفهمها وثالثا لأن الديانات عنده ديمقراطية وهى من حضارة الطبقات المنحطه لا تتصل بالطبقات العليا ، وأنه قد اندفع فى بعض الديانات إلى سخف كبير لاحد له فقد هاجم التوراة والكتب المقدسة كلها » .

كل هذا قاله طه حسين عن فولتير وهو يوحى بما يقول هو ويردده حتى يجعله كلاما سائغا ومقبولا لأنه يلقيه فى محيط آخر غير محيط الغرب المسيحى وذلك لأن السكوليج دى فرانس كانت ترى ويرى معها الاستشراق ومن وراءه الصهيونيه والتلمودية والماسونيه أصحاب الثورة الفرنسية أن إذاعة هذه الآراء كانت مقدمه للتحول الذى حدث فى الغرب وأن نقله إلى محيط الفكر الاسلامى سيؤدى إلى مثل ذلك ، وكل كلمات طه حسين توحى بالإعجاب بفولتير ، أحد دعائم المحافل الماسونية وفلسفتها ، ولو أن هذه العبارات لم تكن تصور فولتير ، لكانت خليقة بأن تصور طه حسين نفسه ، ولقد كان طه حسين متجاوزا لحق الترجمة والعرض للشخصيات الغربية بحديثه هذا الذى القاه فى قاعة إيورت فى الجامعة الامريكية بعد ان انضم إلى الوفد وأصبح آمنا فى حماية هذا الحزب الشعبى الكبير) وهو ما جمع فى كتاب اراء حره ص ١٥٣)

وهو مخطىء حين يرى فى الدين رأى فولتير ، فضلا عن ان الدين على إطلاقة لا تمثله هذه العبارات ، وإنما تمثل هذه العبارات (جوا معينا من الحياة الفرنسية فى ظل المسيحية فى عصر معين وأنها يرتبط بما قيل حول تفسيرات المسيحية نفسها) فهذه العبارات لا تمثل دين الله بشىء ، ولا تمثل ايضا ذلك الدين الذى ورثه طه حسين واعتقده ولم يكن يفهم أبعاده تماما ، عندما سافر إلى اوربا وحين تلقى مفهوم الدين من جماعة المدرسة الفرنسية والاجتماعية وهم تلاميذ الفكر المادى الذين صاغوا فكر التلمود فى مذاهب حديثة .

والاسلام غير هذا الذى صوره فولتير والذى ردده طه حسين وحرية الفكر هذه التى رددها طه حسين لم تكن إلا مذهب تلك الجماعة التى هاجمت الفكر المسيحى والكنيسة فى خلافها العميق وصراعها الشديد مع العلوم التجريبية التى عارضت بعض نصوص الكتاب المقدس .

ولذا فان حبه فولتير لم يكن فى سبيل حق ضائع ، وإنما كان فى سبيل فتح الطريق أمام الفكر الوثنى الاباحى الذى عرفه اليونان والرومان والذى كانت تصوغه الماسونية من جديد وتعيد اذاعته عن طريق الكوليج دى فرانس ومعهد الدراسات الشرقيه لتحتوى ، أولئك الوافدين من بلاد العرب والإسلام للاستعانه بهم لفتح جبهه لمقاومه الاسلام نفسه عن طريق جانبى فى بلادهم .

أما ان فولتير كان صاحب عبث ولهو وسخرية وأنه كان حاد اللسان وحاد الطبع فذلك شأنه وشأن طه حسين نفسه الذى كان كذلك ، فهو معجب باسم رنيان فى الفكر الغربى ويود لو نسب إليه أو تشبه به .

وقد اشار كمال قلته فى مقارنة بين طه حسين وفولتير إلى : ان طه حسين يشبه فولتير فى غالب امره ، فى نظرته إلى الإله الخالق (ص ٨٩) وفى رأيه فى استحالة التوافق بين العلم والدين والقول بالصراع بين العلم والدين ، وان فولتير هاجم رجال الكهنوت وان طه حسين هاجم رجال الازهر ، وان طه حسين تبعاً لذلك لايؤمن بأن الاسلام دين ودوله (ص ٩١) وأن طه حسين لايؤمن بذلك متأثرا بالفكر الفرنسى ، وأنه « يؤمن بما يؤمن به فولتير من ان الدولة يجب أن تتخلص من نير السلطان الدينى وأن تتحرر من ربقة الكهنوت لتصبح دولة علمانيه باسلوب هذه الايام ، وأن طه حسين قد أعلن أنه غير راض على مانص عليه الدستور المصرى من ان الاسلام دين الدولة » ويؤمن بما يؤمن به فولتير من أن الدين يرتبط بالعاطفة والخيال وأن العلم يرتبط بالعقل والمنطق وان الدين جامد ، يعذب الانسان فى صراعه ضد غرائزه ورغباته » الخ الخ (راجع قلته ص ٨٩ إلى ٩١ وما بعدها)

ولا ريب أن طه حسين فى جريانه هذا المجرى لم يفهم الإسلام حق الفهم وكذلك الاب قلته ولكنه نقل مفهوما غريبا لدين المسيحية إلى الاسلام متجاوزا المفهوم الحقيقى الذى يجمع فيه الإسلام بين العقل والوجدان والعلم والدين والروح والمادة ، والدين والدولة ، والدنيا والآخره .

(٢) أما رينان فذلك هو المثل الأعلى لطه حسين ، فقد كان رينان قسيسا وكانوا فى فرنسا يطلقون على طه حسين (رينان الاسلام) لأنه كان شيخا أزهريا . وحين يعرض طه حسين له فى محاضرته عن الرأى الحر فى قاعة إيورت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٣٥ يتحدث عنه بشغف بالغ وإعجاب ومتابعة

يقول أن رينان منذ قرأ الفلسفة اليونانية والعلوم التجريبية الحديثة « استيقن بأنه لم يصبح مسيحيا وبان هذا الدين أصبح غير ملائم لطبيعته فألحد رينان وإن لم يجهر بإلحاده وإلحاد رينان غريب وهو إلحاد حقيقى لأنه لم يكن مسيحيا ولكنه إلحاد يحتاج الى شىء من التفكير ، فرينان ظل متدينا غير أنه لم يتدين لما كان الناس يتدينون وظل يعبد إلها ولكن إلهه كان غريبا ، إلهه هو العلم وكل ما كان يضمره رينان من الإكبار والإجلال ، والثقه للدين نقله إلى العلم الحديث » .

ولقد أوحى إلى طه أن يكون كذلك ، وهذه العبارات تشى بأن له طريقا مشى به وسلكه بالنسبة للاسلام فهو الذى قال من إن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وهو الذى قال لطلابته : أن يكون بيننا عهد وثيق : أن نؤمن بالعلم (وسيرد تفصيل ذلك بعد) .

ولا ينسى طه فى حديثه عن رينان أن يتحدث عن إيمانه بوحدة الوجود وأن يفصل هذه النظرية معجبا بها داعيا إليها فى تلك النظرية المادية التى تقول : أن الآية (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) لا يؤثر إلا عن طريق القوانين ولا يؤثر فى الأشياء الفرديه ولا يعنى بالجزئيات ، ذلك ما قاله طه حسين وغفل عما وصف الحق نفسه به تبارك وتعالى من علمه بكل الجزئيات (وما تسقط من ورقه إلا يعلمها) ولو أنه قرأ الفكر الإسلامى لعرف ما رد به الإمام الغزالى على هذه النظريات التى اثارها الفكر الوثنى والملحد مما نقل إلى المسلمين من اليونان وتصل العلاقة فى التشابه والتقليد بين رينان وطه حسين حداً بعيدا حين يقول :

لقد انتهى إلى صورة من الشك ، إلى هذه الصورة العقليه الشاذة ، فقد اصبح رجلا يقبل جميع المذاهب الفلسفية على اختلافها ولا ينكر شيئا انكاراً

صريحا ولا يؤمن بشيء إيمانا صريحا : أصبح صورة من صور الشك ، وكان يلقي درسه ، ويؤيد مذهبه بالحجج والبراهين ثم يقول في آخر هذه الحجج والبراهين (ومع ذلك فلست مقتنعا بما أقول) ولم يكن يعرض لرينان في عصره الأخير فكرة إلا قبلها ورفضها في وقت واحد ، حتى أحدث في العقل الفرنسي في ذلك الوقت اضطرابا شديدا وحتى دفع الشباب الناشيء إلى شيء من الشك الخطر الذي لم يقف عند المسائل الدينية بل تجاوزها إلى مسائل سياسية ووطنية .

وهذا الذي يقوله طه حسين تماما عن رينان هو ما فعله طه حسين ، وما كان يملأ فكره وقلبه، طموحا وتطلعا إلى أن يكون رينان الإسلام ، ولقد فعل هذا تماما فألقى بذور الشك في كل ما اتصل به من فكر ومن عقائد ومن مفاهيم وقيم ولقد أحدث فعلا هـذا الاضطراب وأوقع الشباب في ذلك الشك الخطر .

ويقول طه حسين عن مثله الأعلى رينان : لقد اندفع (أي رينان) في الانتصار لحرية الرأي حتى لم يفرق بين حرية الرأي وبين الشك وحتى جعل الحياة لونا من ألوان العيب - إن صح هذا التعبير - تستطيع أن تستبقي من رينان هذا الجهد الصادق في سبيل العلم والبحث الحر ، ولكنك لاتستطيع أن تستبقي هذا الإسراف في الشك وهذا اللهو بالنظريات وهذا العبث بالحقائق وهذا الاندفاع إلى القبول والرفض والاستعداد لقبول كل نظرية وتلقي كل رأي ، وفي الإيمان والاضطراب وفي هذا خطر لابد للذين يقرأون رينان أن يتقوه» ونحن بالذي قال به طه حسين عن رينان نقول عن طه حسين ، وستكشف صفحات حياة طه حسين وفكره فيما بعد مشابهة تامة بهذا الذي انتقده في رينان ومتابعة تامه له .

(٣) كذلك فقد كان ولاء طه حسين للفكر الغربي ماضيا في طريقة الذي لايعد الفكر الإسلامي بالايجابيات والقيم العليا والمناهج والأساليب الأصيله ، ولكن بهذه السلبيات كلها ، وهو في أقوى مجال وأكبر ميدان عمل فيه وهو ميدان الأدب نجده يتابع «تين» في رأيه ومفهومه الذي استمده من المذهب المادي الذي لايرى الإنسان إلا جسما ومادة ولايرى في إطار حياته إلا البيئة

والعصر وحدها ويتجاهل تجاهلا تاما أن الإنسان روح ومادة وان هناك بعدا ثالثاً للحياة هو : العقائد التي تربط الإنسان بالله وبالوجود كله من أزله إلى أبده وتربط الحياة الدنيا بالآخرة . وتجعل الإنسان المزيد مسئولا وملتزما أخلاقيا ومبعوثا للجزاء والحساب بعد الموت ، هذا المفهوم الإسلامي أنكره طه حسين في نظريته في نقد الأدب ، متابعة لصديقه « تين » الذي يصوره في محاضرته فيقول :

ويرى (تين) أن الإنسان حيوان ينتج الأدب والعاطفة كما ان دورة القز تنتج القز ، وكما أن الأرض تنتج ماتنتج من نبات، إذن هو يدرس هذا الحيوان الذي ينتج الأدب كما تدرس دودة القز التي تنتج القز والأرض التي تنتج النبات وهو من هذه الناحية يوشك أن يكون ماديا وهو مسرف في التأثر بالفلسفة والعلم إسرافاً يوشك أن يخرج الأدب عن طوره الذي ألفه الناس ، وهو مفكر قبل كل شيء لحرية الفرد ، لاأريد الحرية السياسية ولا الحرية الشخصية وإنما أريد الحرية الفلسفية ، وهو ينكر (الاختيار) .

ويعتقد أن العالم متأثر بطائفة من القوانين تديره وتسيره دون أن تتعرض هذه القوانين للخطأ أو الاضطراب ؛ فهو إذن من أنصار الجبر ، ومن الذين يعتقدون أن الإرادة الفردية لا تؤثر في حياة العالم بشكل من الاشكال .

وهو حين يريد أن يفهم شيئا من الأشياء فهو لايعتمد في فهم هذا الشيء إلاعلى الحس يرى أو يسمع أو يلمس . فهو إذن من أنصار مذهب الحس ، وهو معرض عما بعد الطبيعه لايرى للانسانية وسيلة إلى العلم إلا بالحس ، وهو لايؤمن بما بعد الطبيعةولكنه لايجحده ، وإنما يقول لاأراه فلا أعرفه ، وهذا رأيه في الإله ، فإذا انتقل إلى دراسة الإنسان فرأيه في الإنسان رديء وهو يعتقد أننا إذا درسنا نفس الإنسان وجدناها تنحل إلى شيئين اثنين :

الإنسان قبل كل شيء حيوان متوحش وهو بطبيعته كغيره من الحيوانات

الضارية المفترسة تهذبه الحضارة شيئا فشيئا فهو إذن يحتقر الإنسان ، ومادام مؤمنا بالجبر منكراً للإرادة مؤمنا بأن الإنسان شرير بطبعه وأن عقل الإنسان شيء مكتسب فهوغير متفائل بالحياة وهو ساخط منكر للناس منكر لحياتهم على اختلافها ومادام (تين) يؤمن بأن الإنسان كغيره من الأشياء خاضع لقوانين العلم فليس من سبيل إلى دراسة الفرد من حيث هو فرد ولاسبيل إلى أن يدرس على أنه فرد والفرد جزء من الأمة والأمة جزء من جنس والأمة متأثرة بالإقليم ، متأثرة بالزمان متأثرة بكل مايتصل بها من مظاهر السكون والحياة ويقول أن (تين) فرض حرية الرأى على نفسه وخصومه وأنصاره فرضا وهو بهذا يدفع الفرنسيين والشباب إلى أن يفكروا فى كل شىء وأباح لهم أن يعرضوا كل شريف للإنكار والشك والرفض » .

وهكذا يحرض طه حسين الشباب ويفتح أمامه أبواب الإثم وسموم الفكر وإباحيات المذاهب ويشى بأشياء خطيرة ، فى بيئات أخرى ، فينقلها الينا ويثيرها خلال هذه الدراسات وفق أسلوب الاستشراق فى إثارة الشكوك،وهو فى نفس الوقت يكشف لنا عن أعماقه التى آمنت بالفكر الغربى فى أشد أحواله عنفا وشكا واختلاطا واضطرابا .

وذلك مذهبه فى النقد الأدبى أخذه من (تين وبرونتير وسانت بيف) لا يخرج عن هذه المعانى وذلك هو الذى طبقه من بعد على الأدب العربى فى عصور الإسلام وعلى الأدب العربى الحديث ، وتجاهل به أصالة الفطرة الإسلامية وطبيعة الإنسان الجامعة بين الروح والمادة ، وأثر العقائد والأديان فى بناء الأفراد ، فكرهم ووجدانهم .

وإذا كان تين قد عرف الجبر ، وعرض له طه حسين فى إنكار فإن طه حسين هو أول من أدخل مفهوم الجبر إلى الفكر الإسلامى الحديث حين كتب عن أبى العلاء وقبل أن يذهب إلى أوربا متأثراً بالنظريات التى طرحها المستشرقون فى دراسات الأدب فى الجامعة المصرية القديمة ، ولقد ظل طه حسين فى فكره كله جبريا منذ ذلك اليوم فهو ينكر

الإرادة الإنسانية وينكر ما يتبعها من مسئولية وجزاء وإذا كان يذهب فى ذلك مذهب الغربيين فهو ذاك وإذا لم يذهب فهو ما تقول به الباطنية فى الفكر القديم الغنوصى السابق للاسلام والذى جدده ابن الراوندى والرازى وغيرهم .

ويقول كمال قلته فى كتابه عن طه حسين (فى رأيى أن فولتير وطه حسين متفقان تماما فى المبادىء التى ارتكزت عليها فلسفتيهما) وصدق .

(٤) وأعجب طه حسين فى الفكر الغربى بالفيلسوف الذى وصف بأنه صاحب دين جديد فى الغرب (أوجست كونت) صاحب الفلسفة الوضعية الذى يقول بقدرة العلم على حل جميع القضايا والذى أعلن (دين البشرية) ووضع العقل فى المحل الأول لاستكشاف قوانين الوجود ، ويتابع طه حسين رأيه فى الفرد والجماعة ، يقول . (فالفرد إذن ظاهرة اجتماعية وإذن فليس من البحث القيم العلمى فى شىء أن تجعل الفرد كل شىء وتمحو الجماعة التى أنشأته وكونته محواً ، إنما السبيل أن تقدر الجماعة ويقدر الفرد ، ويقول : (ليس من الحق أن تنسى الجماعة التى هى المؤثر الأول فى ظهور الأداب والآراء الفلسفية وتقصر عنايتك على الفرد الذى كان مظهراً لهذه الأداب وهذه الآراء) وهو يذهب فى هذا مذهب الفلسفة المادية والماركسية التى تقول حيث يقول :

(والفرد إنما فى وجوده المادى والمعنوى أثر اجتماعى وظاهرة من ظواهر الاجتماع) .

وذلك قمة مفهوم (أوجست كونت) الذى عمقه من بعد (دور كايم) وصولا للفكر الغربى إلى المادية المطلقة .

ويقول كمال قلته : يتفق كونت وطه حسين فى أن الجماعة هى التى تنتج الفرد والدراسات العلمية والاجتماعية والخلقية وينبغى أن تنطلق من الجماعة لا من الأفراد فالفرد ظاهرة اجتماعية فى وجوده المادى والمعنوى أثر اجتماعى ، فجسمه وعقله وروحه أثر من ثمار البيئة الاجتماعية .

وهذه هى بذور النزعة الجماعية الماركسية فى أدبه وهى تتعارض تعارضا مطلقا مع مفهوم الإسلام للجماعة وللفرد ، كما تعارضت فكرة الجبرية التى آمن بها مع مفهوم الإسلام من قبل .

(٥) ويقبل طه حسين مذهب سانت بيف فى قطع علاقة الأدب بالفكر والدين، ويحاول أن يجعل الأدب الذى هو قطاع من الفكر لا ينفك عنه متصلا به فى مفهوم الإسلام الجامع ، يجعله متحرراً يستعلى بنفسه ويذهب إلى أبعد الغايات فى الحرية متجاوزا ضوابط الأخلاق والقيم ، يقول سانت بيف : « كيف يمكن للأدب أن يكون فنا إذا خضع لكل ما تحمل الأديان من حقائق أو من أساطير موروثة دخيلة » ويردد هذا طه حسين بغير وعى منه إن الدين الذى هو منتسب إليه ليس كذلك وأنه يحمل الحقائق وحدها ولا يحمل معه أى أساطير موروثة أو دخيله ولذلك فإنه لن يكون مانعا للأدب من أن يؤدى رسالته الحق ، لقد كتب سانت بيف هذا فى ظل تراثه الهلينى المسيحى الوثنى المضطرب ولكن طه حسين لم يواجه الحقيقة فى آفاق الفكر الإسلامى الذى يختلف عن مثل هذا التراث .

ويتصل بهذا ما أثاره طه حسين تبعا لما قال به سانت بيف من تقديس القدماء والسلف . والإسلام لا يقدس القدماء ولا السلف ولكنه يقدس الأصول الأصيلة للاسلام ويقايس عليها الرجال ، فإذا كانوا صادقين فى إيمانهم وعملهم وفق هذه الأصول فهو يكرم أعمالهم ، ليس فى الإسلام قداسة للقدماء ولا السلف ولكن هناك تقدير لدورهم الصادق فى نشر العقيدة وحماية الفكرة والدفاع عنها وتحريرها من الاضطراب الذى يصيبها حين يتصل بها الفكر البشرى والوافد .

(٦) ويتأثر طه حسين ببودلير وبول جاليرى واندريه جيد فى إطلاق الفن من قيود الاخلاق ويدعو إلى ذلك فى حرارة ، ويترجم أسوأ قصائد ديوان بودلير (زهور الشر) ويشيد بها ويقول أنه استطاع أن يتخذ من الرزيله

والضعف البشرى موضوعا للفن ، ويحاول أن يحدث فى الادب العربى ما أحدثه هؤلاء فى الغرب فيحيى قصص الفساق والزناة والإباحيين ويستخرجها من كتب المحاضرات والأغانى ويقدمها فى أسلوب مثير يملأ نفوس الشباب حباً لها وشغفاً بها ويضيف إلى ذلك مترجماته من الأدب الفرنسى المكشوف المسموم .

ومنه ذلك الاهتمام بالشخصيات غير السوية فى الرجال والنساء .

وهو معجب باندريه جيد لأنه « شخصيته متمرده بأوسع معانى الكلمة وأدقها ، متمردة على العرف الأدبى وعلى القوانين الخلقية ، وعلى النظام الاجتماعى وعلى النظام السياسى وعلى أصول الدين » وقد أشار إلى أنه يحب اندريه جيد ويترسم خطاه وقال أنه يصور نفسه من خلال شخصيته (أى شخصية أندريه جيد).

(٧) ويتأثر طه حسين بدور كايم تأثراً شديدا فى نظرته التى استمدها من الفكر الماركسى وهى نظرية تقديس الجماعة ، يقول كال قلته : إن نظرية تقديس الجماعة (بالنسبة لدور كايم وتلاميذه وهى كذلك بالطبع بالنسبة لأتباعه أمثال طه حسين) هى بالنسبة لهم كمثل إله بالنسبة للمؤمنين به وأنه من خلال دراسة الحياة الاجتماعية يمكن دراسة الفرد ، ومن هنا نقول فان محاولة محاكمة « ابن خلدون » إلى هذا المفهوم الخطير الذى لا يقره الإسلام ، لا ينتج منه إلا المعارضة .

(٨) وبالجملة نجد أن الفكر الفرنسى الذى آمن به طه حسين ودان له وحمل أمانته ونشره ودافع عنه واتخذه طريقا إلى النهوض ببلاده هو ذلك الفكر الذى حملته هذه المجموعة من المفكرين الذين دانو للنظرية المادية وللجبر التاريخى وللجماعة مع اعتبار الفردية تابعة لها ، والذين اعتبروا الإنسان مادة صرفا ، وأخضعوه لتأثرات البيئة والعصر والجنس ، دون أن يربطوه بالقيم العليا والإيمان ويقول طه حسين بأن الإنسان ليس له حرية فى الحياة ؛ « وأن الظواهر المادية ليس فيها تدخل إلهى ، وأنه ليس هناك ارتباطا بين الله والإنسان فيما يتم فى الكون وأن الإنسان مسير إلى مصير محتوم سببه علل مسبقة » .

وأن العلم وحده هو القادر على حل القضايا الاجتماعية والفلسفية ، وأن العلم مبنى على قواعد ثابتة لا تتغير (الأب قلة ص ٩٨) .

وهذا المفهوم معارض تماما لمفهوم الإسلام فى جملته وتفصيله ، وإن طه إنما كان يتقبل هذا كله عن الفكر الغربى الذى دخل فى مرحلة الاحتواء التلمودى بابتعاث الوثنية والمادية المليئتين مره أخرى ، هل كان قاصداً إلى تسميم الآبار الإسلامية ، أم كان يظن أن هذا هو الطريق الوحيد للفكر الإسلامى أم أنه لم يكن يتبين عمق الفوارق بين مفهوم الإسلام الجامع وبين مفهوم الفكر الغربى القاصر فى حدود المادة والحس والمنكر تماما لما وراء الطبيعة ؟ ذاك ماتحاول أن تكشف عنه هذه الدراسة فنحن لا نستبق الأحداث حتى نصل إلى ما كتب طه حسين من بعد ، ولكننا الآن نكتفى بأن نصور ما تلقاه فى أوروبا وما تأثر به .

وقد أشار هاملتون جب : إلى هذا الاتجاه من بعيد حين قال : إن طه حسين هاجم الرأى العام المصرى بطريقة الشك الفلسفى والرأى العام غير مستعد لها وسار يقطع المراحل من إنكار إلى إنكار وعنوان هذا الأسلوب حديث الأربعاء ، ثم تبعه بكتاب فى الشعر الجاهلى فأحدث ضجة ألجأت أولياء الأمور إلى منع الكتاب عن الناس واتهام طه حسين بالزندقة فى تلك المرة نما من الشرور التى كادت تجرها عليه جرأته » .

* * *

الفصل الخامس

الولاء للسياسة الغربية

فى ضوء هذا المفهوم للفكر الغربى ، وللإعجاب بأوربا عامة وفرنسا خاصة كانت له مواقف ، دافع فيها عن أوربا والغرب ضد قومه العرب والمسلمين وخاصة فى المغرب وسوريا . فقد رمى(١) عرب أفريقيا الشمالية بالهمجية والتوحش وقال إن الفرنسيين قد عانوا مشقة شديدة فى سبيل إخضاعهم وزعم إن ابن خلدون مخطىء فى إسناده . هـذا العصيان من عرب المغرب إلى العزة والإباء ، يقول طه . (بل إن الفرنسيين أنفسهم قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة فى مراكش فى سبيل بسط حضارتهم عليها ولم يستطع الرومان ولا الإسلام أن يلطف من أخلاق هذه القبائل أو يروضها على الحياة المنظمة للشعوب المتمدينة ولكن الحضارة الحديثة مع ما لديها من وسائل أقوى وأنفذ قد تصل إلى هذه الغاية يوما ما .

وليس هذا القول (كما يقول دكتور محمد غلاب) خالص لوجه العلم ولا لنصرة حق ولا الدفاع عن مظلوم ولكنها مساعدة القساة المستعمرين ولوصف أعمالهم الوحشية بأنها معاناة ومشقة فى سبيل بسط الحضارة والمدنية على تلك الشعوب المتوحشة التى ترفض التقدم والاستنارة ولو أن الدكتور طه أنصف لأعلن أن فرنسا تعانى ما تعانيه من المشقة ، (يقول هذا رجل تعلم أيضا فى فرنسا) فى سبيل شراهتها ومطامعها وبسط سلطانها على شعوب أضعف منها وأقل عدداً

---

(١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية : اطروحة طه حسين فى باريس

واستعداداً ولايعترف بأن امتناع هذه الشعوب عن قبول السلطان الأجنبي ضرب من ضروب العزة والكرامة والإباء والترفع عن إرضاء فرنسا والتمتع بحظوة علمائها فى السربون على حساب أولئك المرا كشيين الضعفاء المظلومين ولحاسب نفسه على ما يكتب ولخشى أن يترجم كتابه يوما إلى اللغة العربية فيقرأه الشاب المصرى الذى يقف الآن من انجلترا موقفا يكاد يشبه موقف المرا كشيين فى فرنسا فيجرهم قراءته إلى الاستكانة والذل أمام الانجليز .

إن الدكتور طه لم يبال فى سبيل غرضه بأن يخلط العلم بالسياسة ولم يكترث بأن يراعى فى هذا الخلط حرمة الحقيقة ولم يعتبر نتيجة هذه الأفكار فى الشباب الشرقى » .

(٢)

وفى ضوء هذا نجد السياسة الاستعمارية فى المغرب كانت دائما توجه الأنظار إلى طه حسين وإلى أثر العبقرية الفرنسية فى صنع أمثال هؤلاء الأعلام وقد تبنت جريدة السعادة التى تصدرها السلطات الفرنسية فى الجزائر مثل هذا الاتجاه الذى أطلقت عليه « الروح الفرنسية وتأثيرها فى الشرق العربى الحديث » وقد تحدثت بأقلام تابعين للفكر الغربى عما أسمته (لماذا أثرت العبقرية الفرنسية فى التفكير العربى دون سواها من عبقريات الأمم الأخرى فى محاولة للتقريب بين الجزائريين والفرنسيين بخدع الأجيال الجديدة ويحاول استقطابها فى محاولة لربط رفاعة الطهطاوى ومصطفى كامل وشوقى بفرنسا وبالثقافة الفرنسية فى القديم ، ومنصور فهمى وهيكل وضيف وطه حسين وصبرى ومبارك وبشر فارس فى الحديث وقالت إن فكر طه حسين فكر فرنسى وأسلوبه فرنسى وأنه اقرب إلى أسلوب تين ورينان (صحيفة السعادة فاتح فبراير ١٩٤٦) .

وقد كانت بلاد المغرب حتى عام ١٩٥٤ مغلقة أمام العرب تماما ، ولكن السلطات الاستعمارية سمحت لبعض رجال الثقافة الفرنسية بالدخول ، وهم محمود عزمى وطه حسين .

وقد ظن البعض فى مصر أن فى هذا نصر تحققه الثقافة العربية وليس غريباً ولا مثيراً للدهشة أن تسمح السلطات الاستعمارية لطه حسين بدخول المغرب بالرغم مما قاله فى المغاربة فى رسالته عن ابن خلدون .

ذلك أن طه حسين : هو وليد الفكر الغربى بعامه والفرنسى بخاصة وأنه معجب بفرنسا يقول « كل شىء فى فرنسا يعجبنى ويرضينى : خير فرنسا وشرها حلو فرنسا ومرها ، نعيم فرنسا وبؤسها ، كل ذلك يروقنى ويلذنى وتطمئن إليه نفسى اطمئنانا غريبا . إنى لأحس نفسى تسبق القطار إلى باريس على سرعة القطار ، وهى فصول مطولة فى تصوير باريس بأنها الجنة التى وعد الله عبادة المتقين .

كما يشير إلى هذه الفريضة الكاذبة : فريضة الحج إلى السربون .

وهو يصف النساء خاصة ولعل هذا كان من إعلانات الدعاية للسفر إلى التصييف فى فرنسا : « أما النساء فلهن منطق معقول ، هن متجردات فى النهار على الساحل متجردات فى الليل إذا أقبلن إلى الكازينو ، ولكنهن لايظهرن فى أجسامهن ما يظهرن فى النهار وإنما يظهرن فى النهار نصفا وفى الليل نصفا آخر للنهار الإعجاز ولليل الصدور » .

وهكذا يعلن طه حسين عن باريس !

(٣)

ولطه حسين تبعية سياسية : بالنسبة للاستعمار فى سوريا ولبنان كما فى المغرب ، يصور هذا خليل تقى الدين (الأديب : حزيران ١٩٤٥) فيشير إلى أنه بعد أن أوقعت فرنسا عدوانها على سوريا ولبنان ويوم عقدت الجامعة العربيـة دورتها الطارئة لمواجهة هذا الحدث أوائل يونية ١٩٤٥ وقد وفدت وفود البلدان العربية إلى مصر ومن بينها وفدان يمثلان سوريا ولبنان يحملان إلى مجلس الجامعة أمانى بلدين مناضلين فى سبيل استقلالهما وسيادتهما وقد خلفا

وراءها مدنا هدمتها مدافع الفرنسيين ، وقبوراً ملئت بشهداء جشع الاستعمار وإذا بالدكتور طه الأديب العربي الكبير ، يطالع الوفود العربية بمقالات كالأنهر طولا والتواء يحاول فيها أن يدافع عن سياسة ديجول تحت ستار الثقافة والأدب والفن وقيل لما : لا تؤاخذوه ، تلك أحقاد رجل أقصته السياسة عن الوظيفة ، وقال آخرون ما دخلت السياسة شيئا إلا أفسدته ، أما نحن فلا ندرى ما نقول .

يقول طه حسين فى مقال افتتحه بهذين البيتين :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

إن تصرف المستر تشرشل مع الجنرال ديجول لم يكن ملائما للتقاليد الدبلوماسية لأنه أعلن رسالته إلى الجنرال فى لندن قبل أن تصل إلى الجنرال فى باريس وأن هذا التصرف قد عقد الأمر بين الفرنسيين والبريطانيين .

يقول : خليل تقى الدين :

إذن فلعينيك أيتها التقاليد الدبلوماسية وفى سبيلك يجب أن تضرب دمشق إكراما لعيون اللباقة والسياسة ولا بأس من تهديم بضع مئات من المنازل وتقتيل بضع مئات من الأبرياء وتقطيع أيدى الجنود والتمثيل بهم ، وقتل المرضى على أسرة المستشفيات وانتهاك حرمة البرلمان . هذا هو منطق الدكتور طه السليم وهذه هى الأخطار القويمة التى رأى فرضا عليه أن يذيعها يوم انعقاد مجلس الجامعة المصرية لدفع العدوان عن سوريا ولبنان .

كلا يا سيدى الدكتور نحن لم ندافع عن تشرشل ولكننا نحارب الاستعمار وأيا كانت الأسباب التى حدت بك إلى إرسال مقالاتك فى تبرير عمل ديجول فى الساعة التى كانت سوريا تدفن فيها ضحاياها وتواريهم تراباً طاهراً ضمخ بالشهادة والبطولة فإننا لا نفهم ولا تفهم بلدان العرب المناضلة جميعا فى سبيل حريتها واستقلالها وسيادتها أن يقوم كاتب كبير وأديب مرموق كالدكتور طه أكرمته البلاد العربية ولم تمن عليه فيسخر قلمه للكلام فى الأصول

الدبلوماسية ويصم اذنيه عن سماع صوت المدافع تقصف فى دمشق ، بئست الأصول الدبلوماسية يا سيدى الدكتور وبئست السياسة إذا كانت أقدار الشعوب بحاجة أن تكون رهنا على مراعاتها ا . هـ

وهكذا جاء طه حسين فى ذات اليوم ليقول للعرب إن ضرب فرنسا لدمشق إنما جاء لأن هناك خطأ دبلوماسيا وقع من بريطانيا وأن تشرشل فى تصرفه مع ديجول لم يكن ملائما للتقاليد الدبلوماسية وقد أثار هذا التصرف كراهية وشكا كثيرا فى تبعية الدكتور طـه للسياسة الغربيـة ، والدفاع عنها فى الوقت الذى يجتاح فيه هـذه السياسة قطراً عربيا كذلك فعـل مع المغرب و مع هـذا فقد استقبل طه حسين بعـد ذلك فى لبنان وفى المغرب بالحفاوة والتكريم كما فعل مع دمشق ومن هذا أيضاً إن طه حسين لم يكتب منذ احتلال الصهيونية لفلسطين مقالا واحـداً حتى انقضى أجـله عن الصهيونية أو اليهود أو حق شعب فلسطين .

(٤)

لطه حسين فى هـذا المجال جولات واسعة ، منها ذاك الإعجاب الدائم والمتجدد بالثورة الفرنسية وكان موقفه بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ بعيد الأثر فى الدفاع عن الإرساليات الأجنبية فى مصر وحمايتها مما سيأتى تفصيله وهى المرحلة التى كتب فيها كتابه (مستقبل الثقافه) ليدافع عن التبعية الغربية الممثلة فى المدارس والجامعات والمناهج باسم التعاون الثقافى مع الغرب .

* * *

الباب الثانى

مرحله النضوج والتألـق

أولا : فى الجامعة

ثانيا : فى وزارة المعارف

ثالثا : فى الصحافة

رابعا : فى السياسة

مدخل

تمتد هذه المرحلة منذ عودة طه حسين من أوربا ١٩١٩ حيث عمل فى أربع ميادين [من خلال فترة إمتدت ثلاثين عاما حتى انهيت حياته فى العمل الحكومى عام ١٩٤٩ .

تلك هى ميادين : الجامعة والصحافة والحزب ووزارة المعارف .

ثم لم يلبث طه حسين أن تولى منصب وزير المعارف فى وزارة الوفد عام ١٩٥٠ ثم شغل بعد ذلك عدداً من المناصب الثقافية فى الجامعة العربية ومجمع اللغة العربية واستمرت صلته بالتأليف والصحافة والجامعة حتى نهاية حياته وكان قد توقف عن الكتابة عام ١٩٦٧ تقريبا وفى خلال هذه الفترة كان لطه حسين نشاطان آخران : هما الرحلة والمحاضرة .

وكان طه حسين قد بدأ حياته الأدبية عام ١٩١١ تقريبا حين أخذ يكتب مقالاته المتفرقة فى الجريدة واللواء والعلم وفى صحف أخرى كثيرة فى الفترة السابقة لسفره إلى أوربا ، ثم انضم حين عاد إلى جريدة السياسة وحزب الأحرار الدستوريين ، ثم اتصل بحزب الإتحاد فترة ما ، وفى عام ١٩٣٤ انضم إلى حزب الوفد وأخذ يكتب فى صحفه وفى خلال ذلك استمرت حياته الأدبية بالمقالة الصحفية وتأليف الكتب والترجمة من الأدب الفرنسى وكتب فى الأهرام والأخبار والجمهورية فى الفترة التالية لعام ١٩٥٢ .

* * *

الفصل الأول

فى الجامعة

عمل طه حسين فى الجامعة عام ١٩١٩ بعد عودته من أوربا وانتقل معها عند ما أصبحت جامعة حكومية ١٩٢٥ أستاذا وظل يرقى حتى أصبح عميدا لكلية الآداب ، ثم أخرج منها ١٩٣٢ وأعيد أواخر ١٩٣٤ واستمر بها إلى ١٩٣١ عند ما انتدب مستشاراً لوزارة المعارف ثم عمل من بعد مديرا لجامعة الاسكندرية ثم عمل بعد ذلك فى وزارة المعارف مديرا للثقافة حتى أحيل إلى المعاش ١٩٤٩ ، أى أنه ظل متصلا بالجامعة والتعليم أكثر من ثلاثين عاما متصلة كانت له خلالها آثاره البعيدة فى المناهج ونظام الدراسة وأخلاقياتها وتقاليدها .

وقد فرض طه حسين آراءه بقوة سلطانه فى الجامعة وفى وزارة المعارف فقد كانت له جماعة تحوطه وتوزع نفسها على أوجه النشاط المختلفة لتؤثر فيه وتتلقى توجيهاته وتلفظ من يختلف معه أو يستعلى عليه كما حدث مع على العنانى و زكى مبارك وسليم حسين ونجيب البهبيتى وغيرهم ومن هذا نفهم سر عبارة المستشرق هاملتون جب فى دراسته عن طه حسين حين قال . « وسواء قوبلت آراء الدكتور طه حسين بالموافقة أم لم تقابل فلابد أن يفضى نفوذه الواسع الذى يتمتع به إلى توطيد المبادىء التى يدعو إليها » ؛ فما هو هذا النفوذ . :

— فى نوفمبر ١٩١٩ قدم عبد الخالق ثروت (بوصفه سكرتير الجامعة المصرية) طه حسين إلى الجمهور فى قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية فى محاضرة قال فيها أنه عزم على إحياء التراث اليونانى لأنه يؤمن إيمانا جازما بأن مرجع الفكر فى الشرق والغرب هو إلى القدماء من مفكرى اليونان .

عمل فى هذه الفترة الأولى ١٩١٩ / ١٩٢٤ أستاذا للتاريخ القديم وكانت دعوته حارة إلى بعث تاريخ اليونان والرومان ثم عمل أستاذا فى كلية الآداب بالجامعة الرسمية وعلى شرط الواقف فقد دخل فى عقد تحويل الجامعة من أهلية إلى حكومية عام ١٩٢٥ .

وقد اختير لطفى السيد أنذاك مديرا للجامعة .

وفى ربيع عام ١٩٢٦ ألقى دروسه المشهورة عن الشعر الجاهلى التى لم تلبث حين طبعت أن أحدثت دويا شديداً فى دوائر الصحافة ومجلس النواب والأزهر لمعارضتها لطوابع الفكر الإسلامى وأعراف المجتمع وعقائده .

ومنذ تصدر فى كلية الآداب فقد أخذ يعد العدة لفريق منظم يسير فى الطريق الذى رسمه وبذلك عمل على أقصاء الذين كانوا على غير هواه واتجاهه .

وفى مقدمتهم الدكتورين . أحمد ضيف وعلى العنانى وكون طائفة من العاملين لطريقه المؤيدين له وفى مقدمتهم أمين الخولى وأحمد أمين وأحمد الشايب .

وقد هزه حادث الشعر الجاهلى ولكنه سرعان ما تبدد أثره بعد أن صودر الكتاب حيث أخرج بديلا منه كتابه (فى الأدب الجاهلى) وهو نفس الكتاب بعد أن رفع منه فصل وأضيفت إليه فصول ، وكانت السياسة الحزبية هى الحمى المنيع الحائل دون إعتقاله أو تقديمه إلى المحاكمة والذى حماه من غضب الشعب ! فانه سرعان ما سافر إلى أوربا فارا من الخطر حتى هدأت الأحوال وأعلن فى الصحف انه يشهد بان الله لا إله إلا هو منفذا وصية ثروت صديقه وحاميه الذى قال له : إحن رأسك للعاصفة واثبت ولا ترد على ما ينشر وكان ما ينشر كثير وخطير .

ولكنه فى عام ١٩٣٢ وقد تغيرت الحكومات والأحزاب ، أخرج من الجامعة وأعيدت مناقشة أحاديث الشعر الجاهلى وضج مجلس النواب بالثورة التى ألهبها ضده الدكتور عبد الحميد سعيد والتى كشفت الأسلوب الذى كان يتعامل به مع الطلاب فى دعوته إياهم إلى نقد القرآن بوصفه كتاباً أدبياً .

وفى هذه الفترة ١٩٢٢ — ١٩٣٤ حدث أخطر تحول فى حياة طه حسين عند ما تحول من تبعيته لحزب الأحرار الدستوريين إلى حزب الوفد فلما عادت أسهم الوفد إلى الارتفاع فى آخر هذا العام وكان قد كتب باسمهم فى (كوكب) (ثم أصدر الوادى) أعيد إلى الجامعة فى ضجيج شديد وكان انتقاله إلى الوفد عملا من أخطر الأعمال إذ أنه أتاح له حرية العمل فى مجال الفكر على نحو أشد جرأة وقوة .

وفى الجامعة عمل طه حسين على فرض اللغتين اليونانية واللاتينية بغير حاجة إليها .

وأنشا القسم الفرنسى واستقدم المستشرقين والأجانب وثارت من أجل ذلك ثائرات لم تهدأ دافع فيها عن هذا الاتجاه التغريبى الذى أنشاه ودعمه وعززه خلال حياته الجامعية والحكومية كلها .

(٢)

يصف البير برزان سكرتير طه حسين (الذى التقى به فى أواخر عام ١٩٢١ وعمل معه فترة عشر سنوات تقريباً) عمله فى الجامعة فيقول :

كان عملى مقتصر على قراءة كتاب تاريخ العرب فى أسبانيا وغيره باللغة الفرنسية وجريدة الطان وكانت قراءة الكتاب المذكور هى العمل الأساسى فى تحضير محاضراته بالجامعة المصرية ، وفى المساء يتوجه إلى الجامعة فيلقى محاضرته باللغة العربية النقية وكان يقرأ ما سمع فى الصباح لا تخونه الذاكرة فى سرد أدق بيان من وقائع التاريخ ولا فى ذكر الأسماء التى مرت به على سمعه وقت القراءة ، كان رأسه إله تلتقط الأشياء فتحفظها وتفهمها ثم تخرجها كاملة مرتبة متجانسة ليذيعها وبجانب الأدب الفرنسى (الراقى) كان الدكتور يبحث فى كتاب الأغانى . كان الدكتور يجد فيه من الشعر ما يوحى إليه كتابة تلك الفصول الطويلة والبحوث الممتعة عن أبى نواس وخمرياته وعن بشار ورزائله وعن غيرها . (جريدة الإنذار — ٢٥ فبراير ١٩٣٤) .

وهكذا نجد أن الدكتور طه يترجم كتاب دوزى حرفيا تقريبا فى محاضراته عن الأدب الأندلسى وعن غير دوزى فى بابه ، وانه يحسن نقل هذه المترجمات حرفيا إلى الطلاب فى الجامعة باللغة العربية ، حتى الأسماء الغربية كان ينقلها بالفرنسية ويحدث بلبلة وخطا بالغا .

وكان طه حسين حريصا على أن يفتح الطريق لخططه فى الدراسة بالإشارة إلى استقلال الجامعة ، وإلى أنها أدخلت مفاهيم البحث الحر عن حقائق العلم و الأدب لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ، وسرعان ما تكشفت أولى ثمارهذا المنهج الذى استقدمه الدكتور من الغرب وفرض على التعليم الجامعى عندما طبع مجموعة محاضراته عن الشعر الجاهلى . وتبين منها كيف أباح طه حسين لنفسه التعريض بكثير من القيم الأساسية للإسلام بالنقد والسخريةوالتحريف وخاصة ما يتصل بالقرآن ومن ذلك انكاره وجود شخصيتى النبيين الكريمين : ابراهيم واسماعيل وتكذيب حادث بنائهما الكعبة الثابت فى القرآن الكريم .

فلما أخرج من الجامعة من أجل ذلك جمع طلبة الجامعة فيما اطلق عليه حفل تكريم له فقال لهم : أرجو أن يكون بيننا عهد كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم «ألا نؤمن إلا بالعلم» وقدصور طه حسين العلم فى مناقشات بينه وبين الدكتور هيكل على صفحات جريدة السياسة : فقال فى إقرار عقيدته للدين ومفهومه له مايلى «أن الدين حين يقول بوجود الله و نبوة الأنبياء يثبت أمرين لايعترف بهما العلم» وقال . أن الدين نبع من الأرض كما نبعت الجماعة نفسها » وقال : أن الكتب السماوية لم تقف عند إثبات وجود الله ونبوة الأنبياء وإنما عرضت لمسائل أخرى تعرض لها العلم بحكم وجوده ولا يستطيع أن ينصرف عنها ، وهنا ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وما وصل إليه العلم » وطه فى هذا يردد مايقوله الأوربيون عن أديانهم فهو لم يعرف الإسلام معرفة صحيحه وإلا لعرف أنه لا يوجد فى القرآن أى تناقض بينه و بين العلم وحتى حين ينقل طه حسين ذلك عن ملاحدة الأساتذة الصهيونيين الذين تلقى عليهم (دوركايم ، ليفى بريل) وهما يهوديان و (كازنوفا وماسنيون) وهما من اتباع الفكر التلمودى ، يغضى بهوى وعن قصد عما يقول علماء الغرب أساتذة التجريب والأنابيق وما يردده بعض الفلاسفة أمثال بور ورينان من قول علماء التجريب من « أن أحكام العلم ليست

نهائية ، فكما نقضنا أحكام السابقين لا يبعد أن يأتي بعدنا أناس ينقضون أحكامنا) ويقول باكون : (أن الحقائق الدينية تظهر لنا باطلة ولكن ذلك يحدث نظراً لضعف معارفنا ويقول فولتير الذي يعجب الدكتور طه به ويدين له بالزعامة (كما أن الساعة تدل على وجود الساعاتي فالكون يدل على وجود الله) .

(٣)

ولا يكتفي طه حسين بأن ينقل إلى شبابنا ما تلقاه من كازنوفا في الكوليج دي فرانس عن القرآن بل يدعو هذا المستشرق وغيره لإلقاء أبحاثهم تلك المسمومة في الجامعة فإذا اعترض الشيخ محمود أبو العيون وغيره على هذا الأجزاء رد عليهم في عنف وفي جرءة وحماسة فيقول :

أريد أن يعلم الناس جميعاً أن الجامعة المصرية حين تدعوا أساتذة من أوربا لالقاء الدروس فيها لا تأتي بدعا من الأمر وإنما تتبع في ذلك نهج الجامعات الأوربية والأمركية ، وهذا الرجل الذي دعته الجامعة ليس رجلا عاديا وإنما هو أستاذ حقاً ولقد أريد أن يعلم الناس إني سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيرا لغويا خالصاً فتمنيت لو أتيح لماهجه أن يتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقا (١) .

ولكي نعرف وجهة نظر « كازنوفا » في القرآن والإسلام نعرض لما قاله في « محمد وانهاء العالم » وفي هذا الكتاب يتعرض بالتشكيك إلى سلامة نصوص القرآن الكريم ويزعم أن آيتين ذاتي شأن لا أصل لهما البتة بل وضعهما أبو بكر ثم اضيفتا لى القرآن وبعد أن خدع كازنوفا قارئه بالحديث عن الرسول ﷺ ووصفه بانه ثبت رصين أمين كما هي عادة الاستشراق الحديث ، ويقول « أن التعقل وتضوج الفكر الذين ول عليهما إذ أظهر الآيات الأولى الموحاه « ثم يشير إلى ما أسماه « جلالة كلامه الذي لا يقاس بغيره ولم يخطر لبال عربي قبله » ومعنى هذا أنه ينسب القرآن إلى النبي ﷺ وينكر الوحي والنبوة . ويقول عمر

---

(١) ٢١ اغسطس ١٩٢٣ — الاهرام

فاخوری فی کتاب (آراء غربية فی مسائل شرقية) الذی نقلنا عنه أن هـــذه الأهجية من كازنوفا أخطر خطراً على الإسلام من شتائم المستشرق اليسوعی (لا منس) التافهة ، ومحاولة كازنوفا تنصب على أن النبی ﷺ لم يعين خليفة له لأنه لم يفكر أنه سيموت وأعتقد أن إنتهاء العالم قريب وأنه سيكون فی حياته ، ولذلك فهو يعد أن آية (وما محمد إلا رسول قد خلقت من قبله الرسل) وآية (إنك ميت وإنهم ميتون) ، قد أضافهما أبو بكر من بعد .

ولا توجد سذاجة ولا حمق أشد من هذا الذی وقع منه كازنوفا والذی أراد به إثارة الشبهات وتشويه الحقائق .

ولقد رد كثيرون على كازنوفا وفندوا رأيه وأوردوا له من آيات القرآن عن يوم القيامة ما يكشف زيفه وضلاله ومنها آية (فاما نرينك بعض الذی نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون) وآية (فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون) . وآيات كثيرة تكذب كازنوفا فی دعواه . وبالجملة فان خلاصة رأی كازنوفا فی القرآن سيئة للغاية .

يقول : إنی أؤكد أن مذهب محمد الحقيقی أن لم يكن قد زيف فهو على الأقل ستر بأكثر العنايات وأن الأسباب البسيطة التی سأشرحها فيما بعد هی التی حملت أبا بكر أولا ثم عثمان من بعده على أن يمد أيديهما إلى النص المقدس بالتغيير ، وهذا التغيير قد حدث بعبارة بلغت حداً جعل الحصول على القرآن الأصلی يشبه أن يكون مستحيلا .

هذه هی عقيدة كازنوفا فی القرآن وفی الاسلام التی أشار بها طه حسين وأعجب وقال أنه لم يفهم القرآن إلا بعد أن سمع دروس كازنوفا وهی التی دعته إلى أن يردد هذه الآراء فی محاضرته ثم يدعو (كازنوفا) نفسه ليلقی هذه الابحاث على طلاب كلية الآداب .

لقد أشار محمود المنجوری إلى رأی طه حسين فی القرآن مما ألقاه على طلابه وسجل ذلك فی مقالات فی مجلة الحديث الحلبية وفی جريدة كوكب الشرق وما قرأه الدكتور عبد الحميد سعيد من كراسه أحد الطلاب فی مجلس النواب أثناء عرض قضية طه حسين هذا ولم ينفك طه حسين عن التشكيك فی القرآن ابداً

بل ظل يثير الشهاب حوله بصورة وأخرى وخاصة فى بحثه عن ضمير الغائب الذى القاه فى مؤتمر المستشرقين من عام ١٩٢٨ .

وقد انكشفت سريعا خطط طه حسين وأهدافه بعد صدور كتاب (فى الشعر الجاهلى) وقامت المظاهرات تطالب بقتله أو محاكمته وخطب سعد زغلول فى المظاهرة فقال : إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها ، هبوا رجلا مجنونا يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شىء من ذلك ، أن هذا الدين متين وليس ذلك الذى شكك فيه زعيما ولا أماما حتى يخشى من شكه على العامة فليشك ما يشاء وماذا علينا إذا لم يفهم البقر » (١)

وردت الصحف صيحة الخوف التى حملها أولياء الطلاب كيف يتركون أبنائهم لدى لا يحترم دينه ولا يوثق به ولا يركن إليه ، ودار الحديث حول إستقلال الجامعة وعلاقته بتجريح الإسلام ولكن هل بعد أن إنتهت غمرة الشعر الجاهلى توقف طه حسين أو ارعوى ، كان يؤمن بأن كل شىء فى مصر ينسى بعد حين ، فكان يعاود الكرة ، وكانت حياة الجامعة حافلة بالمحاولات ، وعندما تكشفت خطة التبشير فى الجامعات والمعاهد ، وقف منه موقفا مزريا ، حين قال ما ضر الإسلام أن ينقص واحداً أو تزيد المسيحية واحداً ، وعندما تكشف أن هناك كتبا مقررة فى قسم اللغة الإنجليزية فيها هجوم على الإسلام ورسوله قال كلمته الماكرة : أن الإسلام قوى ولا يتأثر ببعض الآراء ومن هنا تبين سبق الإصرار والترصد فى خطته فى الجامعة ، وتساءل الناس : كيف يمكن الملائمة بين إستقلال الجامعة وبين هـذه المحاولات « وإذ كان بعض الملحدين يتخذونه وسيلة لحمايتهم من الاحتجاج على تدريس مبادىء الالحاد للطلبة المسلمين » وكان يترك للاساتذة الانجليز فى كلية الآداب مطلق الحرية فى هذا العمل (٢)

ولكن الموقف فى الجامعة لم يساير إتجاه طه حسين وجماعته فقد برزت روح الغيرة الإسلامية والعزة القومية فقاومت هذا الإتجاه وحاصرت الدكتور طه فى مكتبه بكلية الآداب وكادت تفتك به لولا أن أنقذه بعض الخدم .

---

(١) الاهرام ١٩٢٦/١١/٧

(٢) مجلة الصباح — ١٩٣٩/٣/١٧

وعمد طه حسين إلى إخراج كل من له رأى أو أصالة من كلية الآداب واستبقى أعوانه الذين سار بهم إلى الطريق الذى رسمه وأعانه على ذلك لطفى السيد الذى كان مديراً للجامعة وفى نفس الوقت تابعاً لخطط طه حسين وخاصة فى خطة إنشاء معهد التمثيل والرقص والإيقاعى ودعوة الطالبات إلى الاختلاط وتحريضهن على ذلك ومعارضة الجبهة المسلمة التى حاولت أن تدعو إلى الدين والأخلاق. ولما ثار علماء الأزهر بشأن ذلك الاتجاه الخطر الذى دعا إليه طه حسين وشجعه فى الجامعة قال طه حسين قولته الماكرة :

« لا أعلم نصا فى كتاب الله أو سنة نبيه يمنع إختلاط الشبان بالشابات لطلب العلم » ولكن هل كان طه حسين صادقا حقا فيما قال : أو أن هذا الاتجاه كان سليما وصادقا .

لقد كان تحريض طه حسين على هدم الأخلاق فى الجامعة واسع النطاق بعيد المدى ، تحت اسم إستقلال الجامعة . فقد أدخلت الفتاة الجامعة سراً وقد أشار لطفى السيد فى حديث له عن ما قام به من إدخال الفتيات المصريات فى الجامعة سراً ، يقول « يسرنى أن أؤكد لكم أنى لم تعرض لى جزئية من الجزئيات تجعلنى أندم ولو وقتيا على ما شرعته الجامعة من هذه الخطة من غير أن يستفتى العرف العام » .

وهكذا تحولت بيئة الجامعة إلى مجتمع متحلل من القيود الاجتماعية التى عرفتها الجماعة الإسلامية والعمل من غير هوادة لشيوع وتطبيق أهواء تتعارض كل التعارض مع الضوابط الإسلامية السامية الواقية .

وقد أشار الدكتور عبد الحميد سعيد إلى أن حفلات رسمية أقيمت فى دار الأوبرا خليت لها الراقصات المحترفات ومن ثم عرفت حفلات الرقص والسمر فى البيوت تناقصت أخباره بعض الخريجات وغيرها ، والرحلات المشتركة ؛ وما كان يجرى فى اتحاد الجامعة ورابطة الفكر العالمى من محاضرات مادية الحادية ، ومقطوعات فرنسية على البيانو وروايات تمثيلية بقوم على الحب والغرام ، وكتب إحد الأساتذة الأجانب أنه خليق الجامعة أن تميل المثل الأعلى لا أن تمثل فيهم دور السكير .

وكان طه حسين يقول : إن هذا النوع من الحياة الحديثة لن يمضى عليه وقت طويل فى مصر حتى يغير العقلية المصرية تغييراً كبيراً » .

نعم ، لقد مضت الجامعة كما قالت الصحف : فيما شرعته من هذه الخطة من غير أن تستفتى العرف العام حيال أمر جوهرى يمس الأمة فى أسمى ناحية من نواحيها الإجتماعية ، تلك هى ناحية العرض الخاص وشرف الأسرة وضبط العلاقات بين الرجل والمرأه .

وقالت : إن مسألة قبول طالبات الجامعة أنما هى مسألة دينية إسلامية ، لما مكاز الصلاة فى الإسلام ، لأنها تتصل بصون الأعراض وعفة الأسر وشرف الجماعات ، وقــد عرف الأعداء أن محافظة المسلمين على الناحية الخلقية من حياتهم الخاصة حالت دون تحللهم واندماجهم فى الشعوب التى أغارت عليهم بل كانت داعية لفناء الشعوب المغيرة كما كانت السبب لحفظ كيان تلك الشعوب الاسلامية إلى يومنا هذا »

وقالت مجلة النذير : أن العرف الذى لم يستفته مدير الجامعه لم يكن عرفا كونته عادات متوارثة وتقاليد محليه وإنما هو آداب الإسلام وفضائل ساميه سنها الله للبشريه حماية لها وحصنا واقيا يقيها شر التحلل والفساد ، هذا العرف العام هو « دين الاسلام » (1)

(٤)

وعقد السيد رشيد رضا فى مجلة المنار فصلا عن الخطة التى يقودها طه حسين فى كلية الآداب « لهدم مقومات هذه الأمة ومشخصاتها ووصفها بالقديمة وقال أن هذه الجماعة تعمل فى كلية الآداب وجريدة السياسة ، وأنها تعمل على التشكيك فى الدين وتقليد الافرنج فيما يسهل التقليد فيه من المنكرات » بل نراهم يعنون بتحقير آداب اللغة العربية ليجردوا الأمة من هذا الفضل الذى يفضلها على غيرها من الأمم .

---

(1) مجلة النذير — محرم — ١٩٤٢ م
(1) المنار ج ٥ م ٢٧ ص ٣٨٧

« وقد بدأ هؤلاء الزنادقة بهدم الدين هدما مطلقا لاهدم تجديد كما يدعون فى غيره ، ثم شرعوا فى تحقير آداب اللغة ، وألف الدكتور طه كتبا كذب فيها نقلة اللغة العربية ورواة آدابها فيما رددوه من شعر العرب فى عصر الجاهلية وزعم أنهم هم الذين وضعوا المعلقات السبع وانتزوها على امرىء القيس ، وقد ألقى هذا الكتاب دروسا فى الجامعة المصرية الرسمية وربما يصدق الكثيرون من طلابها هذا الأعمى البصر والبصيرة فيما يكذب به علماء الأمة الاسلامية وكتاب وحيها وحديث نبيها المعصوم فيما يريد به تجريد أمتهم من الدين واللغة والنسب والأدب والتاريخ، ليجددهم بذلك فيجعلهم أمة أوربية !! بل طعمة للدول الاوربية كما جدد نفسه و بيته بتزوج إمرأة غير مسلمة وبتسمية أولاده منها بأسماء الأفرنج رغبة عن الأسماء العربية القديمة والجديدة واحتقاراً لها وقد حدثنا الثقة عن أحد أصدقائه أنه قال: لامانع يحول دون اقناعنا للمصريين بسيادة الانجليز وحكمهم إلا الدين ، أى فلابد من إزالة هذا المانع ومن الغريب أن عمدة دعاة الزندقة فى هدم مقومات هذه الأمة ومشخصاتها وصفها — أى الأوزان والقوافى العربية — بالقديمة .

ومن عجيب أمر هؤلاء أننا نراهم يدعون إلى انتحال ماهو أقدم مما يذمون من قديم أمتهم ، كالأدب الأغريقى والشعر الأغريقى الذى هو دون الأدب والشعر العربى الجاهلى والإسلامى . والحق أن كلمة الجديد والتجديد كلمة خادعة للنابتة مستهوية لخيال الشبيبة لانهم لايريدون إلا جعل هذه الأمة لقمة سائغة لسادتهم المتعمرين بتقطيع مايربط بعضها ببعض من لغة وأدب وتشريع ودين وأنهم ليدعون دعاوى لاتثبتها بينه ويؤلون اقيستهم من قضايا لاتقوم عليها حجة بل هى كذب وبهتان » اهـ .

والحقيقة أن إثارة أمر الشعر الجاهلى لم يكن الهدف منه تطبيق موازين النقد الغربى على الأدب العربى ولكن ذلك كان الاطار الخادع اما الأمر فكان اكبر من ذلك ، كان الهدف هو فصل الأدب عن الفكر الإسلامى ودعائمه وقيمه واطلاقه حراً لايرتبط بقيم ولا ضوابط ولاحدود ويذهب إلى أقصى ماذهبت إليه الآداب الغربيه من اباحية وكشف وجنس وإلحاد .

تلك هى فكرة طه حسين الأصيلة « تحرير الأدب العربى من اطاره الإسلامى

العام » يقول المشرق جب « إن الفكرة إلى يرمى إليها طه حسين هى تحرير الأدب العربى من القيود التى تربطه بالعلوم الدينية وحتى يدرس الأدب لنفسه ولا يكون وسيلة لفهم القرآن والحديث » بل أن طه حسين يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول [أنا أريد ان ادرس تاريخ الأدب فى حرية وشرف كما يدرس صاحب العلم الطبيعى: علم الحيوان والنبات] ونقول كيف يمكن دراسة الانسانيات بأساليب الماديات ، وذلك هو غاية المذهب الغربى فى النقد ، وتلك هى غاية طه حسين من تطبيق هذا المذهب ، وطه حسين جرىء فى هذا جرأة بالغة حين يقول : من الذى يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشراً للاسلام أو هادما للالحاد ، وأنا لا اريد أن أبشر ولا اريد أن أناقش الملحدين ، نعم هو ليس مبشراً للاسلام ولكنه يتخذ طريقا خفيا مسروقا خادعا ليصل بالشباب إلى الالحاد دون أن يناقش الملحدين .

(٥)

وتتابعت فى كلية الآداب خطوات طه حسين فى سبيل خطته ، فأقام حفلا لتكريم رينان « الفيلسوف الفرنسى » الذى هاجم الإسلام أعنف هجوم ورمى المسلمين والعرب بكل نقيصة فى أدبهم وفكرهم ، كذلك جعل الشعار الفرعونى هو شعار الجامعة وقد لقى من ذلك كله معارضة شديدة وخصومه واسعة وصلت إلى كل مكان فى البلاد العربية وارسل إليه الأستاذ توفيق الفكيكى من العراق إلى طه حسين برقية خطيرة قال : «أن شعاركم الفرعونى سيكسبكم الشنار وستبقى ارض الكنانه وطن الاسلام والعروبه برغم الفرعونية المندحرة .

وكان طه حسين يصر على القول بأن مصر فرعونيه ، وأنها تابعة لليونان فى الفكر ، وتابعة للبحر المتوسط والغرب فى السياسة وأن مايصلها بالاسلام ليس شيئا له أهميه ولكنه أشبه بما يصل الغرب بالمسيحية .

وكان من أخطر ردود الفعل لهذه الآراء المسمومه : أن حرق الشباب العربى فى الشام كتب طه حسين فى ميدان عام فى قلب العاصمة دمشق وقد نشرت جريدة المقطم فى ٦ سبتمبر ١٩٣٢ انه جاء من دمشق أن أعضاء اللجان الأدبية والجمعيات الثقافية فيها اجتمعوا ودرسوا مقال الدكتور طه حسين (دائره) وقد جاء فيه [خضع المصريون

لضروب من البغى والعدوان جاءتهم من الفرس والرمان والعرب ايضا] وان عصبة العمل القومى قررت احراق كتب طه حسين فى ميدان عام ، لأنه واحد من الذين يهونون أمر العرب ويصغرون من شأنهم ويرفعون الصوت بالدعوة التى يكرهونها من الكراهية إلا وهى الفرعونية » وقد كشفت مجـــلة النهضة الفكرية خلفيات هذه الأحداث حين قالت فى عددها ٧ نوفبر ١٩٣٢ :

« كانت هناك مفاوضات بين بعض المصريين وجماعة مستر تشارلى مميث أعضاء الهيئة التنفيذية لجمعية الاتحاد الكبرى بأمريكا ، وعرضت الجامعة الأمريكية بعض المواضيع التى يشكلمون فيها وكانت النفوس محملة بالشكوك ضد الجامعة الأمريكية واتفقوا على التأجيل ولكن الدكتور طه كان اشجع الجميع فأعلن أنه سيفتتح موسم المحاضرات فى قاعه يورث وقال : أننا نعيش فى شعب ينسى اليوم ما ذكره امس ولا يعيش فيه إلا الجرىء .

وقالت أن الدكتور طه تعمد إحدى كنائس فرنسا وانسلخ من الإسلام من سنين فى سبيل شهوة ذاتية : وهذا هو النص الكامل لما كتب الأستاذ محمد محمود بدير المحامى فى مجلة النهضة الفكرية (٧ نوفبر ١٩٣٢) قال : أن على الدكتور طه أن يحدد موقفه وأن يحرر هذا الأمر دون ليس أو أبهام « فإذا كان الدكتور لا يزال مسيحيا منذ تعمده ولا يزال أبناؤه مسيحين بأسماء مسيحية ، وأن ما يبدو منه أحيانا من شكوك ونزوات لا تؤثر على مسيحيته فلن يعود بعد اليوم إلى الطعن فى الأديان والغمز للعقائد ، وإذا كان قد رأى بعد تعميده ان الدين المسيحى لا يتفق مع عقله الجبار فليترك التمسك بالتبشير والمبشرين ، آما أن يظل موزعا بين الاسلام والمسيحية مدعيا الاسلام ، أما يلعب فى كل جهة ويعبث مع كل طائفه فليس فى هذا شىء من خلق الرجال » ثم أورد عبارة يفهم منها أن الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى كان باريس فى وقت سابق يعرف ذلك فقال : عليه أن يسأل زميله السيد مصطفى عبد الرزق ويستحلفه بحق فولتير موليير ورينان » .

وقد ترددت هذه الاراء كثيرا فى أندية القاهرة فى ذلك الوقت نتيجة موقف الدكتور طه السلبى من قضية التبشير الكبرى التى كانت قـــد اثارت الصحف والهيئات الإسلامية خلال عامى ١٩٣٠ و ١٩٣٣ وكان يتناول هذا فى جريدة كوكب الشرق بشىء كثير من الاستهانة والسخرية فاذا اضفنا اليها سماحة

بتدريس كتاب برناد شو في قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب وفيه نقد وسباب شديد للاسلام واصراره على بقائه بعد ثورة الطلاب عليه ، فإذا أضفنا إلى هذا مواقف كثيرة وقفها مؤيداً الارساليات ومدارس التبشير كان للناس أن يتشككو او يرجحوا هذه الاشاعة التى ربما كانت كاذبة ، وأن كان الدكتور بديع شريف وهو أحد كبار رجال الدبلوماسية العراقية والموجود الآن بالقاهرة قد اكد لى أنه حصل على نص مكتوب لمحاضرة القاها الدكتور على العنانى فى دار العلوم فى الثلاثينات - وكان هو طالبا بها فى هذه الفترة تشير إلى هذه الشبهة التى قد ترتقى أو لاترقى إلى ان تكون حقيقة والمعروف أن الدكتور طه أخرج الدكتور العنانى من كلية الآداب .

(٦)

إن منهج البحث هنا حول اخلاقيات رسالة العلم الحقيقية فى الجامعات فكيف كان الموقف فى كلية الآداب؟ لقد كان طه حسين يقرب أناسا ويبعد أخرين ، وكان يتراخى فى أسس الأمانة العلمية إلى ابعد حد حتى كان يعلى من شان رسائل لا اهمية لها ويخفض رسائل أخرى من وراء هواة ، فهو قد رفع من قدر رسالة اليهودى (إسرائيل ولفنسون) واعتبر هذه النصوص الصهيونية التى وضعها اليهود خداعا العالم وللناس بما يثبت لهم حقا فى فلسطين ، ثم جمعها هذا الباحث فى رسالة علمية أقرها طه حسين وقدمها بالتقدير والاعلاء ، بينما كان له موقف آخر مع الشباب الذى يحتفظ بكرامته ويتعالى عن اساليب النفاق .

ويصور الدكتور نجيب البهبتى (وهو أحد تلاميذ طه حسين ١٩٣٤ وكان من خطباء حفل تكريمه بعد إخراجه من الجامعة) .

يقول فى مقدمة كتابه تاريخ الشعر العربى فى القرن الثالث الهجرى(١) : لقد سلخت من هذا الكتاب ومن صنوة (أبو تمام الطائى) كتب بتمامها وقامت بها على رسلها وماكان ذلك ليؤذينى وماكنت لاضيق به أو اعضب له لو ان الأمور فيه جرت مجراها الطبيعى المألوف من انتفاع المتأخر بثمار عمل المتقدم واضافة

---

(١) طبعة بيروت مايو ١٩٧٠

جديدة إلى ماأصبح عملا علميا محققا ، لم يكن النقل من الرسالة حينئذ ليسيء إلى ولكن هذا النقل من الكتابين خرج على صورة الانتحال . لقد كان هذا فى الحقيقة هو الواقع المؤسف الذى يحمل على الرثاء والحزن والغضب جميعا ، الرثاء للاساتذة الذين أظلوا السرقات وعاشوا عليها والحزن لأن التردى العلمى قد بلغ إلى حد الاستهانه بالناس وبالتاريخ وبالعقول ، ثم كافأ الذين حمل إليهم هذا الخداع أصحابه بالترقيه والتقدير وبالمنصب المشرف على التحكم فى عقول جيل تربى على الطريقة نفسها ويلقن الانتحال أسلوبا عمليا يسير عليه فى بناء نفسه وشق طريقه إلى مستقبله وبالغضب لأن إفساد الضمائر وزيف التكوين والخداع فى الحقائق كلها كفيله بردنا إلى منازل الضعف والمهاوى التى رحنا نشهد آثارها فى حياة أمتنا تتجسد هزائم جرها علينا الكذب والخداع والزيف والتآمر ، فإذا أضيف إلى هذا أن حامى هذه السرقات الأول وفاتح بابها وأخطر مرتكبيها فى العصر الحديث هو رجل عرف بعد أنه المستقبل الأسود لمفاخر الإسلام والعروبة ، ومنافخته المثابرة المتصلة عن خصومها من اليهود ومن وقف من الإسلام والعرب مواقفهم ، كان ذلك اعرق فى أظهار معنى التآمر والايغال فى النكاية بنا عن طريق تربيه ضمائر النشأ على الفساد والمعاونة على خلط الحق بالباطل زيادة فى البلبلة .

وليست القضية فى حقيقها حكاية سرقة كتاب أو العمل على خنق صاحبه والتنكيل به إنتقاما منه وحقداً عليه بقدر ما هى أفساد متعمد لضمير أجيال من باشئتنا وآعدادها بالسلاح الخطر الذى تضرب به وتمسكينها بالشهادة المزورة من اعناق أجيال من الشباب يقعون بحكم سير الحياة تحت سلطانهم وجعل « الكذب العلمى » شريعة ومنهجا متبوعا وطريقا أمينا يتخذه من شاء الانتفاع به مطمئنا واثقا بانه بلغ به أمله فى العمل وفى الثروة أحياناً ، تلك هى الظاهرة التى تبلورت فى جوانب كثيرة من حياتنا فالسرقة العلمية قد إستحالت إلى وضع طبيعى مألوف يقدم عليها صاحبها هادىء البال مطمئن الضمير ثم هو بعد ذلك واجد من يقدمه إلى الناس بوصفه صاحب محاولة (أنفق فيها صاحبها وقتا طويلا وجهدا خصبا) وأن الممتحنين اعجبوا بها أعجابا شديداً وأهدوا إلى

الدكتور الشاب خير ماتستطيع الجامعة ان تهديه من درجات التشريف العلمى .

تماما كما قدم هذا الأستاذ من قبل رسالة الصهيونى (إسرائيل إولفنسون) المشرف على البعوث الإسرائلية إلى أفريقيا الآن فقال : فاذا كان عالما الشاب قد وفق إلى الخير فى هذا الكتاب الذى أقدمه أنا إلى القراء سعيداً مغتبطاً بتوفيقه مضاعف لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ووفق بعبارة موجزة إلى أن يبسط تاريخ اليهود فى البلاد العربية قبل الإسلام بسطا علميا لذيذا ممتعا فى كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة إليه فاظفرها بهذه الحاجة ولم يكن المقدم فى حاجة إلى هذا التحمس كله فالرسالة أتفه من أن تقرأ فضلا عن أن تقدم إلى القراء بهذا التهليل كله ولكن ما ذنب المقدم لما إذا كان هو نفسه الأستاذ المشرف عليها وكانت آراؤه التى كان يبثها فى الجامعة وخارجها فى محاضراته وفى كتبه هى هذه الآراء .

وأسمع ما يراه الدكتور فؤاد حسنين أستاذ اللغة العربية فى جامعة القاهرة فى قيمة الرسالة : يقول : وإنى أوافق السيد المشرف فى أنه ظفر بهذا البحث اللذيذ الممتع ، ولكن أحب ان أقول له أن هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التى كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيونى باشراف (مارتن بوبر) تدعو إلى نشرها .

ثم يقول فؤاد حسنين : ليس الأمر كما يعتقد المشرف أو يريد أن يعتقد ، فهذه الرسالة التى اشرف عليها مشحونة بالأخطاء والتى لن تصدر عن طالب مبتدىء فضلا عن أن المراجع العبرية لا تمت إلى البحث بصلة والسيد المشرف لا يعرف العبرية وأخذ بالنتائج التى ينسبها الباحث إلى هذه المراجع دون التحقق منها ودون الاستنارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية كانت تقتضى غير هذا » اهـ

ويعلق الدكتور البهيتى فيقول : أى أمانة علمية ، اليست هذه وسيلته وطريقة فى صناعة العلماء الشبان ، ألا يصبح العلم بعد ذلك ، وبفضل من ذلك هو التهريج والسرقة ، الا يخلع ويقتلع بعد هذا ويفضل من هذا نقاب الحياء عن وجوه السارقين والمنتحلين » اهـ

هذا ما أورده طالب من طلاب طه حسين وقد حرص على أن يحجب أسم استاذه لأنه كان فى هذه الفترة يمر بمرحلة المرض ، وكان هو يريد أن يقدم هذه القضية الأخلاقية بحرية تامة .

والدكتور البهيتى والدكتور فؤاد حسنين كانا يعملان فى الجامعة ابان وجود طه حسين فيها وغيرهاشهود عدول (وسنورد نصوص الدكتور حسنين فى بابها من بعد) وقد عاد الدكتور البهيتى فى ٢٠ يوليو ١٩٧٣ فانصح عن كثير مما كان أخفاه فى حديث أدلى به إلى جريدة العلم المغربية وملحقها الأدبى .

ويتحدث الدكتور البهيتى عن الحياة الأدبية فى الجامعة وفى كلية الآداب بالذات عن أولئك الذين أخذوا آراء المستشرقين أعتباطا واعجابا بها ، يقول : هؤلاء منهم من عاد تقوده زوجة أجنبية لتؤكد فى داره سيطرة أولئك المستشرقين عليه ؛ وكانت بالفعل هى الوازع العامل على استمراره فى السير إلى الأهداف التى رسمت له ، ولا أقول هذا أعتباطا ولا أذكره تحاملا ولكنى أريد به أن أعطى لتاريخ أمانة ، فلقد لاحظت أن ممثلى هذه الطائفة كانت حياتهم متصله بهيئات من الآباء اليسوعيين والجزويت وكان هم هؤلاء مراقبة كل الأحداث الصغيرة والكبيرة التى تقع فى المواطن التى كانوا فيها وكانوا يرعون هؤلاء الوكلاء الذين لا ادرى أن كانوا يدرون أهداف مهامهم بالضبط أم أنهم كانوا يخطون فيها على عمل يوقعهم فيه التماس الذات وادعاء للتجديد .

ولقد اجتذبت (أنا) من يوم طلعت برأى فى مستهل حياتى إلى هذه الدائرة بطريقة ملتوية لكى أوضع تحت المجهر ، ولكنى أفلت ، إلا إنى لم تفلتنى رقابتهم حتى لقد كان موضع دهشتى إنى فى يوم مناقشه رسالتى للدكتوراه ، وجدت الصف الأول من مدرج الكلية من أصحاب الطليسانات السود والقلانس المستديرة والاحزمة المفتولة .

« عجبت لهذا لأنى يوم سللت نفسى من تلك الدائرة سللتها وقد احقدتهم أشد الحقد على فما كنت أنتظر منهم مثل هذه العناية بمناقشة رسالتى خاصة وان أستاذهم الكبير لم يكن بين المناقشين ، وهم دائما إذا حضروا ادعوا أنها مجاملة ،

هذا هو الوضع فيما يتصل بالمستشرقين ، ولذلك فإنى لا ارى فيما يصنعون جديد يمكن أن يضاف إلى التراث الباقى من الدراسات التى ستعيش .

واحب أن أقول لك أن المرحلة التى قدمتها لدراسة الشعر العربى فى كتاب (تاريخ الشعر) لم اغير فيها رأيا واحداً ، فهى القاعدة الثابته الاكيدة التى ترسخ بالبرهان بين حقائق التاريخ الأدبى العربى » .

ويتحدث عن منهج طه حسين الذى قدمه فى الجامعة والذى كان الدكتور البهبيتى أحد متلقيه عنه ، يقول :

« كنت أقول أن طه حسين قدم لنا طريقة بحث جديد تابعناها فى تطبيقها وغيرها وهذا يعتبر من غير شك فضلا ولقد كان سيرنا فى الدراسات الأدبية لابد أن يتأثر بمثل ما مضى فيه طه حسين وجداو لم يوجد ، ولكن له من غير شك فضل الدفع الهجام لأنه لما تناول على طريقة المستشرفين دينا وتراثا وآدبا بهذا التهكم وبالعبث ، آثارقينا انفعالا طبيعياًجداً يوجبه قانون الدفاع عن النفس ، فهو كمن هاجم بسكين أومسدس يضطرك إلى أن توقظ كل اسباب الدفاع فيك لحماية ذاتك ، فهو أذن فضل غير مقصود ، ولكنه فى الوقت نفسه دفع بالتفكير العربى فى مجرى ضيق جداً ، ولولم يكن قد انحسر فيه وشغل به ولو التفت إليه لاستطاع أن يطلع على جوانب مختلفة وأن يعيد تجديد أساليبه القديمة فى ميادين العمل العلمى والفكرى ، هذا من جانب والجانب الآخر أنه حين إبى إلا إن ينصب نفسه حاميا للفكرة التى كان يبشر بها وهى تهدف إلى ما قدمنا فقد كلفه ذلك حرب كل مستقل بفكرة يمضى على غير التبعيه له ، وكان من نتيجة هـــذا فيما اعرف أنا عن طريق تعدد الأفراد الذين عطلهم طه حسين عن إستغلال طاقاتهم الخصبة فى الميدان العلمى ، كان فى هذا خسارة أضعاف ما عسى أن يكون قد كسبه البحث العلمى الجارى بين الشطئان الضيقة وبتلك القوه الكليلة التى كفل لها طه حسين الحياة وحماها لأنها تابعة له .

ومن سوء حظ العالم العربى أن الظروف السياسية قد مكنت طه حسين من حرية الحركة فى عمله هذا بقدر ما أعطته من مناصب أستلم فيها الجامعة من أول تكونها . فقد بدأ أستاذا فى جامعة القاهرة وصار عميداً فوزيرا ومنشئا لجامعة الأسكندرية وابراهيم واسيوط .

وفى كل هذه الاشواط والمراحل يختار الأساتذة والمدرسين ويتجاوز فى إختياره جميع المعايير المفروضة لإختيار هيئة التدريس الجامعية وما كان يعترضه حاجز إلا هدمه تحت ستار أنه يبنى جامعة جديدة يريد أن يوفر لها هيئة تدريس .

ويقول الدكتور البهبيتى : أن طه حسين ليست له كتب بها أصالة وقد صارحته برأيى وهو وزير للمعارف ، كتابه فى الأدب الجاهلى معروف من اين أستقاه ، كتاب مع المتنبى اخذه من بلاشير ، وما جاء بعد ذلك لايعد بحثا علميا لأن كل ماعنده أنه يتلمس ركائز للطعن على الماضى ، يأخذها دائما من المستشرقين وقد ينحو نحوهم ، وما كتبه فى (حديث الأربعاء) لايعدو كونه مقالات صحفيه تكتب بسرعة ، قطب الرحى فيها الاغراء وأحيانا الجنس ، أو الاغراء بالتحدى للشعور القومى أو الدينى فهى ليست دراسات وليست ابحاثا ولا منهج له فيها . وله بعد هذا القصص التى يكتبها وأشهرها (الأيام) والأيام فى رأيى أنا قطع مقالة كئيبة لم تنته إلى نفسى إطلاقا بمعنى من التأثير العاطفى وإنما كنت احس فيها دائما بانقباض .

سار فى الأيام مساراً دار فيه حول موضوع طالب تأثر بالدكتور أحمد ضيف وبمستشرق آخر كتب كتابا عن الأزهر واسم الكتاب على ما أذكر (الأزهر) وبطله طالب أسمه منصور ، أما كتاب على هامش السيرة فأصله كتاب لمؤلفه الاخوين جيروم وسع فيه ومطط على طريقته .

ومحصلة هذه الواقعة الخطيره أن تلاميذ من الطلاب الذين شهدوا محاضرات طه حسين فى كلية الآداب قد استفاق فيهم شعور بالكرامه والعزة لوطنهم ولدينهم فقاوموا هذا الخطر واحتملوا فى سبيل ذلك إبعاد طه حسين لهم عن مجالات العمل والترقى والحظوة فى الجامعات والمعاهد . ا هـ

وما أعلنه الدكتور البهبيتى مؤخرا فى مقدمة كتابه المطبوع فى بيروت وبدون ذكر أسم طه حسين ، قد أشار إليه قبل ذلك الدكتور غلاب فى مجلة النهضة الفكريه (نوفمبر ١٩٣٢) حين قال أن وزارة المعارف قـد وكات

أمر تدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية إلى (رجل بعيد عن الاخلاص للعلم والوفاء للحق بعد الظلمة عن النور والعدم عن الوجود. رجل لم يكن رائده فيما يسميه بالتحقيقات العلمية إلا أغراضه ومطامعه، وفوق ذلك كان يدرب الطلاب على أساليب الملق والرياء ويمرنهم على أفانين الكذب والخدع، ولا يقبل من أحدهم أن تكون له شخصية بارزة، أو رأى مستقل صريح، ولا يرضيه من الجميع إلا أن يكونوا أبواقا يرددون الدعاية لمجده الزائف وعظمة الفارغة وصيته الموهوم، ولم تكن هذه الروح الوضيعة التي خلقها الدكتور طه في الجامعة المصرية قاصرة على بيئة الطلاب والناشئين وإنما تعدتهم إلى جو الأساتذة والمدرسين في كلية الآدب فابدته بسحب الملق والتزلف ونشرت في أرجائه ضباب الذوبان والانمياع، ولقد وصل عدم احتفاظ الأساتذة بشخصياتهم في هذا المعهد إلى درجه أفعمت نفس الرجل بالغرور وسولت له أنه أصبح في هذه الكلية الحاكم المتصرف وهم جميعاً بين يديه يسألون ومن صولته يفرقون. فإذا أنعمت النظر فانك سترتاع من هذا المنظر المفعم بالخوف والذلة والانكسار على مستقبل هذا النشء الذي إذا شب على مارسمته له تعاليم طه حسين من الجبن والذلة والانكسار لا يرجى منه أي خير »

هذه الصوره التي رسمها الدكتور غلاب رحمه الله عام ١٩٣٢ هي التي كشف عن مدى خطرها وآثارها البعيدة بعد ذلك الدكتور البهبيتي عام ١٩٧٢ وكلاهما بعد اربعين سنة من حيث التقاء في المعاني يصدران من نبع واحد.

(٧)

هذه الصورة المتجهمة الضالة للحياة الجامعية كما صنعها طه حسين تبدو في نماذج أخرى من الذين عملوا معه وعرفوه عن قرب: يقول الدكتور على العناني الذي ابعده طه حسين من كلية الآداب يقول الدكتور غلاب أن لطفي السيد سلم زمام الجامعة إلى الابن البكر الذي لايوجد مثله في الشرق، ورأى الدكتور طه أن العناني يجب أن يكون بعيدا عن الجامعة ويقول الدكتور العناني

أنه أخذ على طه حسين رأيه القائل (بوجوب تخلى الأديب عن العاطفة الدينية والقومية) وأن هذا الرأى فاسد من أساسه ، لأن الأديب إذا خلا من هذين العاطفتين يفقد كل معانيه ومميزاته وتصبح الأمة التى يوجد فيها هذا النوع مقفرة من الأدب كل الاقفار .

ويقول : (١) إن طه حسين قد بنى مجده من طريق النيل من الأدب العربى والطعن فى أعلامه ، فحمل على كبار أدباء العربية يريد هدمهم وتناولهم واحداً واحداً بالتجريح الباطل كالأساتذة حفنى ناصف والشريف وجرجى زيدان والمهدى وعبد المطلب وشوقى وحافظ ومطران وصادق الرافعى والمرصفى والأسكندرى وعلام وضيف ومنصور وغير هؤلاء كثير ، وكان فى جدله معهم جوحا فى المسائل الأدبية والحقائق العلمية والحوادث التاريخية ، وقد أظهر هؤلاء الأدباء تمويهه وتلبيسه غير أنه أمام الحجة الدامغة لايدركه خجل المخطىء المريب فكان يعمد إلى نقل الحوار من موضوعه إلى تغرير وافتراء فى الأدب اليونانى علما منه بأن أدباء العربية غير متفقين فى أدب الفرق فيروى مايبرأ من هذا الأدب ، ويعمد إلى التجريح الشخصى بالقذف والشتم فيتوارى بالطبع الأدب ويظهر هذا الدعى السبابة أمام الجماهير بأنه نال النصر واحرز التفوق وقد اتهم الأدب فى عصره الذهبى وجرده من كل خير وفخر ، وشنع عليه بما يحتوى فى الشعر من فسق وفجور واستهتار ومجون وزندقه وكفر ، ودعا إلى الأخذ بالشك والإبتعاد عن العقيدة والتجرد من العاطفة القوميه كذلك فقد جرد الحضارة العربية والأدب العربى من قومية العرب واسندها إلى الأعاجم وطعن فى وحدة العرب وأغرى الشبان بما أسماه الحضارة القومية والفرعونية .

نزع هذا الهادم المتقدم إلى هدم الأدباء والأدب العربى فلم ينل فى ذلك شيئاً سوى أنه هدم نفسه بنفسه ، ثم أراد أن يبنى له مجدا من جديد بترك طريقة الهدم والالتجاء إلى استعمال وسائل البناء فى صرح الأدب العربى ولكنه فى الواقع قد نصب نفسه بناء لا يعرف فن العمارة فهدم نفسه ثانية فوق الهدم الأول بمحاوله القيام ببناء لا يعرف له أصلا ولا يدرك له فرعا »

(١) النهضة الفكرية — ٥ ديسمبر ١٩٣٢

ولا ريب أن تفاصيل رأى الدكتور فى الأدب العربى مما سيجىء بعد ، ولكننا الآن بصدد تاريخه وأعماله كشفاً عن شخصيته قبل أن نصل إلى مفاهيمه وآرائه .

* * *

ومثل هذا الموقف يقفه الدكتور من كل الشخصيات ذات الكرامة والتى لاتساير اهوائه فقد أشار الكاتب (كويتب) فى ٢٢ فبراير ١٩٣١ إلى سوء معاملة طه حسين للعالم الاثرى سليم حسن ومن قبله للعالم الاثرى الكبير أحمد كمال باشا .

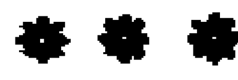
يقول الكاتب : أنه ليسوءنا وليم الحق أن يقف الدكتور على محاربة أعمال النوابغ من أبناء البلاد والحط من قيمها تحت ستار التمحيص العلمى ، فلقد قام الدكتور منذ سبع سنين يحارب نابغة مصر « أحمد كمال باشا الاثرى » لما علم أن وزارة المعارف تفكر فى طبع قاموسه الكبير الذى الفه باللغات الثلاث الهيلوغريفية والعربية حيث كتب فى العدد ٢١٤ من السياسة مقالا يطلب منه فى وزارة المعارف الانقدم على طبعه الا بعد استشارة رجال المتحف على انى لا أدرى إذا كان الدكتور لا يشك فى أن كمال باشا قد أتقن اللغه الهيروغليفية وإنما يشك فى أنه قد أتقن اللغة العربية ويشك الشك كله فى أنه أتقن اللغات السامية ، إذا كان يقصد إستشارة رجال المتحف من الاجانب فإنهم لا يعرفون اللغه التى يقول كمال باشا أن لها صلة بالهيروغليفية :

وبدلا من ان نسعى بكل قوتنا لطبع هذا القاموس قام الدكتور يعطل هذا المسعى بالإشارة إلى نفقات الطبع مرة والخوف من إنتقاد الأجانب مرة ، .واليوم يعود الدكتور ويحارب سليم حسن تلميذ كمال باشا بتاخير اذاعة أخبار مكتشفاته بحجة ذلك الستار : التمحيص العلمى.

« كنا نحسب أن الدكتور طه وقد أصبح عميد كلية الآداب قد خلف على باب الجامعة الأسلوب الذى جرى عليه قبل أن يتولى منصباً ذا مسئولية وكنا نود أن يربأ بمقام العلم ومقام عميد كلية الآداب عن ضرب من الجدل لو عرض

على سنن العلم والأدب لاباه ، أو أن : يرد على ما كتب بالحجة ولكنه لم يفعل ، وكنا نحسب وهو مدين للصحافة بما وصل إليه أن يقدر مهمتها ويكون عونا لها لإحربا عليها ولكنه لم يفعل ونحن نقول أننا نقدر مثلة ضروره التحقيق العلمى ونعرف الأشياء التى يجب عدم نشرها احتفاظا للجامعة بفضل السبق فيها »

وهذه قضية أخرى يقف منها الدكتور طه موقفا مريبا ، ذلك أن قاموس أحمد كمال باشا هو بمثابة رد حاسم على شبهة يثيرها الاستشراق فيدحضها من أن المصريين عرب أصلا فهو لا يريد بقاء هذه الشبهه لصالح الإستعمار وأن لا يصدر بحث علمي يدحضها .



ومن شقى بخلافه مع طه حسين : تلميذه القديم وسكرتيرة فى وقت ما : زكى مبارك الذى كشف من أمر طه حسين ما لم يكن يعرفه أحد يقول : (الصباح — ٤ أكتوبر ١٩٣٠) طه حسين لم يقرأ فى حياته كتابا كاملا وإنما قرأ فقرات من هنا وهناك إلى أن اتصل بالمرحوم ثروت باشا فوضعه فى حزب الجامعة المصرية ، وظل طوال عمرة ظلا من الظلال فى عالم السياسة ولم يترك الأخدمة ودبج فى تقريظه الوانا من الرسائل الطوال ولاريب أن الاتجاه السياسى صورة من الاتجاه العقلى والرجل الذى يتردد بين المذاهب السياسية لا يبعد عليه أن يعيش فريسة الحيرة بين المذاهب الأدبية . أتفق للرجل الصالح جدا طه حسين أن يخدم قبل الحرب ثلاثه أحزاب ، وأن يخدم بعد الحرب أربعة احزاب ، وحظه من الثبات فى المذاهب الأدبية يشبه حظه من الثبات على المذاهب السياسية وقد بذل الدكتور جهوداً عنيفة فى إخفاء حقيقته الأدبية .

ويقول (٣٥/١٠/١٧ — البلاغ) لقد عرف طه حسين أنه لن يستطيع أن يواجهنى فى ميدان النقد الأدبى لأن وسائله فى ذلك ضعيفة جداً ، وقد مرت عليه أعوام لم يقرأ فيها كتابا كاملا ، وقد حلا له أن ينافش ما دمغته به فى كتاب النثر الفنى ، ولكنه سكت خوفاً من العواقب لأنه يعرف أن اليوم الذى يصطدم فيه بى سيكون يوما عبوسا ولن تغيب شمسه الا وقد انكشف الغطاء عمن يعيشون

على فضلات المستشرقين ويقول : كنت اصاوله على صفحات (البلاغ) وكان هو يدبر لى المكايد فى الظلام حين عجز عن حرب البينات والبراهين .

ويقول فى (اغسطس ١٩٣٦ — البلاغ) أن من العجيب فى مصر بلد الأعاجيب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربى فى الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغانى وفصول من سيرة ابن هشام ، أن الأستاذيه فى الآداب عبء ثقيل لا ينهض به إلا الأقلون وهى تفرض الإطلاع الشامل على خير ما أبدع العرب فى خمسة عشر قرنا وهى تفرض البصر الثاقب بأصول الأساليب ، وهى تفرض العناء المطلق فى التعرف إلى فحول الكتاب والخطباء والشعراء وطه حسين ليس من كل أولئك فى كثير ولا قليل » .

وهذا الذى أشار إليه الدكتور زكى مبارك قد ردده كل الذين كتبوا عن طه حسين فهو أصلا لم يدرس الأدب العربى دراسة علمية لا قبل سفره إلى أوربا ولا هناك وأن كان قد عنى بدراسات فى التاريخ اليونانى والرومانى ، كذلك فإنه على حد تعبير أصدقائه المستشرقين وتلاميذهم ومنهم (إسماعيل ادهم أحمد) لا يعرف شيئاً من اللغات الشرقية أو القديمة تعينة على أن يصدر رايا فى المقارنة بين الآداب العربية والآداب الفارسية والعبرية وغيرها .

كذلك فإن من أخطر الأمور التى أشار اليها سكرتيره ، والتى أثارت ضجة كبرى خطأه ، فى الأسماء العربية فهو ينقلها نقلا حرفيا من المصادر الأجنبية وقد أخذ عليه قوله : « ولكن شجرت بين الفريقين اليمانيين والقيسيين معركة « مرجرات » السياسة ٢٢ فبراير ١٩٣٤ ، وقد كانت مرجرات هذه الفرنسية هى « مرج راهط » العربية .

ولطه حسين عثراته لاصدقائه وخصومة على السواء . فهو فى السياسة الأسبوعية (٢٨ يونيه ١٩٣٠) يتحدث عن زيارته إلى أثينا ويوجه كلامه إلى منصور فهمى ، فى عبارات يثبت بها فهمه للتاريخ والفكر اليونانى وجهل منصور وقد أورد بضع أشياء أراد بها أن يقول بجهل الدكتور منصور بتاريخ

اليونان وآدابهم إلى حد سوء ذلك التاريخ وقد أشار الدكتور محمد غلاب إلى هذا ورد عليه :

يزعم الدكتور طه أن أثينا لم يكن تعنى بالجمال كما ظن الدكتور منصور وهذا زعم فاسد من أساسه باطل فى جوهره يدل على الجهل الفاضح بأبسط الأساطير اليونانية وأكبرها (ذيوعا وانتشاراً) ولكن الدكتور طه أراد أن ينشر فى الناس أن الدكتور منصور جاهل بتاريخ اليونان وآدابهم ولم يبال فى سبيل هذه الرغبة أن يقترف نحو الحق والتاريخ والعدالة والنزاهة ما أقترف من سيئات » وبعد أن كشف عن خطأ الدكتور طه فيما ذهب إليه قال « قـــد تبين إذا أن الدكتور طه أما أنه يجهل الأدب اليونانى جهلا تاما وهذا ما لا نظنه وأما أنه بعيد عن النزاهة فى النقد والاخلاص فى العلم بعداً تاماً وهذا ما أعتقده ولا اتردد فى التصريح به » .

(٢)

ولما أصر الدكتور طه على أستبقاء كتب برنارد شو وغيره التى تهاجم الإسلام فى كلية الآداب حاصرة الطلبة المسلمون فى مكتبة وآذوه وكان أن هرب وخلصه البعض واعتكف كقدمه لخروجه من كلية الآداب .

وقد أقام الأساتذة والطلاب المناصرون للدكتور طه حسين بكلية الآداب حفلا تكريماً لحضرته بمناسبة تعيينه مراقباً للثقافه العامة وكان مما قال الدكتور فى هذا الحفل .

[ثم أريد أن أنتهز هــــذه الفرصة أيها الأصدقاء لأقول ما قلته ألف مرة وما سأقوله ألف مرة فقد يظهر أننا هنا لا نسأم من القول والتكرار هو أن الإسلام أثبت مكانة وأمكن فى قلوب المسلمين وفى قلبي أنا كذلك من أن تتعرض لخطر لأن فلانا قال أولأن فلانا لم يحسن القول .

أيها الأصدقاء أرجو ان نكون احسن ظنا بالإسلام وأحسن ظنا بأنفسنا وأن نكون أحسن ظنا بالله من أن نظن أن الإسلام معرض لأى خطر لأن فرداً يرى هذا الراى او ذاك وأتمنى ان يقيض الله للاسلام من يدافع عنه

كما ادافع انا عنـــه وان ينشره ويحببه للناس كما ابشر به انا وكما احبب مبادئه للناس .

وقد عقد الأستاذ حسن البنا فى مجلة التعارف فصلا تحت عنوان :

« إذا كان هذا صحيحاً يا دكتور فقد اتفقنا » .

قال فيه : إذا صح ذلك يا دكتور فقد اتفقنا كل الاتفاق ، واعتبرنا أيها الداعية المسلم من جندك منذ الساعة فإنا للاسلام نعيش وله نحيا وفى سبيل الدعوة إليه شهداء . صدقنى يا دكتور طه من غير ان اقسم لك وان شئت فإنا اقسم على هذا ، أننى لأتمنى من كل قلبى مخلصاً ان ارى ذلك اليوم الذى تدعو فيه انت للاسلام وتيسره بين الناس وتحبب تعاليمه إليهم :

فإنك رجل جرىء لك قلم ولك لسان ولك تلامذة معجبون واصدقاء مخلصون ، وفيك دأب ونشاط وإنتاج خصيب وما نحسدك على هذا ولـكنا نتمنى ان يكون ذلك فى ميزان الإسلام لا عايه ولا فى كفه الخصومة له تولاهين امره بطريق غير مباشر فهل يجىء حقا ذلك اليوم .

اسالك يا دكتور مخلصا لأطمئن لا متصديا لا تعنت . ان لك تلاميذ قد اختصصت بهم واختصوا بك فأيهم ظهر اثر دعوتك فيه فكان لسانا إسلامياً او قلما إسلامياً او صفحة من صفحات الفكرة الإسلامية او مظهر من مظاهر التمسك بإسلام ، وإنك قد ساهمت فى خدمة كثير من القضايا الإجتماعية وحضرت كثيراً من الإحفال والمؤتمرات فى داخل القطر وخارجه فنى اى من هذه جميعاً نطقت باسم الإسلام او دعوت إلى تعاليمه .

وانت يا دكتور استاذ فى الجامعة منذ أنشئت فانشدك الحق هل تذكر انك عرضت فى دروسك ومحاضراتك بطلبتك بما يلفت انظارهم إلى جلال هذا الدين وروعته ونقاء تشريعه هذا والمادة التى اختصصت بتدريسها الصق مواد الدراسة بالاسلام وكتاب الإسلام ، ولا احرجك فأقول :

وانشدك الحق يا دكتور افتحيا انت فى حياتك اليومية على نمط إسلامى

وتطبع اسرتك كرب بيت بهذا الطابع ودع البيت وما فيه ، أتقوم أنت فى حياتك الشخصية بواجبات الرجل المسلم فضلا عن الداعية الذى يتمنى أن يقيض الله للاسلام من يدافع عنه .

لا أحرجك بهذا السؤال الأخير ولا أطالبك بجوابه فانتم معشر الدعاة العصريين تفرقون بين الحياة الشخصية والحياة العامة .

كان واجبات الفضيلة وتعاليم الاسلام لا تتناولهما جميعاً وكان الحياة العامة للفرد ليست مرتبطه بحياته الخاصة كل الارتباط .

وبعد يا دكتور طه : فهل من الدعوة للاسلام . أن تعرض للنظر فى القرآن بالأسلوب الذى اخترته لنفسك من قبل ولعلك عدلت عنه من بعد — وهو ما أسر له — حتى مع تسليم الدعوى بأن البحث علمى بحث . وهل من الدعوة للاسلام أن تقف وقفتك المعروفة فى شان الكتابين الانجليزين وما كان عليك ولا على الجامعة ولا على حرية الفكر من بأس أن تستجيب لأبناء مؤمنين من تلامذتك رأوا فى هذا الكتاب طعنا فى مقدساتهم فلجأوا إليك بالطريق القانونى فى هدوء وآداب أو ما كان أولى بالداعية إلى الإسلام أن يشجع هذه الغيرة ويسر لها وتعطف كل العطف على القائمين بها .

وهل من الدعوة للاسلام أن تنادى فى صراحة لاتعدلها صراحة أنه لاسبيل لنا إلى الرقى إلا إذا قلدنا أوربا وسلكنا مسلك الأوربين لنكون لهم شركاء فى حضارتهم خيرها وشرها حلوها ومرها ، نافعها وضارها ، ما يحب فيها ومايكره وما يمدح فيها ، وما يعاب ، ومن زعم لك غير فهوخادع منهاأومخدوع .

ولعلك تقول كما قلت : إنما اريد الدعوة إلى العلم وإلى القوة وإلى الخلق وإلى النظام وهذا حسن جميل ، ولكن افترى أن الإسلام لم يأمر بها ولم يسلك المسلمين السبيل إليه قبل أن تخرج أوربا من ظلمات جهلها بمئات السنين فلم تدعونا إلى العلم والقوة والخلق والنظام باسم أوربا الناشئة المتخبطة ولا تدعونا إلى ذلك باسم الاسلام الثابت الدعائم الراسخ الأركان .

وهل من الدعوة الإسلامية يا دكتور أن تخلط بين الفتيان والفتيات ، هذا

الخلط فى كلية الآداب فتحذوا حذوها غيرها من الكليات وتبوء أنت باثم ذلك كله .

وتريد للفتيات فى صراحة هذا الإختلاط وتحثهن عليه وتدعوهن إليه ولا تقل أن هذا من عمل غيرك فيداك اوكتا وفوك نفخ وما تحمس لهذا ودعا إليه وحمل لواءه وإستخدم نفوذه فى تحقيقه أحد كما فعلت ذلك أنت ، ولعلك تعتبر هذا من مآثرك ومفاخرك ولكنى أخالفك يا دكتور ، وأصارحك بان هذا الأختلاط ليس من الاسلام وقد رأينا وسنرى ما كان وما سيكون له من آثار . هذه صحيفتك يادكتور فى الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه فهلا نراك بعدهذا الحساب اليسير غير العسير الذى لا مناقشة فيه ولا قسوة ولا عدوان مصراً على أن يقيض الله للاسلام من يدافع عنه كما تدافع عنه ومن ينشر ويحبب تعاليمه إلى الناس كما تفعل .

على أننا على إستعداد لأن ننسى الماضى جميعه ونأخذ فى جديد مثمر منتج على الأساس الذى وضعته أنت وارتضيناه نحن أن تثبت فى نفوسنا وتفسك مكانة الإسلام وأن تدافع عنه وأن تنشر تعاليمة وأن تحببه للناس وعلى أن يكون هذا الإسلام هو كما تفسره اللغة العربية الواضحة وسنة رسول الله ﷺ الثابتة الصحيحة كما فهما السلف الصالحون رضوان الله عليهم .

فهل يضع الدكتور طه يده فى يدنا على هذا الاساس ثم نعاهد الله جميعاً على أن نكون أمناء له مخلصين له مجاهدين فى سبيله ، وكلمة أخيرة يا دكتور : لقد قلت وهو قول حق : أن حياتنا موقوتة وكل ما فيها موقوت وأن الله سبحانه وتعالى قادر على ان يسترد المنحة التى منحها لنا وهى الحياة فى أى لحظة وهو قادر على أن يسترد ما يمنحنا أثناء الحياة .

ما أجمل هذا الايمان . أذكرك هذه الكلمات واذكرك أنك الآن رجل قد جاوزت سن الأمال الخلب وصرت إلى الآخره أقرب وأسال الله أن يطيل حياتك خادما مخلصاً للاسلام وأن هذا الشعب شعب كريم طيب القلب سرعان ما تنسيه الحسنة الواحده كثيراً من السيئات وأن الله تبارك

وتعالى واسع المغفرة عظيم الفضل عفو كريم فلا عليك إيا دكتور أن تختم المطاف بتوبة صادقة نصوح وبتجرد للاسلام ولخدمة الاسلام ولنشر الإسلام ولنحبب تعاليمه بحق إلى الناس فنفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة ، ذلك ما نرجوه منك والك وقلوب الناس بيد الله يصرفها كيف يشاء فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام » اهـ

* * *

طه حسين ودار العلوم

هناك قضية هامة من اخطر القضايا التى تعرض لها طه حسين وهو أستاذ فى الجامعة ، تلك هى انه لم يكن فى الحقيقة استاذا للادب العربى تشغله هذه المهمة ولكنه كان قد اعطى نفسه صفة المراجعة والاشراف والنقد لكل ما يتصل بالمؤسسات التى فى مستوى كلية الآداب : واهمها دار العلوم ومدرسة المعلمين العليا . وكانت كتاباته لا تكف عن مهاجمة الأزهر ونقد وزارة المعارف ومناهج التدريس فى التعليم الابتدائى والثانوى (مما سنعرض له فى مكانه) ونحس من هذا الاتجاه الخطير ان طه حسين يعد لجعل كلية الآداب هى وحدها المختصة باخراج المدرس المصرى ، وقد ظل سعيه حثيثاً فى هذا الاتجاه مع نمو نفوذه عميداً لكلية الآداب ومستشاراً فى وزارة المعارف ومراقبا فنياً ومديراً لجامعة الأسكندرية ثم وزيراً للمعارف وفى كل هذه الفترة مشرفا على المناهج وهيئات التدريس (كما اشار إلى ذلك الدكتور البهبيتى) استطاع ان يضم دار العلوم إلى الجامعة وان يلغى مدرسة المعلمين العليا .

وقد دارت بينه وبين دار العلوم معركة شديدة ، فقد كانت دار العلوم هى الواجهة الأصيلة التى قاومت فكره ومفاهيمه وسمومه التى قدمها فى كتابه الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء ولذلك فقد نقم عليها نقمة شديدة وظل يحمل عليها

مرة بعد مرة مدعيا ان وجودها لا ضرورة له بعد كلية الآداب ، وقوله فى احد الأحاديث تلك العبارة القاسية « لابد من هدم قرطاجه »

بدأ هذا عام ١٩٢٧ وعاد إليه عام ١٩٣٥ اما فى عام ١٩٢٧ فقد كتب يقول « انا لا افهم دار العلوم ولا فائدة دار العلوم »

قال أحمد يوسف بدر : لعله لم يقل كلمته التى قالها عن دار العلوم إلا لأنه يحمل موجدة على بعض اساتذتها وكبار المتخرجين منها لتصديهم لنقد نظرياته والوقوف فى وجهه حينما اراد العبث بعقول الناشئة والمتأدبين فهو يكتب بذوب قلبه لا بمداد قلمه ونتاج فكرة ومن اجل ذلك كلامه غريبا مريبا ، اما فضل دار العلوم فذلك ماتحيلك على صفحاته الذهبية فى سجل التاريخ .

وقال الأستاذ محمود غنيم : قلب صفحات الماضى من زمن يسير ترشخصك ماثلا فيه على بابها تود ان تكون كن بها استاذا للأدب العربى ولكن ابى الله إلا ان يبعدك عنها » ويقول . الضجة التى قامت حول كتابه فى الشعر الجاهلى كان منبتها دار العلوم : المدرسة التى غضبت لدينها ولغتها وعز عليها انتنتهك حرمة العلم باسم العلم ويتجلى الجهل فى ثوب البحث الحر الطليق فقد تناولت الكتاب بالنقد ومزقته كل ممزق وجلت للملأ منهجه وازاحت الستار عن زلاته (وما اكثرها) .

إذا كان طه حسين لايفهم بعد ذلك دار العلوم فلأنها خرجت امثال الخضرى وعبدالمطلب وعلام سلامه هؤلاء الذين وأدوا كتابه فى مهده ونبهوه من احلامه فصار كلما تذكرها تجلت له اشباحهم المخيفة فوقفوا شجا فى حلقه وقذى فى عينيه ، نعم ان دار العلوم خطر يهدد تعاليم الدكتور وما دامت سوق تلك المدرسة فى نفاق فبضاعته فى كساد ، فليس عجيباً اذن ان يرفع عقيرته مطالباً بالغائها وليس عجيبا ان يرميها بوخزات من قوارص كلامه (كوكب الشرق — ١٧ ، ١٩ مارس ١٩٢٧) .

وعادت القضية لتثار مرة اخرى بعد ان اعيد طه حسين إلى الجامعة فى

عهــــد الوفد وكان قد اصبح وفديا يكتب فى صحف الحزب الشعبي الـكبير يقول الأستاذ محمد هاشم عطيه :

« عاد طه حسين إلى الجامعة بعد أن أبعد عنها فترة قدر خلالها أن ينفض يديه من أخوانه الدستوريين وأن يجفو سياستهم وصحفهم ومجالسهم ويصبر فى غمضة عين وطنياً مؤمنا بمبادىء الوفد وكاتباً فى صحفة وزائراً لبيت الأمة ومؤيداً لخليفة سعد وصديقاً لأنصاره ، بعد عمر طويل افنى زهرته فى التشهير بهم ومحاولة النيل منهم بما يتعفف كثير من أهل الحزازات عن التهاجى بمثله تنزها عن مشابهة اخلاقه العامة من الناس وقد كنا نحسب انه بعد هذه المحنة سيكف عن عادته فى التغرير بالعقول وجرأته فى التمويه على الناس بعد ما انجاه الله من حياة قليلة السكينة يرتهن فيها الرزق بمـا يبذله العاملين من جهد مقبول وسعى صالح إلى الرزق المضمون والسريع الثابت فى منصبه الـكبير بالجامعة ، ولـكنه عاد ثانية إلى زمانته القديمة ينفث ما فى صدره من السل على أساتذة اللغة العربية ويريد فى هذه المرة ان يدمر عليهم قرطاجنه قبل ان يضع الناس لبنة واحدة فى بناء رومه !

ولو كان فى وسعه ان يهدم ويبنى لـكان قد فعل والدنيا معه والعمارة فى يده وأكثر الناس مخدوع به ، فاما اليوم وهو حين وكل إلى نفسه ادرك الناس حظه من خلوص النية ومبلغ حرصه على إحترامه للرأى ، وشهدوا كبريائه حين صار تواضعاً ولطفاً ، فلم يعد لأحد ان يخشاه أو يحسن الظن بمـكانه لأن من بواعث النفور من مذهب المصلحين ان يتعلق الناس عليهم بقول لا يحقق عملا ليكون ذلك وحده كافيا لاسقاطهم ونفى الثقة عنهم فضلا عن المزهوين بانفسهم من المتظاهرين بالغيرة على غير منافعهم الذاتية حين ينسيهم التحفظ عادة الحزم فى ستر نياتهم الخبيئة فيعرفون حينئذ كما يعرف أمثالهم بسيماهم .

وانما لنبادر فنـكشف للدكتور عما تنطوى عليه هذه الحملة الجديدة من دس خفى وأن حاول توجيهها فى ظاهر الأمر إلى الاصلاح المنشود، ذلك أنه يريد أن يكره الناس إلى الانتساب إلى قسم اللغة العربية فى الجامعة قبل أن يشعر ولاة

الشان بقلة الحاجة إليه لما هو حاصل الآن من انصراف الطلاب عنه وزهادتهم فيه ، ولما أحس به المتخرجون فيه من قبل من التضييع والإلتجاء إلى العمل فى دواوين الحكومة كاخوانهم من حملة الشهادة الثانوية نتيجة تلك الدراسات المفرغة فى صورة من المصانعة للطلاب وأعفائهم من كافة التحصيل والبحث وما سوى ذلك من الإباحات .

والدكتور يعلم أن فى الأرض كلية أخرى تعد طلابها لهذه المزاحمة بعينها وهى كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية : ذلك ما يريده الدكتور هو أيضاً ما كان يريده منذ عدة سنين يوم أعلن مثل هذه الحملة على الأساتذة المتخرجين فى دار العلوم ، والجامعة يؤمئذ حديثة العهد وكل جديد ظريف فأقبل عليها الطلاب وتزاحموا على دروس الدكتور وقابلوه بالهتاف والتصفيق ومضت الأعوام وخرجوا من القسم فلم يجدوا شيئاً ولم يحصلوا ادبا ولا علماً إلا ما اشتهرت به تعاليم الأستاذ من التهجم على كل معقود من ادب أو عادة أو دين وصرت متى شئت أن تسمع من يتناول الآية من كتاب الله كما يتناول الناقد كلام الناس بالنظر والرأى .

سمعته من غير واحد فى هذه البيئة وان الأدب القديم منحول أوليس فى الأدب الإسلامى خصب والأدب العباسى فارسى ويونانى مما لم يتثبت عليه الذى نقله عن قائله ، ولا ابتكاراً فى البحث من عند نفسه ورجع عنه بعد أن ذاق لذة الخلاف على الناس وتمتع حينا بما تقول المثل (خالف تذكر) .

ولقد كانت فترة غيابه عن الجامعة فألا على هذا القسم تماثل فيه نوعا إلى الحياة الدراسية البعيدة عن اساليب التهريج والدعاية للاشخاص أقبل فيها الطلاب على النقد والمراجعة وعملوا بمناهج القدماء فى الاستظهار والتحصيل وعكفوا على الجد فى سكون ودعه وإذا وضح الأمر وظهر أن ما ابداه الدكتور من الغضب للغة وما لبسه من زى النساك وما حاول أن يزينه للناس بالخلابة والمكر ، إنما هو الجزع والخوف من أن يتزلزل به كرسيه ويصير هو قرطاجنة أخرى تدمر بنيانها بيديها .

وقد كان خليقاً بمن يريد دائماً أن يقول انه هو وحده الأديب الفرد انه وهو وحده الذى يحسن اللغة وهو الذى يستطيع دون سواه أن يكون مصرفا للثقافات المختلفة فى البلاد وهو القادر على انشاء العلم الصالح لهذا العصر الحديث الا تغلبه الموجدة على أساتذة اللغة العربية فيدعوهم إلى مناصبته بما لا ينطبق على أهون أساليب التجمل فى الحديث والأدب فى الجدل ، إذ يقول فى صحيفة كوكب الشرق : أنهم لا يعرفون لغة ولا يحسنون ادبا وقد قبل (استحى الحياء كله أن تقول لصاحبك أنك عالم وأنه جاهل مصرحا لا معرضا) وإنهم لقادرون على أن يردوه عن غيه ويكفوه عن طريقته فى الاملاء للاحكام والتعرض لما لا شأن له فيه من أمور الناس ويستحيون لكرامتهم العلمية ومكانهم المعروف فى خدمة التعليم فى البلاد ان يقابلوا هذا التحامل بغير الأغراض والتهكم ويأنفون ايضاً ان يحاولوا رد هذه التهم عن انفسهم لما فى ذلك من سوء الظن بفهم القراء والارتياب فى صحة تقدير العقلاء لمعانى الكلام ولتلاميذهم فى المدرسة فكان لا يجهل فى الصحائف الأدبية من الجرائد الكبرى وهم لايزالون فى دور التكوين ومهلة التخرج والتمرس بالكتابة والأدب والعلم .

ومن الغريب ان يقترن هذا التعدى من الدكتور بنوع من الاستخفاف لكاتب آخر يذكر حضرة مدرس النحو فى مدرسة القبة الثانوية باشياء تعتبر داخلة فى عمله وجزءاً من دراسته وتعد مثلا من مسائل فن من فنون اللغة وهو علم الصرف الذى يبحث مآخذ الكلمات واحواله تصرفها واشتقاقها إلى ما يسمى فى النهاية العليا منه بعلم فقه اللغة أو علم اصول اللغات ولا ندرى على أى وجه تقع السخرية فى مثل هذا المقام إذا كان البحث فى رد الكلمات إلى أصولها ومعرفة مجردها من مزيدها وأصيلها من دخيلها ، وما يكون وجه العيب فى حمل التلاميذ على معرفة ذلك والتحقق من هذه المعرفة » (1)

* * *

وكتب الدكتور أحمد الحوفى (وكان إذ ذاك ما يزال طالباً بدار العلوم)

---

(1) البلاغ ١٩ فبراير ٢٥ حول اصلاح اللغة العربية بين الدكتور طه وأساتذة اللغة

مقالا نشر منه قدر كبير فى جريدة كوكب الشرق (٢٦ فبراير ١٩٣٥) تحت عنوان (لابد من بقاء قرطاجنه) قال فيه: لعل من جد دار العلوم الناهض وحظها الموالى أن تستعلن تفوقها وجداراتها وابتداعها ختام مقام خصيمها الدكتور طه حسين إذ يقول « أنا شديد الاعجاب بالكلمة التى كان يقولها السياسى الرومانى كاتو: لابد من هدم قرطاجنه » قال الأستاذ الحوفى: أن رأى طه حسين فى دار العلوم التى سندت اللغة والأدب والتربية قرابة قرن من الزمان ليس وليد اليوم فإنك تقرؤه فى كتاب (الأدب الجاهلى) إذ وقف على محاولة النيل من هذا المعهد الجليل نحو عشرين صفحة زجها فيه زجا، واراد أن ينفس بها عن نفسه مايرهقها من شنآن ونقمة، لأن أكثر الذين أبلوا فى هدم آرائه فى الشعر الجاهلى ممن تخرجوا فيه.

ورد على ما أشار إليه الدكتور طه من ضرورة أن يتعلم القائمون على تدريس اللغة العربية فى مصر لغة اجنبية، فقال أنه لا يريد من هذه الآداب الأجنبيه إلا شيئاً واحداً هو السطو على آراء المستشرقين وإنتحالها وإدعاؤها و التباهى بها صحيحة أو خاطئة وإذا فعيب شنيع ونقص ذريع فى ابناء قرطاجنه أنهم لم يتأثروا بالمستشرق مرجليوث فى انكاره الشعر الجاهلى. ولكنهم وقفوا من الشعر الجاهلى وقفة الدارس الباحث الحديث.

وعيب قرطاجنه الشنيع ونقصيرها الذريع أن واحداً من أبنائها لم يتابع (كليمان هوار) فى زعمه أن القرآن من آثار النبى وانه استقى كثيراً من شعر أمية ابن ابى الصلت وان القرآن « تأثر باليهودية والنصرانية ومذاهب أخرى كانت شائعة فى البلاد العربية وما جاورها » و « للقرآن أن يحدثنا عن ابراهيم وإسماعيل وللتوراه أن تحدثنا عنهما ايضاً ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراه والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى » وأن بناء الكعبة خرافة استغلها الاسلام والمسلمون. نعم عيب دار العلوم أنها لم تزعم هذا ولم تتصيد آراء الفئة المتعصبة من المبشرين لتنشرها فى كتاب تدعى أنها به تنهض للقديم وتصمد له وتبتدع فى دراسة الأدب طرائق جددا.

وعيب دار العلوم أن أحـــد أبنائها لم يسجل على نفسه فى مقدمة كتاب

فجر الإسلام ان يدرس الحياة الأدبية وان لا يفرغ القراء من احد أقسامه حتى يظهر لهم قسمه الثانى ثم الثالث ولـكن الأيام دارت وارتفعت الشمس حتى قاربت الوسط وصدر ضحى الإسلام بعد بزوغ فجره ولم يقدم الدكتور طه الجزء الخاص بالحياة الأدبية الذى وعد به ثم الم يخجل من دعواه بأن طلاب دار العلوم لا يجيدون الأدب القديم ، ايعرف كيف يدرس عطاريف هذه الدار لاشبالهم الأدب وتاريخ الأدب ، وهلا يذكر انهم فرعوا اخوانهم من طلبة كلية الآداب فى مسابقتين عقدتهما وزارة المعارف ثم الم يسمع ويقرأ آثار هؤلاء الطلاب النابهين فى كتبهم ودواوينهم ومقالاتهم وهل يستطيع أن يكاثرنا فى عدد ما دبجت أقلامنا وعدد ما أخرجنا من كتب ولو لا إبقاء على الود بيننا وبين أخواننا الاغراء من طلبة كلية الآداب الذين يورطهم الدكتور لـكشفنا له عن وجه الحق .

وهل نسى ان جمهرة الأساتذة فى كلية الآداب من المتخرجين فى قرطاجه ؛ ثم ما له يشتط فى كلمته فيورط نفسه فى أمر لم ينصب له ولم يزعمه لنفسه ، ولن يستطيع ان يزعمه ، وان جاز على عقول جمهرة من الناس أنه دكتور فى الأدب لا فى التاريخ القديم فلن يجوز على فئة قليلة من هذه الجمهرة أنه عالم فى التربية ، ما له ورط نفسه فادعى أن دراسة التربية لا تجدى المعلمين فلما أحس شذوذ هذه الدعوة شفع إليها ان وزارة المعارف ستسخطها والحق إنى ليضحكنى هذا الـكلم الناكب عن كل محجة أما بعد فاود أن يعلم الدكتور وهو رضى النفس أو حانقها أن قرطاجنه خالدة ولابد من بقاء قرطاجنه » اهـ .

ويعلق الدكتور زكى مبارك على موقف طه حسين من دار العلوم فيقول : قل الحق مرة واحدة يادكتور، كيف تجاهلت اقدار من خرجت دار العلوم من الرجال الذين سيطروا على الحياة الأدبية .

ايمكن أن يقال أن دار العلوم تخرج منها عبدالعزيز جاويش وحفنى ناصف ومحمد المهدى ومحمد الخضرى وعبد المطلب وعبد الوهاب النجار وأحمد السكندرى ، من حقك ان تدوس دار العلوم لانك مقتحم ولـكن يعز على وعليك ان تهزم دار العلوم بعد ان صنعت فى التاريخ ما لم يصنع الأزهر ولا الجامعة المصرية » .

الفصل الثانى

فى وزارة المعارف

عمل طه حسين فى وزارة المعارف (١) مراقبا للثقافة (٢) مستشاراً فنياً للوزارة (٣) وزيرا ـ واتصلت أسبابه بوزارة المعارف منذ كان أستاذاً فى كلية الآداب وعميداً لها فقد كان مشاركا فى مناهج الأدب فى المدارس الثانوية على أساس خطة رسمها فى السيطرة على الطلاب فى المداس الثانوية .

حتى إذا انتقلوا إلى كلية الآداب كانت المقدمات كلها تهيىء لهم تقبل مايدرس بها من مخططات ولذلك فإن سيطرة طه حسين على المناهج فى اللغه والأدب وخاصة بإشرافه على كتاب المجمل فى الأدب العربى كان يعمل على تحقيق الهدف . وكان المستشرق جب قد أشار إلى نفوذ طه حسين الواسع فى توطيد المبادىء التى يدعوا إليها وصدق مسترجب وآيه ذلك أن آراء طه حسين التى نقضها الباحثون فى الشعر الجاهلى وأعلاء الفكر اليونانى على الفكر العربى والقول بأن عصر الإسلام الثانى عصر شك ومجون ، هذه الآراء كلها قد تضمنها كتاب المجمل فى تاريخ الأدب العربى فى نفس العام الذى نشر فيه جب تقريره (١٩٣٠) وأنه إستطاع بقوة نفوذه أن يثبت كثيراً من أهداف التغريب والشعوبية فى وزارة المعارف بعد أن ثبتها فى الجامعة .

وكانما كانت خطة تولية منصب مراقب الثقافة من أواخر ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢ والمستشار الفنى للوزارة من فبراير ١٩٤٢ إلى اكتوبر ١٩٤٤ ، مرتبة ترتيبا محكما لأداء هذا الدور الخطير .

وقد تناول كثير من الكتاب هذا الكتاب بالنقد كاشفين من خلاله عن العمل الذى يدبره طه حسين المناهج فيقول الأستاذ عباس حافظ : (كوكب الشرق ٢٦ و ٢٧ مارس ١٩٣٠) .

العجيب أن روح طه حسين قد سرى فى الكتاب من أوله إلى آخره ، وهى إرادة جبارة من عصاها ففى يده لمثله العصا . أن الكتاب قد تعرض فى التاريخ الأدبى العربى لجملة من القضايا والنظريات والتخريجات والآراء الفطيره التى لم تبت فيها بعد ولم يستقر العالم الادبى منها على أحكام حاسمة ، فالتشكيك فى الشعر الجاهلى واستياق الشعر للنثر واثر الحضارات الأجنبية فى حضارة العرب قد ألقيت إلى الناشىء طالب الثانوية كقضايا مفروغ منها وأحكام نهائية . وهو منهج خطر على الناشئين مضلل للعقول الصغيرة .

أن التشكك فى حقيقة الشعر الجاهلى وما إليه بضاعة ازجاها طه بلطف الحيلة لتندس فى المنهج وتكتسب صفتها الرسمية فى المقرر ، وأن لم تصب صفتها الجنائية فى التحقيق ، وقد ذكرنا بكتابه الماضى فى الشعر الجاهلى وما أسماه فى تاريخ إبراهيم والكعبة بالاساطير التى إستغلها « القرآن » وان لم تصلح للتحقيق التاريخى . (هذه الشبهات) التى أفلتت من القصاص هى اليوم فى دار الجامعة تنساب متسللة إلى نفوس الطلاب أنسياب الافعى نافثة سمها الزعاف فى اذهان الناشئين مخرجة لنا كتائب من الملحدين تلقوا المبادىء الخطرة المسممة قضية مسلمة ، أنها نفثة خبيثة موبوءه من نفثات طه حسين نفخها فى المنهج وعاد يبعثها فى المجمل لتشيع الشك فى النفوس الطريه والاذهان النقية .

وكذلك لايقتع الأستاذ الملحد بالخمائر التى لديه فى تلك الكلية يصطنع منها ملاحدة معجونين فى الالحاد ويخبزهم فى اتون التشكك خبز التخمير والعجين واللت والتربص .

هذا ما يحزننا من ناحية هذا الملحد الجرىء الذى اجترح اشنع الجرم فى حق الدين الرسمى للدولة ثم مضى ناجيا من العقاب ، ضاحكا من اذقاننا ، مجمعا أمره لنيتقمن للالحاد من إيماننا ولقد اسرها فى نفسه ورسم الخطه لثأره فلن تهدأ له هادئه أو يحيل اكثر شباب البلد كفارا مثله موضعين فى الكفر .

ماذا يفيد الطلاب الناشىء من وراء تلقينه أن كثيرا من الشعر الجاهلى مثاراً للشك فى نسبة الجاهلية ، أن هدم الذهن الصغير منذ الوهلة الأولى بالتشكك خطر على الذهن نفسه ، وتسرب إلى الشك فيما بعد الشعر الجاهلى من الأدب كله ، فإذا مشى بهم خلال الادوار الأخرى من الأدب فالى الغاية التى تجتث العقائد وتذهب بموروث الايمان .

وعلى هذه المجال الوسيع ما دامت كلية الآداب تحت سلطانه وقد شاع الغرور فى نفوس صبيان هذا الشيخ ، فإذا عرفت أن الإلحاد باب إلى الأباحة أدركت الخطر الذى أوشك أن يفجأ الحياة المصرية ، يوم يسرى الإلحاد فى الشباب فيعم جمهرة المتعلمين » .

وقد أثار كتاب المجمل فى تاريخ الأدب العربى مناقشات كثيرة تناولتها أقلام متعددة كاشفة عن الخطة المسمومة التى تنتظم الكتاب كله : يقول اسماعيل حسين (وهو واحد من كبار رجال التربية) البلاغ (٢٠ مايو ١٩٣٠)

(أولا) : يحوى المجمل مغامز خسيسة لا ترتكز إلى مصادر قوية من التاريخ كنسبة العصر العباسى كله إلى الزندقة والفجور والغزل المذكر ؛ وأظن أن الفضيلة والرزيلة لا يخلو منهما عصر فى كل زمان ومكان وتلاميذنا أحوج إلى تربية الفضيلة وأمانة النقل فكان يجب أن تذكر الفضيلة وهى موجودة فى العصر العباسى بوضوح جنبا إلى جنب إلى جانب الرزيلة كما يفعل كل مؤرخى الأدب أو على الأقل عملا بواجب الأمانة العلمية .

(ثانيا) : النهضة الحديثة يجب أن تبنى على المستندات الرسمية والوثائق وأن تخلو من التحيز السياسى وهذا يباين ما فى المجمل ، فقد أخذ تاريخ النهضة الحديثة عن تلك الكتب المزيفة التى يعتقد العلماء المختصون بطلانها ويعدونها دلالة على العبث والتزييف أكثر منها دلالة على الحقيقة العلمية ، أو على الأقل أنها وضعت لتسدل على الماضى سترا من النسيان ونسوا ما فى هذا من التجنى على الثقافة العلمية التى يجب أن تقرر لفائدة الأبناء والأحفاد . (ويشير الكاتب إلى أن بعض الكتاب قد وضع كتابا لتاريخ المملكة المصرية

من عهد محمد على وسلك فيه طريقة جديدة . هى طريقة خلق المعاذير للأشخاص وتجاهلوا أن تلك الوثائق منتشرة بين أيدى الناس ولا تخلو منها مكتبة)

(ثالثا) : أشار إلى خطأ الاشادة بذكر المعاصرين لأن أعمالهم لم تكتمل بعد ولذلك لا يصدق الحكم عليهم ولكن القصد أن يذكر الدكتور طه لأنه صاحب الرأى الجديد فى إقامة الدليل بتكرار اللفظ كما قال (للمعلمين قضية وللمعلمين قصة ، نعم للمعلمين قضية ولهم قصة إلخ) وله فضل نقل آراء المستشرقين فى الأدب العربى القديم بجرأة نادرة وتصرف غريب وأن عز عليه ذكر المصادر .

(٢)

ولا ريب أن قصد تعيين الدكتور طه مراقبا عاما للثقافة إنما جاء على أثر صدور كتابه (مستقبل الثقافة) الذى حاول أن يرسم فيه طريقة العمل فى التعليم بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية مونترو التى تعثرت كثيراً تحت تأثير مخاوف فرنسا والدول الغربية من سيطرة البلاد على مصائر المعاهد والارساليات الأجنبية .

وحتى قيل إذ ذاك أن الدول اشترطت على مصر أن تنقاد للقانون الوضعى وأن تقبل إشراف بريطانيا على هذه المعاهد والارساليات الأجنبية ، فى هذه الفترة أخرج طه حسين كتابه وكأنه برنامج للعمل وسرعان ما كلف بهذا المنصب ، وقد عجب كثيرون لهذا الاتجاه فقالت إحدى الصحف : تحت عنوان إلى أى طريق تسير بنا وزارة المعارف : أن الدكتور طه الذى يعلن صراحة أن العقل المصرى لا يتصل بالشرق وأن الدين شىء والسياسة شىء آخر ، وإن الدعوة إلى الفكرة الإسلامية لا تقابل بغير السخرية وأن مصر لا تنهض إلا إذا قلدت أوربا فى كل شىء ، يعين مراقباً عاما للثقافة ويصبح فى يده صناعة النشىء أو بناء الجيل الجديد (جمادى الأولى ١٣٥٨ : النذير) .

وقد زار فى هـذه الفترة مصر رئيس مجلس نواب فرنسا (مسيو هريو) لتوطيد حياة المعاهد الفرنسية والذى استقبل استقبالا حافلا ، وكان الدكتور طه حسين مستشار الثقافة هو حجر الرحى فى الربط بين الثقافة الفرنسية فى مصر ومعاهدة مونترو ، وقال الدكتور هيكل وزير المعارف أن هريو جاء إلى مصر بوصفه رئيس الجمعية العلمانية الفرنسية ، وأن كل أحاديثه وخططه تدور حول علاقات الثقافة بين مصر وفرنسا وما يجب أن يكون أساس هذه العلاقات وقال فى خطابه بمدرسة الليسية فرنسية أن الغاية التى يجب أن ترمى إليها الثقافة المصرية الفرنسية إنما هى أن تغرس عن طريق المعرفة حب مصر فى نفوس الناشئة الذين يتلقون العلم فيها ، وأشار إلى تضحيات فرنسا للحرية والإخاء والمساواة .

وعلى أثر هذا حدثت فى الغرب محاولات ضخمة لتكريم طه حسين.

نال الدكتوراه الفخرية من جامعة ليون ١٩٣٨ وقال فى خطابه أن مصر مدينة بكثير من الفضل لفرنسا (الصحف ٥ / ١١ / ١٩٣٨) وكانت الحكومة الفرنسية قد أنعمت على الدكتور طه بنيشان اللحيون دونور من درجة أوفيسيه .

يقول زكى مبارك البلاغ ١٣ سبتمبر ١٩٣٦ : وقد دعا ذلك إلى التفكير فى جدراته بهذا النشان والحق ان الدكتور طه حسين خدم الثقافة الفرنسية أجل الخدمات ولعله أظهر مؤلف مصرى أولع بتلخص الاقاصيص الفرنسية باسلوب ممتع جميل وهو إلى ذلك أظهر من تحدثوا عن المؤلفين الفرنسين ومن أشهر من تخرجوا من جامعة باريس .

وكتبت صحيفة البروجريه التى تصدر فى ليون (الأهرام ١٩٣٧/١٢/٥) تقول تحت عنوان (ريتان مصر الضرير) أنه ألف عدداً من الكتب فى مختلف الموضوعات مبيناً فيها الأفكار اليونانية المنقولة إلى العبرية ثم إلى العربية ومنها عن الحضارة الغربية حيث ازدهرت فى علم الأدب الفرنسى وكيف رسخت فيه الأفكار الفرنسية فاعطاها فى بلادة قوة شديدة مؤثرة

وبما صرح به طه حسين : نحن مع تعلقنا بفرنسا بالفكر والقلب ، نحافظ على اتفاقنا الصادق مع انجلترا فإنها برت بوعدها لنا بمساعدتنا على توطين أركان استقلالنا الوطنى وقال انه يجب على مصر أن تتوخى سنن الحضارة الغربية والرقى الديمقراطى ناهجة فى ذلك نهج فرنسا وانجلترا فى القريب العاجل بلا قيد ولا مواربة .

وقد وصفه الكاتب الفرنسى (ايمرى جونى) فى مقال له تحت عنوان (مصرى القرن العشرين) بقوله : الأزهرى المتمرد على بعض العقائدالدينية .

وقالت الصحف إن منح طه حسين هذا النيشان بعد توقيع المعاهدة ومنحه الدكتوراه الفخرية يعد توثيقا لعرى التعاون الفكرى بين مصر وفرنسا (الصحف ٦ أكتوبر ١٩٣٨) .

وكتب زكى مبارك مقالا فى الرسالة بعد تعيين طه حسين مراقبا للثقافة (٢٥ ديسمبر ١٩٣٩) قال فيه : أنت صرحت مرات كثيرة بأن العقلية المصرية عقلية يونانية وأن تلك العقلية يجب مراعاتها فى التعليم والتثقيف . وأنت دعوت إلى تعليم اليونانية واللاتينية بحجة أنهما أصل للحضارة الأوربية فهل تظن أن تلك الدعوة لا يزال لها فى مصر والشرق مكان . إن محاسنك هى عيوبك يا سيدى الدكتور فأنت تفر من السكون لأنه ينافى الحياة ، ولعلك لا تحب الحياة فى الحقيقة كما تحبها فى الخيال وإلا فكيف جاز عندك أن تدرس الخطب القديمة فى وطن ديموستين قبل أن تدرس الخطب الحديثة فى وطن زغلول وكيف صح فى ذهنك أن تدرس مجادلات الأحزاب فى اثينا قبل أن تدرس مصاولات الأحزاب فى البصرة وبغداد ، أنت تلوذ بالقديم فى كل وقت لتأمن سيطرة الناقدين ولكن القديم اندحر أمام الجديد فمن واجبك أن تفكر فيما تقدم عليه قبل أن تذكرنا قدرك » .

ومما يذكر أن الدكتوراه الفخرية قد توالت على الدكتور طه حسين من بعد ذلك من جامعة مونبلييه ١٩٤٦ ، جامعة روما ١٩٥١ ، جامعة

أكسفورد ١٩٥٠ ، جامعة باريس ١٩٥٠ ، إلى جائزة سانتوا عن رسالته عن ابن خلدون .

وقد كشف طه حسين عن هدفه من العمل فى وزارة المعارف فى محاضرة ألقاها فى ٢٠ / ١٢ / ١٩٣٦ فى قاعة يورث التذكارية فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة تحت عنوان (واجبنا الأدبى بعد المعاهدة) .

جدد فيها دعوته المسرفة فى دفع الأدب إلى الشك والإلحاد والكشف والإباحة وعرض لما جرى له مسجلا موقفه كرائد فى مجال الفكر الحر ليثبت أمام السادة أنه يبدأ هذه المرحلة من حياة الأمة بعد عقد المعاهدة مع بريطانيا — وهو حدث جد خطير فى مصر — أنه سائر على نفس الطريق المرسوم له .

يقول : إن الأدب الحق هو الأدب الذى لا يجد من العرف ولا من القانون ولا من سطوة السلطان ما يعوقه عن القيود . أول ما ينقص البيئة المصرية الحديثة مما يحتاج إليه الأدب هو الحرية : فالأدباء ليسوا أحراراً وحرمانهم الحرية يقص أجنحتهم ويحول بينهم وبين الإنتاج الحق ، وهم لا يستطيعون أن يفكروا وقد يتاح لأحدهم أن يتمرد على الجماعة فيفكر برغم الجماعة ولا يعلن ما يعن له من الأفكار والآراء وقد يعلنها فى شيء من الحرية ولكنه لا يكاد يفعل حتى تقوم من حوله القيامة وحتى يهاجم أشد مهاجمة وحتى يضطر إلى الانزواء ويخشى شر الناس ويخشى الناس شره فى وقت واحد »

ويقتضى انطلاق البحث إلى غايته فى الحديث عن حياة طه حسين أن نقول انه فى عام ١٩٣٤ غير طه حسين مجرى حياته تغييرا كليا عندما انفصل عن حزب الأحرار الدستوريين وانضم إلى حزب الوفد . وكان طه قد فقد كل سمعته وكرامته فى نظر الناس بعد كتابيه الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء فقد كشفت التقارير عن خبيئة سيئة وراء هذه الكتابات تهدف إلى غايات وصفت بأنها معارضة للاسلام أو حربا له وبذلك سقط طه حسين سقوطا تاما ، غير أن الذين من ورائه كانو يريدونه إماما مسلما يتصدر باسم الاسلام ويشكك

من داخل الإسلام حتى يمكن أن يقال من بعد أن آرائه هى آراء أزهرى مسلم وبذلك تصبح أداة قوية لتبرير تفكيك قيم الإسلام وكان أسلوب الحرب من الداخل هو الذى فرض نفسه فى هذه المرحلة حيث بدأ طه حسين يكتب عن الرسول فى مجلة الرسالة تحت عنوان (على هامش السيرة) وأذيع وراء ذلك وحول ذلك دعاوى كثيرة عن الرجل الذى عاد إلى الإسلام وبدأ يكتب تلك الفصول البليغة خداعا وتضليلا وهى تحمل فى أعماقها سخرية وشبهة لا حد لها ، وعندما أخذت هذه الدعاوى مكانها ، كانت قفزة طه حسين إلى الوفد حتى يكون فى إطار الحركة الوطنية وحزب الأغلبية فيعينه ذلك على العمل ويحميه من هجمات العلماء المسلمين وهو فى ظل الوفد استطاع فعلا أن يخطو خطوات واسعة فى سبيل تحقيق هدفه سواء فى الجامعة أو وزارة المعارف وكان من ثمارها كتابه عن مستقبل الثقافة وفى ظل الوفد استطاع طه حسين أن يتقدم حتى أصبح وزيراً للمعارف .

وجاء بعد ذلك من اتخذ كتاباته عن الإسلام وكأنها رأى عالم اسلامى متخرج من الأزهر لتكون حجة على المسلمين والإسلام وهذه هى نقطة الخطر الحقيقية فى عمل طه حسين فى هذه الفترة . فكيف يمكن توجيه الاتهام إلى مؤلف هامش السيرة ، فى ضوء هذه المظلة الواقية المزدوجة : الوفد وهامش السيرة كان طه حسين أشد جرأة فى تحقيق أهدافه عن طريق التعليم والمناهج والجامعة من ناحية وعن طريق إذاعة آرائه وشبهاته وكان أخطر أعماله فى هذه الفترة كتاب مستقبل الثقافة الذى حاول أن يجعل الفكر والثقافة والتعليم فى مصر والبلاد العربية تابعا وضالعا ومنصهرا فى الفكر والثقافة الغربية قاضيا على المفهوم الإسلامى العربى الواضح الذى له طابعه وذاتيته .

وقد أشارت مختلف الكتابات أن طه حسين فى هذه الفترة (١٩٣٩ — ١٩٤٢) وفى خلال منصبيه : مراقب الثقافة والمستشار الفنى كان هو الوزير الحقيقى . فقد كان مع الدكتور هيكل ومع أحمد نجيب الهلالى من بعد منطلقا للعمل ومسيطراً ومندفعاً لتحقيق أهدافه فى إعداد المناهج وتعبيرها وفى السيطرة على

التعليم الإبتدائي والإعدادي والثانوي ورجاله جميعاً . ثم كانت أعماله في جامعة الأسكندرية وهو مديرها خطوة واسعة في سبيل أهدافه : وكان يحاول أن يحمي نفسه في هذه الفترة بدعويين : استقلال الجامعة وديمقراطية التعليم وهي كانات براقة مطاطة تخفي وراء مظهرها عمله الآخر العميق الذي حاول فيه « تغريب المناهج » ليس في الجامعة وحدها بل وفي التعليم كله .

❊ ❊ ❊

ولقد كانت دعـوة طه حسين في كل أمور التعليم إلى استدعاء ما أسماهم : «الفنيون» فاذا لم نجدهم في مصر فقد نجدهم في أوربا «ورأيي ان من الإثم التردد في دعوة الفنيين بحجة إننا مستقلون واننا نريد الاستقلال » السياسة الأسبوعية ١٢ مارس ١٩٢٧ وهي نفس الدعوة إلى استدعاء المستشرقين في الجامعة .

وقد ووجهت كلتا الدعوتين بالمعارضة والرفض ، ذلك ان التجارب العديدة قد أثبتت ان الفنيين في التعليم لم يكونوا إلا قسسا امثال دنلوب او مستشرقون متصلون بالـكنائس او الاستعمار الغربي ولم يـكن هناك الفنيون المتجردون من الهوى والغاية الذين يفهمون كيف يـكون التعليم في بلد مسلم ، وليس عندهم إلا مناهج الارساليات وهي موجودة والحمد لله في مصر والعالم العربي بوفرة وقد نقلت مناهجها إلى المدارس الوطنية منذ قدوم دنلوب ١٨٨٦ تقريبا .

❊ ❊ ❊

(٢)

طه حسين والأزهر

ولقد كان لطه حسين مواقفه الواضحة الغرض القائمة على الهوى من الأزهر ، وقد جاء هذا انطلاقا من حفيظته القديمة وخصومته المتجددة لمواقف الأزهر من آرائه التى تعارض الإسلام ، ونحن نعرف أن طه قد حمل على الأزهر منذ أسقط فى امتحان العالمية وقد أثار المستشرقون الخصومة حاده بينه وبين الأزهر حتى ظلت مستغلة الأوامر إلى نهاية حياته وفى خلال عمله فى الجامعة ووزارة المعارف وبعد ان أحيل إلى المعاش لم يتوقف عن مهاجمة الأزهر فى أسلوب مراوغ باسم الدعوة إلى الاصلاح ولم يتوقف عن السخرية منه ، يقول عام ١٩٢٥ موجها كلامه إلى صديقه الآبق : على عبدالرازق بعدالحكم عليه باخراجه من زمرة العلماء : آيه أيها الطريد من الأزهر ، تعال نتحدث ضاحكين عن هذه القصة المضحكة ، قصة كتابك والحكم عليك وطردك من الأزهر ، فما بال رجال الأزهر لم يقضو على كتابك بالتحريق فقد كان بلدنا أن نرى نسخة تجمع فى صحن الأزهر أو أمام باب المزينين .

تعال نضحك فقد كان كتابك مصدراً لتغير الارثوزكسيه فى الإسلام ، ولست أنت الذى غيرها أيها الطريد المسكين وإنما غيرها الذين طردوك وأخرجوك من الأزهر ، وقد كنا نعلم أن القاهرة مركز أهل السنة وموطن الأشاعرة ومستقر الأرثوزكسية الإسلامية ، ما هذه الهيئة التى أخرجتك من الأزهر ، وما سلطتها الدينية ، هى أثر من آثار الإستبداد أنشأها عباس يوم كان يريد أن يستهوى ويوم كان يريد أن يكيد وهى أثر من أثار الإستبداد لا يليق بعصر فؤاد مصدر الدستور » . !

ثم يواجه طه حسين عام ١٩٢٦ الأزهر فى موقف حاسم إزاء كتابه (فى الشعر الجاهلى) وفى الأدب الجاهلى.

ومنذ ذلك اليوم وطه حسين لا يدع مناسبة إلا يتعرض فيها للأزهر والأزهريين بالسخرية والنقد فهذا (موضوع) أساسى فى حياته الفكرية كلها وأخطر مايكون فى مجال التعامل بين الأزهر ووزارة المعارف فهو يرد الأزهريين عن العمل فى وزارة المعارف ويدعو إلى أن يكونوا زاهدين فى المناصب، ويدعو الأزهر إلى إن يكون إدارة للوعظ والإرشاد.

وعند ما شدد الخناق عليه أعلن فى بيان خطير أنه يؤمن بالله واليوم الآخر.

وعندما نوقشت آرائه فى البرلمان عام ١٩٣٢ حاول الدفاع عن نفسه فقال فى صلف عجيب «أؤكد لك إنى أشد دفاعا عن الإسلام وحماية له وأظهاراً لجمال القرآن وأعجازه عن رئيس الوزراء وشيخ الأزهر، واجمل شيء ضحكت له اليوم الحاح شيخ الأزهر آن بعدم كتاب الشعر الجاهلى، هذا شيء مضحك ليس آقل سحفاً من رضى شيخ الجامع بفصلى على أنه حماية للإسلام، وإنى أقترح على صدقى باشا (رئيس الوزاره) أن يقيم حفلا حافلا من شيوخه ونوابه فى حرم الجامعة وآن يلبس رئيس الوزراء عمامة شيخ الأزهر وأن يتقدم فيلقى بيده الكريمه فى النار المضطرمه أول نسخه من هذا الكتاب ثم يتبعه القوم فيفعلون فعله» — (كوكب الشرق ٢ أبريل ١٩٣٢)

ويمضى فينتهز كل فرصة ليهاجم الأزهر ففى عام ١٩٣٤ يقول:

«ثم شيخ الأزهر وما شيخ الأزهر: أن له بركات ظاهرة وأخرى خفية أن له مساعى واضحة وأخرى غامضة إنه يستطيع أن يقرأ العدية الكبرى ومن وراءها الدعاء المشهور، أن له عند الأولياء وسائل أنه يستطيع أن ينفق ليله ساهراً فى غرفة يطلق البخور ويجرى لسانه بما تيسر من الكلمات فإذا النظام باق لا خطر عليه وإذا الشيوخ والنوب لايتعرضون لشر ولايخافون بأسا» الوادى — ٢١ نوفمبر ١٩٣٤.

ولاريب أن مثل هذه الكتابات كان لها فى وقتها أثر خطير فهى تنفث فى روع

الشباب والشعب السخرية والإستهانة بالأزهر ورجاله ، وهى فى الوقت نفسه ترضى المستشرقين والقوى التغريبية لإنها توهين للدين نفسه ، ذلك أن طه حسين قد تعلم فيا تعلم شيئاً هاما جداً بعد التجارب المريرة أن لايهاجم الدين بل يهاجم المؤسسات والأفراد ، فهو حين يهاجم الأزهر إنما هو يهاجم الإسلام من الداخل ، وذلك أسلوب كانت له آثار بعيده فى خلق جو من إستهانه الناس بعلماء الإسلام والنظر إليهم على أنهم ليسوا أهلا لأن يقدموا التوجيه للسلمين .

وفى عام ١٩٣٢ يقول : ما دامت هذه الأيام السود قد جعلت رأى الشيخ الظواهرى فوق الدين والعلم وفوق الحرية والدستور والقانون ، فمن الحق على هذا (البابا) أن لايحكم رغاياه البائسين حكم قراقوس وان لا يقضى فى أمر حتى يفهم ويتبصر ، وأنا أعلم أن عمامة الشيخ تضيق بفهم هذه الكتب العلمية الخالصة التى يطبعها فى مصر جماعة من المصرين والأجانب الشرقيين والغربيين » السياسة ١٩٣٢/٦/٢٨ .

وواضح أن هدف طه حسين هو فتح الطريق أمام الأجانب الغربيين وحدهم فى نشر ما يشاءون من آراء سواء اكانت معارضة للإسلام أو مهاجمة له .

ويقول : لا : ليست المسألة مسالة دين ولا مسألة علم ، وإنما هى مسألة سياسية ليس غير ، رأت الوزارة فى الجامعة معهدا خطراً على سياسة القهر والتسلط فغضبت عليها ورأت الوزارة فى الأزهر أو قل فى شيوخ الأزهر أو قل فى الهيئة الرسمية للأزهر ، أو قل فى شيخ الأزهر مؤيدا لسياستها هذه فرضيت عنه وأثرته بالخير ، فاما الأمة فإنها تعلم حق العلم ان الذين يؤيدونها وينصرونها ويهيئون لها الوسائل إلى الحرية والعزة والكرمة فتنظر إليهم فى حب وترمقهم فى أمل وتعدهم بأن تمنحهم من التأييد ما يمكنهم من المضى فيا هم بسبيله من سعى إلى الحرية ، فليهنأ الأزهر برضى الحكومة ولتهنا الجامعة برضى الأمة وغضب الوزراء » كوكب الشرق ١٩٣٣/٣/٢٩ .

وهكذا يستمر طه حسين فى ألقاء الحفائظ وإثارة الفتن والتفريق بين الصفوف من أجل أرضاء هواه ، وأرضاء سادته المستشرقين والتغريبيين .

وفى عام ١٩٣٥ يعود طه حسين إلى الجامعة فيواصل الحملة فى عنف على الأزهر فهو يتحدث عن رجال الدين فى مصر ورجال الدين فى أوربا ويتحدث عن القسيس المهندس ، والقسيس الطيار والقسيس المنقب عن الآثار ويهاجم علماء الإسلام ويستنقصهم . ويرد عليه الكثيرون كاشفين عوراته ثم يذهب إلى أبعد من ذلك فيبعث بمذكرة إلى وزير المعارف يطلب فيها ضم دار العلوم إلى كلية الآداب ثم يعرج على الأزهر بطعناته المعروفة ويقول الأستاذ على محمد عامر فى مقال مطول نشرته السياسة ١ يوليو ١٩٣٦ :

أن الدكتور طه له مع الأزهر ماض معروف وقد كنت أتمنى لهذا الرجل الكبير أن ينساه ولكن خاب هذا التمنى حينما قرات له هذا التقرير الذى رفعه إلى وزير المعارف بشأن ضم مدرسة دار العلوم للجامعة المصرية فقد قال فيه عن الأزهر .

(فليس من حسن الراى ولا من النصح للغة العربية وآدابها ولا من الاخلاص للشباب المتعلمين أن يثقل الأزهر المثقل فتكلفة مهمة جديدة هى تخريج المعلمين لمدارس الدولة فى الوقت الذى لا يستطيع فيه القيام بمهمته الأولى) ما شاء الله يادكتور : هل هذه هى خلاصة فلسفة الآراء الحديثة فى الحكم على الأشياء ويقول (ان الطريق امام الأزهر ما زالت غامضة مبهمة شديدة الغموض والإبهام ولأن الظروف الخاصة والعامة التى تحيط بالأزهر ما زالت غامضة مبهمة شديدة الغموض والابهام ايضاً) فالطريق واضحة جلية لا تخفى على ذى عينين ولا على ذى راى بصير ، فلا غموض ولا ابهام لا فى نواياك نحو الأزهر ، وها هى الطريق معبدة تحرسها قوانين الإصلاح وتضىء جوانبها . وها هو الشباب الازهرى المتعطش للاصلاح يكد ليل نهار فى مدارسة العلوم وها هى ذى البعوث العلمية تنهل من علوم الغرب لئلا يكون لك ولامثالك على الازهر حجة بعد ذلك . اليس من العجيب ان تقول عن الازهر فى تقريرك :

(واتصال التعلم الازهرى والشهادات الازهريه بوزارة المعارف غير واضح بل غير موجود والأصل فى بلاد الارض كلها ان الذين يتعلمون فى مدارس

الدولة يجب ان يسيطر وزير المعارف نوعا ما على تعليمهم ، ويتلقوا اجازاتهم العلمية والتعليمية من وزير المعارف ويجب إلا يخضعوا حين ينهضون بالتعليم لغير السلطات التعليمية المدنية ، هذه الأصول المقررة فى جميع البلدان المتحضرة من غير إستثناء لا تلائم مطلقا ما ينتهى إليه الأمر إذا ترك الازهر تخريج معلم اللغة العربية وآدابها لمدارس الدولة)

الم تعرف يا دكتور ان الأزهر مجلسا أعلى يراسه الأستاذ الأكبر ومن أعضائه وكيل وزارة المعارف ، وان بالجامعة والمدارس العالية والثانوية والابتدائية عشرات من المدرسين الأجانب لم يسيطر على تعليمهم وزير المعارف ولم يتلقوا اجازاتهم العلمية والتعليمية منه ؛ فهب ان الأزهريين مثل هؤلاء الأجانب من الانجليز والفرنسيين ام انت تحل ذلك للأجنبي وتحرمه على المصرى الأزهرى . اما قوله : (ويجب أن لايخضعوا حين ينهضون بالتعليم لغير السلطات التعليم المدنية) فمن قال ان المتخرج من الأزهر حين يلتحق بخدمة الدولة فى وزاراتها لا يخضع لها ويظل خاضعا لسلطان الأزهر ، ان نظام هيئة كبار العلماء يمحو ويقيد على الأقل تقدير سلطان الدولة تقييداً خطيراً إذا تخرج المعلمون من الأزهر ، ان هيئة كبار العلماء التى تتحرق غضبا منها لم تحارب يوما من الأيام حرية العقل التى لم تخرج عن حدود الأخلاق والآداب والدين » .

ويقول الأستاذ محمد احمد السقا : يعلم الله ان الدكتور يريدها غربية لاشرقية زاعما أن الثقافات كلها من الغرب وأن يسلب الشرق أخص خصوصياته وهى إدابه ولغته وكان الأجدر بالدكتور أن يدعو الى ضم كلية الآداب إلى دار العلوم وأن يشفق على نفسه وعلى الشباب الذى يزعم أنه يحتضر من سياسة التعليم العربى فإن من الحقوق للشرق أن يتبع سنن الغرب فى كل شيء ، حتى فى العلوم النظرية ولعل الدكتور يعلم أن الغرب لم يعن الآن بالعلوم النظرية ، إلا. فليرفه الدكتور عن نفسه وليرحم شباب هذه الأمة الذى طالما فتح أمامه أبواب الشك والريب فطوراً ينشر لهم مذهب (ديكادت) ومذهب

غيره من فلاسفة الغرب وملاحدتهم ، هل ينسى الدكتور فضل دار العلوم وهل نسى الأزهر الذى ثقفه وكونه وجعله يتكلم بالمنطق السليم حتى أصبح يطعنه بسهامه التى طالما طعنه بها من هو على شاكلته »

وبعد فإن المذكرة الموجهة إلى وزير المعارف ، لم تكن إلا علامة على طريق جديد فإن وزير المعارف هذه المرة هو لطفى السيد لطفى السيد زميل طه حسين فى الجامعة منذ أنشائها وقد نقل إلى هذه الوزارة ليؤدى دوره ولابد أن يكشف له طه حسين الطريق الذى يستهدف اقتلاع الثقافة الإسلامية عن أفق التعليم وذلك بإبعاد الأزهر وانتقاصه وحجب خريجية عن التدريس ، جريا على الطريق التغريبى المرسوم لهدم كل مقومات نظم التعليم والتربوية الإسلامية وابعادها عن الطريق الصحيح إلى التحولات التى يرسمها الإستعمار والاستشراق .

* * *

ولقد حرص طه حسين فى مختلف محاضراته وكتاباته أن يعلن أن الجامعة المصرية هى الجهة الوحيدة التى ينبعث منها نور العلم فى مصر ، والتى يكون فيها طلاب العلم لذاته .

أما الأزهر فلا يصح أن يطلب المدرسون فيه شيئاً من المال لأنهم يجب أن يكونوا متزهدين فى الحياة الدنيا » محاضرته فى جمعية الشبان المسيحين (مارس ١٩٣٠) ومن مقال له فى مجلة الرابطة الشرقية تحت عنوان إصلاح الأزهر يدعو إلى امانة الأزهر بأن يعتبر مدرسة وعظ وإرشاد وألا يكون للمتخرجين فيه حق فى الوظائف وأن يعيشوا عيشة الرهبان ويدعو الدنيا وأغراضها وقد رد عليه الشيخ محمد الخضر حسين فى مجلة الهداية ، وكتب غيره : فقال كاتب فى البلاغ : (٤ ابريل ١٩٣٠) أنظر كيف يدعو إلى ايجاد الرهبانية فى الإسلام ، لقد عاد إلى جنايته وإرتد إلى جريرته فى وقت تفكر فيه الحكومه فى وضع اصلاح للأزهر يحفظ عليه مجده ويمكنه من اداء مهمته .

ويقول الكاتب : من قال ان الجامعة هى الجبهة المصرية الوحيدة التى يجب ان ينبعث منها النور العلمى فى مصر .

هل نسيت ان مصر بلاد إسلامية وأنه لحفظ الإسلام يجب أن يبقى الأزهر ويعنى بأمره ليتولى حراسة الاسلام من إعتداءاتك واعتداءات أمثالك .

ويعلق الكاتب على تحول الدكتور من الهجوم على الاسلام إلى الهجوم على الأزهر فيقول : ماهذا الأنقلاب يادكتور ، أمن رمى القرآن بإستغلال الأساطير واختراع القصص وإرتباك فى ضمير الغائب وأسم الاشارة إلى تصوف وورع ودعوة إلى النسك والزهادة .

يظهر أن الدكتور طه اقتنع بأن الناحية الدينية لم تجد نفعا فى تسليط معاول هدمه ، وأن الكلام فيها مظهر لجهله فاضح لعوراته ، فراح يحارب المسلمين فى ناحية أخرى يظنها هينة عليهم رخيصة عندهم لايحفلون بهاحفلهم بالدين وقداسته والاسلام وخطوته فبسط فى الأزهر الاذى والتحدث إليه بالمنكر ولو علم أن الأزهر حصن الإسلام ومعقل الدين وحامى الشريعة وأن الأمة لاتترك لسانا يلوكه بالسوء إلاقطعته ولا تدع قلما يذكره بالشر إلا حطمته لوفر عليه هذه الناحية »

وصدق الكاتب الأسبانى إير جومى الذى قال عن طه حسين : الأزهرى المتمرد على بعض العقائد الدينية وقد أشار مؤلف كتاب الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية إلى دور طه حسين فى قضية التغريب والأزهر فقال : دعا طه حسين إلى الغاء الأزهر وإلى منع خريجيه من الاشتغال بأى عمل من الأعمال ، ودعا فى كتابه (مستقبل الثقافة) إلى أن يصبح الأزهر كلية دينيه يدخلها من شاء أن يتم تعليمه الثانوى ولطه حسين مقال معروف بعنوان « وجه الصواب فى إصلاح الأزهر » عبارة عن حمله عنيفه على نسق الشعر المنثور :

هكذا هم جاهلون فى اللغه العربية ، هم جاهلون فى الفارسية والتركية والهندية هم عاجزون عن أن يذودوا عن الدين ويردوا عنه كيد خصومه .

هم عاجزون لأنهم يجهلون الديانات الأخرى ، هم عاجزون عن رد المخالفين هم عاجزون عن أن يؤدوا ما للإسلام عليهم »

والمقال كله قطعة من الحقد والخصومة والتعصب (السياسة : ٣١ أغسطس ٩٢٣) وقد جلا هذا الكتاب مؤامرة الاستعمار والتغريب فى مواجهة الأزهر التى قام الدكتور طه حسين فيها بدور خطير .

وكانت مقالات طه حسين عن ما اسماه (الخطوة الثانية) من أخطر محاولاته لهدم الأزهر .

وكان أن أعان الغاء المحاكم الشرعية فإذا الدكتور طه يتقدم بطلب الغاء الأزهر تحت اسم الخطوة الثانية فى مقال بجريدة الجمهورية ١٩٥٥/١٠/٢١ دعا فيها إلى توحيد التعليم على الأساس المدنى وجعل الأزهر كلية لاهوتية للدراسات الدينية ثم أردفه بمقال آخر فى ١٩٥٥/١١/٢ ثم بمقال ١٩٥٥/١١/٦ ثم مقال رابع ١٩٥٥/١١/٢٧ .

وهو فى هـذه المقالات يرد على المعارضين من رجال الأزهر وغيرهم الذين تتابعوا فى نقد رأيه ومعارضته والكشف عن خطأه فى دعوته هذه ، وتجديد الحديث معه فى محاولاته المتتابعه منذ عام ١٩٢٦ تقريباً وهو لايكف عن مهاجمة الأزهر والتشهير به والدعوة إلى جعله مدرسة للوعظ أو كلية لاهوتية .

وقد جدد الأزهريون فى مقالاتهم التى نشرتها الجمهورية فى هذه الفترة والعدد الخاص الذى صدر من مجلة الأزهر عن طه حسين (نوفمبر — ١٩٥٥) أشياء كثيرة من حياة طه حسين وإتجاهاته وكان أحدهم جرئياً فى القول بأن طه حسين هو سفير سرى للكاثوليكية الفرنسية وهذا ما ردده طه حسين نفسه بعد فى مقال بالجمهورية ٩ يوليو ١٩٦٠ تحت عنوان (عندما اتهمونى بأنى سفير سرى لفرنسا) وقال الدكتور محمد محمد أبو شهبه .

لقد جعل الدكتور من نفسه داعية لرجال الدين المسيحى يصفهم بوفرة والنشاط والتصرف فى كل شئون الحياة ويصف شيوخ الدين الإسلامى بالعجز والقصور وليس هـــذا بجديد عليك فقد نصبت نفسك داعية المبشرين اضرابهم من المستشرقين وحاولت ان تشكك الناس فى عقائدهم وقرآنهم فعثرت على ذيل مقال لمبشر تحت اسم هاشم العربى فنسبت ما جاء فيه لنفسك (مقاله فى الإســـلام لجرجس صال) إلا فليعلم الدكتور ومن على شاكلته أن له يكون شيء من ذلك ودون مايريد خرط القتاد وصعود السماء فليمدد [بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما تغيظ] والمعروف أن

المرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدى كان أول من كشف فى الأهرام عام ١٩٢٦ عن مصدر مزاعم الدكتور طه الشعر الجاهلى مما أورده جرجس صال فى كتابه مقال عن الإسلام كما سيرد فى موضعه .

وكتب أحد الباحثين فقال : لقد تساءل الدكتور طه فى مقال فى جريدة الجمهوريه عن آباء شيوخ الأزهر أنه سفير فوق العادة لفرنسا وهو التعبير الذى أطلقه الأستاذ زكريا البرى .

وإنى أحيله فى ذلك إلى جوه الفرنسى الذى يعيش فيه وإلى ما نشر عن أولاده فى كتاب (أصدقاء الثقافة الفرنسية فى مصر من ١٩٢٥ — ١٩٤٥) ودعوته الملحه فى الأخذ بالحضارة الغربية خيرها وشرها ثم أحيله إلى أبنه كلود صاحب الاسم الفرنسى وهو يتغنى بموسيقى الكنيسة .

وكان الاستاذ زكريا البرى قد أشار إلى أن كلود طه حسين هو ناظم ديوان (EL Le Mtlim Clair)
الذى يتغنى فيه لأمينه أخته بموسيقى نواقيس الكنيسة وذلك فى القصيدة التى عنوانها (La Gal hedrals Engloutie)

وكتب أحد الباحثين يقول : أن الخطوة الثانيه يجب أن تتجه نحو تطهير الجامعة من هذا التيار العدوانى للقانون والاخلاق والواجب والطهارة والبراءة وحماية الجامعيين من هذا الوباء الجارف الذى يدعو إلى الإثم ويهدد مستقبل مصر وكيانها وينادى بالقضاء على ما يختاص به الازهر فى مناهج تعليمه عن مناهج من يسميهم الناس فى مدارس وليس بين مناهج الأزهر والمناهج الأخرى من فرق إلا بتعلم القرآن وتفسيره والحديث ومصطلحه والسيرة النبويه والفقه الاسلامى ، فالقرآن وهذه العلوم هى الخطر كل الخطر على مصر ويجب أن تكون الخطوة الثانيه متجهة نحو تحطيمها وأبادتها بتوحيد التعليم فى طور الصبا والشباب .

وكان رأى الدكتور : « حسب الازهر أن يكون مستقلا بالتعليم العالى فى الدين وعلومه أما التعليم الإبتدائى والثانوى والإعدادى فيجب أن يكون من شأن وزارة التربية والتعليم تنفرد به فى مدارسها » .

ومات طه حسين ولم يتحقق هذا الامل بل لعلة شهد جامعات إسلامية متعددة تنمو وتزدهر فى المدينــة المنورة والرياض وأزهر لبنان وقــد اشترك فى معارضة الدكتور طه والرد عليه : عبد الفتاح الهوراى وعبد المنعم النمر ومحمد الشربينى وصادق عرجون وكامل محمد حسن وسعد غراب .

وعقد السيد محب الدين الخطيب رئيس تحرير مجلة الازهر مقالا رئيساً حول الخطوة الثانيه وقال فيه : المناهج الازهريه تمتاز عن المناهج الاجنبية التى اصطنعناها فى مدارسنا العامة باشتراط حفظ القرآن فى الازهر وإذا كان هذا هو مواطن الضعف والخلف عندنا فى مناهج الازهر ومنه جاء الشذوذ والالتواء فاستحق الازهر أن يهدم من أساسه بسبب هذا الاثم العظيم فليرفع البرقع عن وجهه وليناد على ملأ الاشهاد بأن اشتراط حفظ كتاب الله هو العقبة التى تقوم بين شبابنا الازهريين وتعلمهم كما يتعلم الناس .

فإذا كان تدريس تفسير كتاب الله لشبان الازهر يبن من السنة الثالثة الثانوية بعد فى نظر صاحب الخطوة الثانية مما يستحق أن يهدم أساس الازهر من أجلة لأنه مما يجافى دنيا الناس فليكن صريحا ولنقترح الإستعاضة عنه بكتابة فى الشعر الجاهلى لينشأ الازهرى فى الأزهر كما نشأ صاحبه الخطوة الثانية فى باريس مؤمنا بأن « للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولــكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يــكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل ابن إبراهيم إلى مكة » . .

فإذا كان الذى لا يصلح للبقاء فى ثانويات الازهر وابتدائياته هو : « القرآن » وتفسيره ، والحديث ومصطلحه والسيرة النبوية والفقة الإسلامى فليصرح بذلك مؤلف (فى الشعر الجاهلى) تصريحا لا احاجى فيه ولا الغاز وليقل أن هذا هو الذى يضيق به قوم وصفهم فى كتابه (على هامش السيرة) بأنهم يكبرون العقل ولا يثقون إلا به ولا يطمئنون إلا إليه وهم لذلك : (يضيقون بكثير من الاخبار والاحاديث ـ أى التى فى سيرة المصطفى ﷺ ـ

التى لا يستسيغها العقل ولا يرضاها وهم يشكون ويلحون فى الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الاخبار .

أما لو كان المراد بالخطوة الثانية : أن يكون للأزهر نصيب فى تدريس هذه العلوم الكونية والمدنية فان ذلك من تحصيل الحاصل لأن الأزهر قائم بذلك من عشرات السنين فلم يبق إذن مما يفارق به الأزهر دنيا الناس إلا مازاد على ما فى الدنيا وهو هذا القرآن وتفسيره والحديث ومصطلحه وسيرة النبى وكبار الصحابة ثم هذا الفقه الإسلامى ، فهل أثار الرجل عجاج هذه الفتنة لأجل الخلاص من هذه المواد . ومعتهم يتساءلون عن هذه البذور التى زرعت فى تربتنا الجامعية منذ نحو ثلاثين سنة بمشهد من صاحب الخطوة الثانيه كما يشهد له بذلك كتابه فى الشعر الجاهلى واعمدة الصحف ومحاضر مجلس النواب وبعض قرارات النيابة إلى أن انبتت تلك البذور رجالا صار منهم الآن مدرسون واساتذه كالذى كان يمزح مع طلابه على حساب ايمانهم فيقول انه سيعطى درجات إضافية فى الامتحان للذين يفطرون فى رمضان وكالذى يعتبر الآن حجة الفلسفة الوجودية فى مصر .

ويحاول طه حسين أن يرد على الصواعق التى صبها الأزهريون عليه فيقول:

مارأى الشيوخ فى انهم يتهمون بالكيد للاسلام رجلا ابلى فى الذود عن الإسلام خيرا مما ابلوا واعلن اليهم الف مرة ومرة انه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لايبلغه الشك ولا يجد إلى قلبه سبيلا ، من الذى انبأ شيوخ الازهر بأنى سفير فوق العادة لفرنسا أنشر لها فى مصر وفى غيرها كيدها للاسلام والمسلمين واثبت سلطانها على البلاد الاسلامية التى تذيقها الوان البأس والعذاب .

ام تراهم قد تحسسوا وبثو العيون والارصاد حتى علموا علم هذه الفارة التى تلقيتها من فرنسا لننشر فى مصر وفى غير مصر كيدها للاسلام والمسلمين .

ولا نجد ابلغ من تلك النفثة الصارخه التى القاها طه حسين من وراء الوعى ذات مقال حتى قال :

« بعضهم يرانى ازهريا قد نشأت فى الأزهر وقد نشات فى الأزهر مافى ذلك شك » ولكن ما رأيهم فى أن الازهريين قد لفظونى منذ زمن بعيد ، اقصونى

عن الازهر حينا ما ، ثم ردوني اليه بعد ذلك فلما تقدمت لامتحانهم نهائيا وظننت انى سأظفر باجازته الاخيرة ردوني عن هذه الاجازة أعنف الرد فحمدت الله على السلامة وقنعت من الغنيمة بالاياب . أنا إذن أزهرى عند بعض الناس وغير ازهرى عند الازهريين فأنا ساقط بين كرسيين كما يقول الفرنسيين . يرفضنى الأزهريون لأنهم لم يمنحونى اجازتى ويرفضنى المثقفون ثقافة أجنبية لانى أزهرى لا اعرف من ثقافتهم الا القشور ، والغريب أن كلمة القشور هذه قد كتبت على منذ أول الشباب فقد كان شيوخنا فى الأزهر يعيبون على طلب الأدب الذين كانوا يرونه قشوراً والتقصير فى طلب اللباب الذى هو العلم الأزهرى الخالص . كنت طالبا للقشور عند الأزهريين ، وأنا متعلق من الثقافات الأجنبية بقشورها عن المناضلين عن هذه الثقافات فانا صاحب القشور شابا وصاحب القشور شيخا ، وقد كتب على ألا أعرف من كل شىء إلا قشوره . وكذلك كنت دائما ضائعا يأبى الأزهر أن أكون أزهريا ويأبى غير الأزهريين إلا أن اكون أزهريا وتابى الجامعة أن آكون جامعيا ويأبى غير الجامعيين من الأدباء أن أكون إلا جامعيا »

ويقول الدكتور طه صدقت والله وأجرى الله على لسانك هذه المرة كلمة الحق .

* * *

(٣)

طه حسين وزير المعارف

وتحقق للدكتور طه حسين : ذلك الامل الضخم الذى ظل يسعى اليه منذ عرف الحياة السياسية والجامعية فاصبح وزيراً من وزراء حكومة الوفد : وزير المعارف (يناير ١٩٥٠) يقول كريم ثابت مذكراته : لما حمل حسين سرى (رئيس الديوان) إلى فاروق مشروع التشكيل الوزارى الذى سلمه اليه : مصطفى النحاس (باشا) رئيس حزب الوفد ، أخذ الملك فى مراجعته ولما بلغ اسم طه حسين : قال : مستحيل مستحيل قال فاروق : أنتم لا تعرفون خطورة هذا الرجل ، إنه الرئيس السرى للشيوعية فى مصر والحكومة نفسها لا تعرف ذلك ولكنى أؤكد لكم أن المعلومات التى عندى تثبت إنه الرئيس الأعلى للحركة الشيوعية عندنا فمن المحال أن أوافق على أن يكون وزيرا للمعارف بالذات مستحيل .

يقول كريم ثابت : وتدخلت لانقاذ الموقف (قلت) ان عدم تعيين طه حسين وزيراً لايحل الاشكال لان النحاس باشا سيعين رجلا آخر سيرشحه له طه حسين فيحركه من وراء الستار معتمدا على منزلته عند النحاس : فى حين انه لو كان وزيرا لأمكننا مراقبة تصرفاته ومحاسبته عليها بوصفه رجلا مسئولا ولبعثه ذلك على الحذر والاحتياط على أن يقال للنحاس انه إذا ظهر بعد شهر ما يوجب اخراجه من الوزارة وافق على اخراجه دون حلق أزمة بسببه .

وفيما روى كريم ثابت أشار إلى ماقاله حسين سرى إذ ذاك » : بينما عجزت عن اقناع فاروق بالعدول عن تعيين طه حسين وزيرا المعارف نجح كريم ثابت بطريقة وقرنها بإشارة من يده وحركة من وجهه توهما بان الطريقة التى اجأ اليها كريم ثابت لاقناع فاروق كانت حتما طريقة غير مشروعة أبت عفة حسن سرى أن يفصح عنها » هذا ماذكره كريم ثابت فى مذكراته التى نشرتها الجمهورية ٢٦ يوليه ١٩٥٢

وليس هناك شك فى أن اللقاء تام بين كريم ثابت وطه حسين حول هدف ربما يربطه اشتراكهما فى المحافل الماسونية وما تفرضه من تيسير الوسائط لوصول رجالها إلى الاماكن العالية فى الحكم وقد أشار كريم ثابت فى مذكراته ان ماقاله الملك عن طه حسين ليس صحيحاً وهو بالطبع ليس صحيحاً فليس طه حسين رئيس الشيوعيين فى مصر ولكنه اخطر من ذلك لأنه يعمل مع مخططات التغريب الواسعة النفوذ عبر الاستعمار والاستشراق والصهيونية وغيرها لاهداف أكبر .

وقد سارع طه حسين باذاعة تصريحه عن ان التعليم كالماء والهواء حتى أطلق عليه وزير الماء والهواء . ولم يكن ذلك من صنع طه حسين ولكنه كان عملا سياسيا لحكومة الوفد التى كانت تريد ان تدعم مركزها فى نظر الجماهير ، وكان كذلك من خططها القديمة منذ بدأ الوفد حركته وقبل ان يشترك فيها طه حسين بسنوات طويلة .

ولم يكن من رأى طه حسين شخصيا مثل هذا الأتجاه فانه يسجل على نفسه مما ذكره فى المحاورة التى دارت بينه وبين اسماعيل القبانى عام ١٩٣٩ ونشرتها السياسه الاسبوعية فى عدد ٢٢ ابريل قوله .

التعليم العام ليس كالتعليم الاولى لايستغنى عنه فرد ، فالتعليم العام فرض كفاية لافرض عين وإذا كان يكلف الدولة نفقات طائلة فليس من الحق أن نطالبها بتعميمه نحن نعترف أن للدولة الحق فى فرض أجور الانتفاع بالتعليم العام بشرط أن تحمى الفقراء الأذكياء من عدم الإنتفاع به ولو كلفها ذلك أن ترهق المقتدرين بأجر التعليم .

الثانى أن التعليم العام مهما يكن حقا للناس جميعاً فإن على الدولة أن لا تبيحه للناس جميعاً بل تمنعه عن الذين تأبى ملكاتهم إساغة هذا النوع من التعليم والواجب على الدولة أن تبيح التعليم لكل قادر عليه وأن تلاحظه فى أثناء الدراسة أمستعد هو للانتفاع بالتعليم . وقال : حين أعود إلى إطلاق التعليم العام أقيد هذه الحرية بقيدين : مقدرة الدولة على أجور التعليم وتحققها من إنتفاع الطلبة به » .

ومعنى هذا كله أن طه حسين إنما يدعوا إلى فتح أبواب التعليم « الأولى » فقط على مصراعيه أما التعليم العام فله دون ذلك محاذير .

ولذلك فإن الذين يرددون دون معرفة أن طه حسين دعا أن يكون التعليم كالماء والهواء هم مبالغون لأن الوزير هو جزء من حزبه وحكومته ورأيه المعلن هو رأى حزبه وحكومته وسنرى كيف فشل طه حسين من بعد فى تنفيذ هذا الوعد الخادع .

فقد كشفت الصحف الحزبية المعارضة للوفد بالأرقام مدى فساد خطة طه حسين وقد جاءت الوقائع خلال عمل طه حسين فىوزارة المعارف تؤكد ما يأتى :

أولا : ان طه حسين عمل فى قضية إستقلال الجامعة التى كانت رأس ماله ابان عمله فى الجامعة فأفسدها إفساداً تاما وسيطر على الجامعة من خلال عمله فى وزارة المعارف . وتحدى مديرى الجامعات وأثبتت واقعة معروفة أنه عارض مدير الجامعة الأستاذ كامل مرسى فى عرض قرارات مجلس الجامعات على المجلس الأعلى للجامعات وكان هدفه من ذلك السيطرة على أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات حتى تكون مصائرهم متعلقة بارادته ومشيئته لا بمشيئة مجلس الكليات أو مجالس الجامعات وراء مديريها وقد بلغ التذمر أشده بين مديرى الجامعات وأعضاء هيئات التدريس نتيجة لذلك ولإصرار الوزير على التدخل فى كل شئون الجامعات كبيرها وصغيرها مما جعلهم يعتقدون أنهم أصبحوا أشبه بالمدارس الثانوية الخاضعة لإدارة الوزير المباشرة . كذلك فقد تذمر عمداء الكليات وأساتذتها من تعديل قانون إختيار العمداء وجعل سلطة إختيار العميد بين الوزير وقالت الصحف ان طه حسين ١٩٢٢ ، ١٩٣٩ ليس هو معالى طه حسين وزير المعارف ١٩٥٠، ١٩٥١ .

ثانياً : اخذ على الدكتور طه حسين أنه سافر إلى أوربا ثلاث مرات خلال عشرين شهراً ، أمضى منها ستة أشهر فى رحلاته فى أوربا على نفقة الحكومة ، وأن ذلك كان أبان الموسم الدراسى وكان فى فترات الإمتحانات وقالت الصحف : عسى أن يتبين وزير المعارف أن المرتب الذى يتقاضاه ، والأمانة الملقاه على عاتقه وماجرى عليه العرف والعمل فى جميع بلاد الدنيا من أن وزير معارف أى دولة يجب أن يكون موجوداً فى البلاد التى وكلت إليه إدارة معارفها .

ثالثاً : فشل سياسة الماء والهواء التى بدأ بها عهده فى وزارة المعارف فإنه لما سئل كيف سيكون التعليم ميسراً على هذا النحو أجاب إجابته المشهورة :

أن على وزير المـال أن يمدنا بالمال وعلى وزير الأشغال ان يبنى لنـا المعاهد أما نحن فسنعلم الشعب وقد طرح بين يدى الوزير ثلاثة ملايين و نصف مليون أكثر مما كان عليه الاعتماد فى السابق . وكانت النتيجة كما يلى :

تخلص الدكتور طه حسين من كبار رجال الوزارة (إسماعيل القبانى . شفيق غربال) وأسند الأعمال إلى بعض الموظفين غير الفنيين . وقد واجههم مسألة نقص المعلمين فاعتمدوا فيها على أسلوب مرتجل . وكانوا من المرتجلين أيضاً فى مسألة تـكديس التلاميذ فى الفصول . واهمل التوسع فى إنشاء معاهد المعلمين واعتمد على نقل مدرسى الإبتدائى إلى الثانوى ومعلمى الأولى إلى الإبتدائى ، وعين فى التعليم الأولى مدرسين من راسبى كفاءة التعليم الأولى . وكان بعض هؤلاء يعملون فى المدارس فى وظائف صغيرة .

وقد شنـع خصوم الوفد على طه حسين بأنه حول الفراشين إلى معلمين . ثم لما لم يجدوا معلمين دعوا إلى فصول ليلية لتعليم متوسطى التعليم أساليب التربية والتعليم فى أسابيع قليلة . ونشرت الصحف كثيراً من الإحصائيات التى تثبت عدم جدوى أسلوب طه حسين فقد أقيمت فى أحواش المدارس حجرات من طوبة واحدة وازدحم فيها الطلاب وارتفع عدد طلاب الفصول إرتفاعا حال دون قدرة المدرس على ضبط التلاميذ أو تعليمهم، وظهرت نتائج الإمتحانات فسجلت أرقاما سيئة : التوجيهية مثلا ٣٪ (١٩٥١/٩/١٩) وعدد التلاميذ نقص ٣٪ عن العام السابق ، والمدارس لم تزد مدرسة واحدة وقال طه حسين : خير لنا أن يجلس التلاميذ على الأرض . وأعلن فى خطبته الجامعة الحاجة إلى المال وإلى المعلمين ، وقال إن إعداد المعلمين يحتاج إلى معاهد (خطبته فى ١٩٥١/١٠/٦ الصحف)

رابعاً : سجل طه حسين استعان خلال العامين توليه منصبه بالمنبر والقلم والسينما لنشر آرائه التى كان يروج لهـا قبل توليه الوزارة وأشارت الصحف المعارضة (الأساس ٩٥١/٩/١٧) إلى أن طه حسين كان له تاريخ فى التحريض على الشيوعية تعرفه الرقابة وتعرفه وزارة الداخلية وتعرفه الصحف والمطابع التى كان يرسل إليها مقالاته وكتبه ، وقالت الأساس : قد كان مفهوما وقد أصبح طه حسين وزيراً أن يطوى فى صدره على الأقل نزعاته الهدامة وأن يقبل على

العمل الذى ندبه له حزبه وهو تعليم الناس ولكن ما أن جلس طه حسين على كرسى الوزارة وأفاق من نشوة الفرح حتى عاوده دائه القديم فإذا به يلقى خطبا تظهر الغيرة على الشعب وتبطن التحريض الآثم السكريه . وقد كتب حامد جوده تحت عنوان (أيها الدعوة السافرة إلى الشيوعية) مستشهداً بما قاله فى كتاب مستقبل الثقافه .

خامسا : كشفت قضية القذف التى أقامها على الأستاذ محمد صبيح مدير تحرير الأساس ان وزارة المعارف كانت قبل عهـــد الدكتور طه حسين لا تتعامل مع المؤلفين على أساس حزبيتهم ، وانها كانت فى عهود الوفد تختار لطه حسين كتبا من كتبه غير ان الدكتور طه فرض على لجان شراء كتب المكتبات التوقف عن شراء كتب الأستاذ العقاد .

وقالت جريدة الأساس ١٩٥٢/٥/٨ : قبل ربع قرن من الزمان وقف العقاد فى مجلس النواب يدافع عن طه حسين وسارت الأيام وإذا بطه حسين ينتقل من معسكرات الاحزاب حتى أصبح محاسبا ثم وزيرا للمعارف وإذا وزارة المعارف فى عهد طه حسين تغلق أبوابها دون كتب العقاد التى لم يمض عام منذ سنين طويله لم تقدم فيه وزارة المعارف من مؤلفات العقاد زاداً لطلابها ومكتبات مدارسها . (يراجع مقالات الاساس خلال عام ١٩٥١ بقلم الاستاذ محمد صبيح تحت عنوان (طه حسين بين عامين) وحول موقفه من الجامعة وهو وزير المعارف كتب الاستاذ نجيب البهبيتى تلميذ طه حسين القديم والاستاذ بالجامعه خطابا يكشف عن اسلوب عميد الأدب وزير الماء والهواء كما تقولون . قال (الاساس ١٩٥١/٦/٤)

انى أعرفه معرفة وثيقة منذ اثنين وعشرين عاما بلوت فيها حلوه ومره ، وعرفت قدره معرفة لم يحملها الى وهم ولا ايهام ، عرفت الرجل وعرفت مقدار علمه ان كان عالما ومقدار جامعيته ان زعم الناس انه جامعى ومقدار معرفته أو نكره انعام من أحسن اليه وعرفت مقدار ما كان يشرئب الى الشهره ويتحرق الى السلطان ومقدار ما كان يتعشق الثناء ومدى ما كان يفعل بنفسه تملكه خبرا عن عدو أو صديق .

ويوجه كلامه إلى الدكتور بشر فارس فيقول : لقد نبذت صداقته فى سبيل

استقلال الجامعه وعرفت اثرته وتهالكه على الاستعباد وكذلك لازلت عند حسن ظنك به انه «عالم» وهو غل أرجو ان أحلك منه فانت تتهمه بعلم اخترته كان أولى أن يسترشد به وما كنت أحب لك أن تذهب فى هذا مذهب المخدوعين من هؤلاء العامه الذين ياخذون علمهم عما تشيعه الصحافه فيهم ، وطه ياصديقى من القادرين جدا فى هذا ، فقد استطاع أن يحجر فى وقت ماعلى الصحف المصرية جميعا مناصرة له ومعارضة حتى انى مع ماجاهدت فى مستهل العام الماضى لم أستطع أن أتصل بالناس معارضا اتجاهه فى تحويل انتجاب العميد إلى تعيين وفى محاربه ماسماه مجلس الجامعات الأعلى ليرضى عن طريقه شهوة التحكم فى أشخاص الجامعيين قبل أن يرمى به إلى شىء آخر ، وفقت أحاربه فى ذلك لم أجد صحيفة واحدة تقبل نشر كلمة واحدة لى إلا هذه الصحيفة (الاساس) فهذا الرجل استطاع أن يستغل السياسة وقدرة خاصة منه على الاكثار من الكتابة حتى اشتهر لكثرة ما كتب فى السياسة وتقلب فى الاحزاب بانه العالم ، ونحن فى عصر ديمقراطيه الحكم ، يترجم الرجل فيه رواية فيعرف بين الناس بانه كيمائى عظيم ، ويكتب شعرا فيشتهر بين الناس بالطب مثلا وهكذا فلا غرابة أن يشتهر طه حسين بين كثرة الناس بانه عالم .

ولكن الغرابة فى أن يجرفك أنت على اعرف من نفاذ نظرك هذه الشهرة وأنت رجل بعد هذا قرأت دون ريب أثاره وعرفت أن كتابة فى الشعر الجاهلى قد استعاره ثم رده مفكر إلى أصحابه وانه لم يكن يساوى نقيرا فى معيار الابحاث العلمية ، وعرفت أن كتابه فى الأدب الجاهلى ليس الا تمطيطا لبعض ما قال فى الأول مخلوطا برغاء مملول يذهب فيه صاحبه اذ يحارب مدرسة المعلمين القديمة مذهبه فى مقالاته السياسية اما بقية ماكتب من قصص ونقد فليس يدخل فى دائرة العلم وهو فى الادب الخالص ، هذر مطول ولف ودوران لا تقبلهما النفس اليوم فى عصر استغلال الوقت بعد ان مضى عصر الحواديت على الدكك فى الحارات . أما اسطورة جامعتيه فاظنك الا تحققتها وتحققها كثيرون ممن كانوا يخدعون فى الرجل دفاعنا عنه عام ١٩٣١ ماكنا ندافع عنه الا دفاعا عن استقلال الجامعه وما كنت أظن يومئذ أنه كان يدافع عن سلطانه هو فى الجامعة الا بعد شهدته يحزم معه هذا الاستقلال الجامعى ويضمه تحت ابطه يوم خرج من الجامعه وخشى ان يحول

بين هذا الاستقلال و بين ان يطلق يده فيها ، فطه كان يحمى كل يوم استبداده الشخصى فان أستاذا ممن فوقه وان كان مدير الجامعه أو وزيرا فمن دونه وهكذا تدور الدائرة . ولما رأى من يدافع عن استقلال الجامعة كشر عن أنيابه وأنذر انه سيحبس عنها إعانة وزارة المعارف وغلا فراح يشتم الأمة التى آقامته من نفس هذا المقام ، وأحلته من دارها هذه المنزلة فوصف المصريين كلهم بالبطر .

ان البطر لا يكون الا بنعمة منعم ، فما هى النعمة التى أغدقتها على المصريين أهى المجانية وقد وعد بها الوفديون الأمة منذ مؤتمراتهم عام ١٩٣٠ جئت أنت فقررتها صدفة ، كما جئت إلى الوزارة صدفة . انى لأذكر فى حزن عميق ان هذا القول يقوله اليوم ذلك الرجل الذى كان يلتف فى الازهر بحصيرة وينام فى حجرته ويلبس طاقيته المبرقشه ، ويعيش على التعريفة إذا جاد بها عليه الشيخ أحمد أخوه الاكبر . هذا الرجل الذى ربته الدولة ورفعته إلى حيث يجلس اليوم قد تنكر لماضيه ونسى نفسه وخال طه القديم قد ذهب من ذاكرة الناس فلن يعود ، فتعالى واستكبر ، ان تكن نسيت هذا ياصديقى فان الناس لم ينسوه وان أصدقائك لن ينسوه » .

ثم عاد الدكتور نجيب البهبيتى فوجه خطابا مفتوحا إلى صديقه طه حسين بعد نشر مقاله الادل فأحاله الوزير إلى التحقيق : قال فى الاساس (١٩٥١/٦/١١)
إن طلبك احالتى على التحقيق لا يمنعك من الاعجاب ولا ريب عندى أنك الآن ترى مدرسة من غرس يدك تزهر ازهاراً تأتى بالخير ، قرأت حديثك ورأيتك فيه تتهافت ولا تتماسك ، ورأيتك تذهب إلى ارضاء العامة قبل الخاصة . ماأذعته فى الناس على أنه حديث لم يكن شيئا ، كان لغوا من لغو القول طابعه الأول : « المغالطة » وتعلم أن المغالطة باب من أبواب المنطق هدفه الأول : الكسب .

قلت : « وأحب شىء أليفا أن ننظر إلى الخطا وأحب أن تكون بعض الصحف المؤيدة معارضه لنا فنحن فى حاجة إلى النقد أكثرمما نحن فى حاجة إلى الثناء » أنت تغالط يا صديقى فليس يضيق صدر إنسان ، ضيق صدرك بالنقد ، وليس يهيج النقد انسانا قدر مايهيجك ، وبخاصة إذا خلت نفسك قادراً على العقوبة مبسوط اليد فى تحول الوعيد إلى إيذاء توقعه بناقدك ، وآية ذلك ياصديقى القديم

إنك طلبت توقيع الجزاء الزاجر على واجراء التحقيق معى لأن مقالى الماضى على تلطفه بك وحسن مداعبته لذكرياتك القديمة ، هذا المقال قد أوجعك وآلمك وهاج بنفسك وجدا ، والثانية : ياصديقى نتائج العام الحالى شئت أن تقول إنها خير منها فى أى عام ، لقد افترضت من غير شك ، أنك تخاطب جماعة من الأغبياء البلهاء وإذا كنت قد بلغت إلى أن تساوى مع هذا كله نتائجك هذا العام بنتائج العام الماضى فى فضل هذا النظام

ثم أشار إلى ما دعا اليه طه حسين من الغاء الامتحانات فى المدارس وإطلاق يد المدرس فى تلاميذه فقال : أيها الرجل اتق الله فى قومك فان اهدار حياة أجيال من أمة ترجو عمل كل فرد منها تثقل به الضمائر وتتهاوى له القلوب والاحلام . اقلع عن هذه الفكرة فانها خطرة خطرة شديدة الخطر » .

وهكذا نجد طه حسين وقد ألغى استقلال الجامعة الذى كان يدعو اليه وفرض إرادته عليها ، وفشل فى تحقيق حلم التعليم كالماء والهواء ، وغلبه هواه ، واندفع عن أغراضه ومطامع التغريبين من وراءه فقد ذهب إلى بريطانيا وأقر الرابطة بين الاستعمار والتعليم وحاول أن يوازن بين النفوذ الفرنسى فى التعليم وبين السلطان السياسى البريطانى الاستعمارى وسار بين الخطين فارضاهما على حساب البلاد ، وحصل من بريطانيا على نيشانات ودكتوراه ! وفى مصر وقف وقفته الخطيرة فى صف معاهد التبشير ومدارس الارساليات سواء الداخلية منها أو الخارجية على نحو وصف فيه بأنه يوالى عقائد وعهود وقد جرت اشاعات حول حملة أختامه وإثارهم فى رفع بعض شأن العاملين فى وزارة المعارف وخاصة أهليهم وقد أشارت الاساس إلى هذا فى عدد ١٩ / ٩ / ١٩٥١ عن قالت « لقد وصل الأمر بهؤلاء الصغار ان ظهرت حولهم اشاعات كثيرة مؤداها انهم كانوا يعبثون بخاتم الوزير ومن اشياء من هذا النوع رفعت اليه فضاق بها ولم يحسمها »

* * *

وفى لندن القى المستشرق هاملتون جب بحثا مطولا عن التعلم فى الشرق الأوسط (فى مؤتمر شئون الشرق الأوسط) تناول فيه مشكلة التعلم فى مصر واتجاهات طه حسين وقد وصفه بانه صديقه الخاص ووصف طريقته التعليمية بأنها

لاتقوم على أسس علمية صحيحة وأن تكن أقرب إلى فهم الجماهير . وقد تعرض المستشرق الكبير لسيل من الأسئلة والمناقشات الحارة حول رأيه في خطط طه حسين العلمية في نشر التعليم ولكنه أصر على نقده واصفاً طريقة وزير معارف مصر بأنها تهديم سياسي لاعمل علمي ، وبعد انتهاء المناقشات توجه المستشرق بالرجاء إلى مستمعيه بألا يخرج كلامه من القاعة لأن وزير المعارف صديقه الشخصي والمعروف ان الدكتور طه حسين من أشهر المعجبين بالمستشرق جب وأنه يؤمن بأبحاثه في العلوم الشرقية ، يقول الأستاذ عبد المنعم الصاوي في مقاله (جامعة لندن تتهم طه حسين بالتهريج مجلة روز اليوسف ١٩٥٢/٤/١٠ قد كان الإيمان بالرجل أحد الأسباب الهامة التي جعلت مكانته في الأوساط العلمية الشرقية ودفعت به لعضوية المجمع اللغوى وقد رد جب على هذه المجالات بأنه هو الذى رشح طه حسين لنيل الدكتوراه الفخرية من جامعة اكسفورد وجب هو أحد المستشارين المعروفين لوزارة الخارجية البريطانية في الشرقين الأوسط والأقصى .

ومما يذكر ان طه حسين سافر انجلترا في رحلة بدأها بزيارة أسبانيا وانجلترا (من أكتوبر إلى ديسمبر ١٩٥٠) وهذه هي التي أحرز فيها الدكتوراه الفخرية من اكسفورد ، وعندنا ان رأى (جب) ينبعث أساسا من معرفته ان أمانة طه حسين لفرنسا أكثر من أمانته لبريطانيا ولذلك فقد أكرموه في بريطانيا حتى يكسبوه إلى صفهم .

* * *

الفصل الثالث

فى الصحافة والسياسة الحزبية

كان اتصال طه حسين بالصحافة والسياسة والعمل مع حزب الأحرار الدستوريين أولا ثم مع حزب الاتحاد ثانيا ثم مع حزب الوفد بعد ذلك ، كل هذا بمثابة الاطار الخارجى لدعوته وعمله الذى كان يمارسه فى الجامعة وزارة المعارف والمظلة الواقية لآرائه التى أذاعها فى الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى ، وفى حديث الأربعاء ، وفى مستقبل الثقافة ، وهى آراء يتصل بالدين والأمة والحضارة واللغة والأخلاق والقيم والتاريخ واللغة وكلها تستهدف صهر آراء الاستشراق والتغريب فى بوتقة الفكر الاسلامى والثقافة العربية عن طريق فرضها على الشباب فى الجامعات والمعاهد والمدارس ثم عن طريق الصحافة والتأليف . ومن هنا نفهم أن صلة طه حسين بالصحافة السياسية انما كانت بمثابة الاحتماء بمؤسسة تدفع عنه الخطر ، وقد دافع عنه حزب الأحرار الدستوريين خطر كتاب الشعر الجاهلى ودافع عنه الوفد مخاطر آرائه كلها بعد ذلك . وكان يجد فى حماية هذا الحزب الشعبى الواسع النفوذ قوة يواجه بها خصومه ويمكن بها لنفسه تحت الدعوة إلى الحضارة والعلم والمدنية .

لقد اتصل طه حسين بحزب الأمة قبل سفره إلى أوربا وكان يتأرجح بينه وبين الحزب الوطنى ولكن ما إن هاجر الشيخ عبد العزيز جاويش عام ١٩١١ حتى استقر نهائيا فى أحضان الحزب الذى أنشأه كروس وحمل لطفى السيد لواء الدعوة فيه إلى قراءة الجامعة الاسلامية والعروبة والنظام الاسلامى والدفاع عن النظام الديمقراطى العربى وتعليم أبناء الأغنياء وقبول التفاهم مع الاحتلال البريطانى

والتعامل معه على النحو الذى كان يؤمن به زعماء الاقطاع الذين كونهم الاستعمار والذين تشكلوا بعد الحرب العالمية فى حزب الأحرار الدستوريين ولاءاً للإنجليز ومحاربة للحركة الوطنية وقد جمع الحزب دعاة الفكر الحر محمود عزمى ، على عبدالرازق ، طه حسين فكانوا ممن يحتقرون آمال الأمة فى الحرية والاستقلال وهم من دعاة التغريب واتباع الغزو الثقافى وقد حملت جريدة السياسة منذ صدورها فى أواخر عام ١٩٢٢ لواء هذه القضية إلى أن غير الدكتور هيكل اسلوبه عام ١٩٣٢ عندما الف كتاب حياة محمد وهنا وقع الخلاف بينه وبين طه حسين ولنستمع إلى البير برزان سكرتير طه حسين يتحدث عمل طه حسين فى هذه الفترة :

بدأت فى مصر حركة عنيفة عقب رجوع المغفور له سعد باشا من وربا أو كانت الشخصية البارزة على رأس هذه الحركة هى عدلى باشا وكنا فى سنة ٩٢٢ ولم يكن المقصود بهذه الحركة مناوأة سعد باشا كما زعم كثيرون ولا محاربة شخصه وإنما اختلاف الرأى على الطريقة التى يجب أن تتبع ، كان السبب فى إيجاد الحزب الجديد الذى سمى اذ ذاك حزب عدلى ، كما وان الحزب الأول كان يسمى حزب سعد و كثيرا ما كنا نسمع على أفواه البعض كلمة العدليين والسعديين . فحزب عدلى كان اذن فى بادىء تكوينه وكان يلزمه الاعضاء والاتباع كما كان يلزمه اللجان والفروع وجريدة . وكان مركز الحزب والجريدة بشارع المبتديان وقد خوطب الدكتور طه فى موضوع تحرير الجريدة وقبل العرض وبدأ العمل . رئيس تحرير الجريدة الأستاذ هيكل ولكن للحزب مبادىء معينة يجب التعبير والدفاع عنها وكان عامل الاتصال بين الحزب والجريدة الدكتور حافظ عفيفى . كان يجتمع برئيس التحرير والدكتور طه فينصرف كل منهم إلى مكتبه وتبدأ الكتابة فى الموضوع الذى تم الاتفاق عليه فكان عامل الاتصال يتلقى الوحى من زعماء الحزب الجديد وأقطابه ثم ينفخ هذا الوحى فى صدر كل من المحررين العظيمين أما الذى يتطلب مرونة ونعومة وهدوءاً فكان يعطى للدكتور هيكل فهذا مايلائم مزاجه ويتفق وقلمه ، والموضوع الذى تلزمه الشدة والعنف والتهكم فكان يطلب من الدكتور طه أن يكتب فيه . أكثر مقالات الدكتور طه كانت توجه إلى سعد باشا فكانت مقالات مكتوبة من نار عنوانها يكفى للدلالة على الشدة

والعنف اذكر منها : (طاغية) . (دجالون) . (الأقطاب واتصاف الأقطاب) و (الأبطال واتصاف الأبطال) .

أعيد الجملة الأولى فيسمعها ويعيد هو الثانية ثم حتى ينتهي المقال، ولكن لابد عنوان لهذه المقالة . وكثيرا ماكنت أسأله عما إذا كانت هذه المقالة أو تلك مكتوبة عقيدة أو لمجرد أداء عمل ، وكان بيننا نوع من المداعبة فكان يلفتني إلى أن هذا السؤال فيه كثير من الجرأة ومساس بشخصه ويجزبه وانه مهما كان الأمر فلا يقبل بأي حال أن يكتب كلمة واحدة لاتعبر عن رأي لم يكن مقتنعا به كل الاقتناع ، فيعجب بها كثيرون غير أن الوحي الذي كان يهبط على محرري هذه الجريدة لم يكن مصدره الحزب وحده ، بل كان ينزل على الدكتور طه وحي آخر من مصدر آخر في ظروف خاصة ، : اتصال الدكتور طه بالمغفور له عبدالخالق ثروت ؛ أيام كان رئيسا للوزارة ، فيتقابل الرجلان مقابلة لايشعر بها أحد وذلك في منزل ثروت باشا وفي ساعة يخلو فيها المنزل من الناس ثم يشير إلى بالجلوس في غرفة أنيقة فاخرة ثم يمضي مع الدكتور حيث لا أعلم ولم يمض على انتظاري أكثر من ساعة حتى يقبل الباشا ومعه الدكتور ونمضي لحظة ونحن في سكوت تام والدكتور غارق في تفكير عميق وعلى محياه علائم خاصة تدل على أنه متأثر ثم يفاجئني الدكتور بكلمات فيقول لي إن المقابلة كانت لمسألة خطيرة ولايريد . ثم يدخل جريدة السياسة وغرفته ، ويطلب إلى أن أقفل الباب ثم يبتديء بالكتابة دون مقابلة أحد مهما كان والكتابة في موضوع خطير جـــداً منه تلميح إلى مسائل سياسية دقيقة أو جهات عالية . اذكر ان ثروت كان في ذلك الوقت منهمكا في مسألة تصريح ٢٨ فبراير ، هذا التصريح الذي إتخذ بعد صدوره أساسا للسياسة الانجليزية في مصر .

وكانت كتاباته بعد ان تنشر يعجب بها كثيرون ويسخط بها كثيرون لما فيها من خطورة ولا يدري أحد من أين استقى الدكتور معلوماته التي نشرها ويظل هذا الأمر مــكتوما حتى على أقرب الناس اليه .

وقد دعاني الدكتور يوما لعمل لم آلفه من أعماله اليومية العادية من قبل فابتدأ على كلاما لاهو موضوع مقال ولاهو موضوع درس ، أملى على كلاما طويلا أوله الحركة الوطنية ومقدماتها وعقباتها وشخصياتها وماوصلت اليه إلى الوقت الحاضر الذي

كنا فيه (اكتوبر ١٩٢٢) فاعتقدت أنه يؤلف كتابا تاريخيا يتناول هذه الحركة ولكنه على غير مايجب أن يذكر المؤرخ فى كتاب تاريخ فالمؤرخ يجتهد أن يكون مع الحق والواقع ليس غير، محايدا كما يقولون ولكن كتاب الدكتور طه فيه مطاعن على بعض الأعمال والأشخاص فى مصر ففكرت أن يكون هذا العمل مذكرات يحفظها الدكتور للمستقبل حتى يأتى أوان تحرير هذا الكتاب المرغوب وربما كان الجيل غير جيلنا، استمر هذا العمل يوما كاملا وبعض يوم، وملأنا صفحات لاتقل عن ثلاثين من الحجم الكبير وكان أسلوب الكتابة من غير المألوف عند الدكتور طه وهو أسلوب أقرب إلى أسلوب الخطابة منه إلى أسلوب المقالات، ومما زاد فى حيرتى ان الدكتور طلب إلى أن أقوم بنسخ هذا الكتاب على ورق جيد وخط واضح ففعلت ثم أخذ منى الأصل والمنسوخ على غير عادته وانتهى هذا العمل عند هذا الحد ولم يكن يمضى أسبوع واحد على هذه المسألة حتى أعلن حزب الأحرار الدستوريين عن اجتماع جديد يخطب فيه محمد محمود باشا وسمعت الموجودين يقول إن الخطبة ستكون هامة فيها من الفضائح السياسية ماتصفر له وجوه وتشرق وجوه أخرى وسمعت أن دولة الخطيب سينبىء السابقين بخفايا السياسة مما يحدث أزمة تهتز لها مصر وسمعت كثيرا من هذا الكلام وفى الواقع قد لاحظت على الحاضرين اهتماما وأشدهم اهتماما هم شيوخ الأزهر فلما حانت الساعة الرابعة حتى أقبل الباشا فاعتلى منبر الخطابة فساد المكان سكون عميق. أما الخطبة فكانت فى نظر الدكتور طه وفى نظرى أحسن ماسمعنا من الخطب لأنها هى الخطبة التى (أملاها الدكتور على بالحرف) وماكنت أعرف مصيرها حتى سمعتها من فم دولة محمد باشا محمود» ا. هـ جريدة الانذار — ٢١ اكتوبر ١٩٣٤) ذلك هو طه حسين فى عهده الأول: تابعا للاحرار الدستوريين يتلقى عنهم الوحى ويكتب لهم الخطب احيانا. وقد أشارت الصحف إلى مدى أثار هذه العلاقة فى الأدب والفكر تقول جريدة الشعب ١ / ١١ / ١٩٣٢. ومما لاريب فيه ان الدكتور طه حسين هو أحسن ألسنة دولة محمد محمود باشا انما جاء ينال من شوقى بعد مماته وينسب إلى حافظ بعد مماته ما نسبه اليه ليشفى حقد الباشا على شوقى، لأن حافظ رحمه الله لم يستطع بعد أن وضع دولته تحت تصرفه وماله وما يملك ليهدم شوقى، فلم يشف حقد الباشا عليه ولم يطفىء غليله؛ ولكن هل يستطيع طه حسين

أن يؤدى المهمة التى عجز صاحبه حافظ بشهادته عليه ان يؤديها ، وهل فى مقدور هذا الرجل أن ينال من صخرة شوقى أكبر من أن يتحطم قرنه دون النيل منها » .



وفى هذه المرحلة كانت مهمة طه حسين شتم سعد زغلول والسخرية به كما ذكر سكرتيره الأول .

ضعاف : « سعد وأصحابه ضعاف يخافون الحق ويفزعون منه ويذعرون من النقد ويضطربون له ، ضعاف لا يستطيعون أن ينهضوا للحجة بالحجة ولا يستطيعون أن يقرعوا الدليل بالدليل .

بغاة : « واقسم لقد بغى سعد وأصحابه على اخوانهم فاسرفوا فى البغى واقسم لقد طغى سعد وأصحابه على اخوانهم فاسرفوا فى الطغيان ، واقسم لقد حق على مصرى أن ينهض لهذه الطائفة الباغية الطاغية فيردها إلى طورها وينزلها منزلتها .

ثم ترك جريدة السياسة وحزب الأحرار إلى جريدة حزب الاتحاد ، هذا الحزب الذى انشأه الملك فؤاد وفى العدد الأول من جريدة الاتحاد لسان حال حزب الاتحاد (١١ يناير ١٩١٥) يقول طه حسين : مساكين سعد وأصحابه لأنهم يدورون فى دائرة عرفها النـــاس وأصبحوا لا يخفى عليهم من أمرها شىء . مساكين لأنهم لا يعرضون لفن من فنون الحيلة ألا سمعوا النـاس يصيحون بهم من كل وجه : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . وأمر سعد لا يقف عند هــذا الحد فهو ذليـل ولـكنه متكبر هو يلجا إلى العرش ولـكنه يناهض العرش ، هو يستوفد الناس من الأقاليم لا ليذهبوا إلى القصر بل إلى داره هو . ان أمر سعد لمنكر وان فيـه لاسراراً ودخائل يسوء سعد أن تـكشف . وفى مقـال آخر : نعم يلعب بكل شىء . يلعب بآرائه وعقائده ، يلعب بانصاره وسامعيه . يلعب بنفسه أيضاً ، يـكفى أن تقرأ هــذا الـكلام الذى يلقيه سعد على الناس كل يوم وتنشره صحفه فترى ان الرجل فارغ البال يلعب بالناس وبنفسه وآرائه .

وعرض لمصطفى النحاس الذى أسلم نفسه إليه من بعد أن أصبح رئيسا للوفد يقول عنه فى ٢ مارس ١٩٢٥ « لمصطفى النحاس باشا نوعاً من الفهم وضرباً من السيرة لا تستطيع أن تفهم كيف يمكن أن يضاف إلى رجل كان قاضياً ووزيراً وهو الآن محام وهو من الذين يشتغلون بالسياسة والسياسة العليا .

ثم لم يلبث طـه حسين أن ترك حزب الاتحاد وعاد إلى الأحرار الدستوريين فأقام معهم حتى تركهم بعد ذلك إلى الوفد ففى صدر كوكب الشرق فى ٨ مارس ١٩٣٣ كتب حافظ عوض مقاله (طه حسين : المامة صديق عليم) قال : حـدث سياسى حقا قمين بأن نحفل له أيما حفل وخليق بأن نؤمن به لجد خطورته وبليغ أثره فى الصحافة المصرية وذلك أن طه حسين يشترك بقلمه الفياض وإيمـانه الفياض وعقله الفياض فى الصحافة المصرية ، فى السياسة المصرية ، فى الأزمـة المصرية الحالية » .

كتب هـذا وأكثر منه حافظ عوض فى جريدة كوكب الشرق الذى حمل وحملت على طه حسين حملات قاسية ابان معركة الشعر الجاهلى (راجع كتابينا : المعارك الأدبية والصحافة السياسية فى مصر) وكتب طه حسين أول مقالاته فى ٩ مارس ١٩٣٣ تحت عنوان « عهد » قال :

وأى شىء يستطيع العاملون أن يقدموه إلى مصر فى هـذه الأيام التى قصت فيها الأجنحة وشدت فيهـا الألسنة فلا تقول إلا بحساب : ليس الوفد اسمـاً ولا لفظاً إنمـا الوفد قوة حقيقية قائمة يستطيع كل انسان ان ينظر إليها وان يمتحنها وأن يحقق فيها النظر ويلح عليها بالامتحان . الخ .

وقال رئيس الوفـد مصطفى النحاس فى تصريح له : انى لمغتبط باشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين فى تحرير كوكب الشرق على المبدأ الوفدى الذى دلت الحوادث على انه مبدأ الحق ودين الأمة الذى قامت عليه نهضتنا نحو غايتها السياسية فى الحرية والاستقلال . وقالت جريدة كوكب الشرق ان طـه حسين تحدث فى حفل اقيم له فى دار محمود بسيونى عضو الوفد ونقيب المحامين (الصحف ١٤ مارس ١٩٣٣) بمناسبة رئاسة تحرير كوكب الشرق عبر فيها عن

احساساته العميقة نحو الوفد المصرى والنحاس باشا وشعوره بالغبطة وتحدث فى بلاغة مؤثرة عن ما بثه الوفد والرئيس الجليل من عطف عليه منـــذ ترك الجامعة » .

ثم مالبث ان كتب مقاله المشهور عن سعد زغلول بعنوان: «عظيم» بعد ان نشر عام ١٩٢٣ أكثر من اربعين مقالا فى ذم هذا الرجل تحت عناوين مختلفة خلال فترة قيامه برئاسة الحكومة فى صحيفة السياسة وفى الاتحاد من مثل ما نقلت قال : رحم الله سعداً ، لقد أيقظ مصر ثم عاهدها على انه سيحول بينها وبين النوم عن الحق ولقد وفى لها بعهده حيا وهو يوفى لها بعهده ميتا ، ولقـد جعل نفسه وجعل أمتـه غضه للمستعمرين لا يبرأون منها إلا أن يعترفوا بالحق لأصحاب الحق ، ويؤمنوا بالاستقلال لهؤلاء الذين اقسموا وبروا ان لن يرضوا إلا بالاستقلال .

ولقـد واجه طه حسين بعد ذلك خلافاً فى الرأى مع الأحرار الدستورين وجريدة السياسة فى مسائل كثيرة وتحول فى موقفه فقال لهيكل رئيس تحرير السياسة وصديقه القديم : إذا لم تصمت فسأفشى أسرار الأحرار الدستورين .

وقالت الصحف أن طه حسين أمضى سنوات طويلة يشتم الوفـد ويقول انه يزدريه ويحتقره فاذا به يتحول وفدياً يشتم خصومه .

وقالت جريدة الشعب . سؤال لابد منه انه كان بين الدكتور طـه وصاحب الكوكب خلاف فى الرأى وخلاف فى المـذهب وكان كل يهزأ بصاحبه ويسخر منه حتى كان صاحب الكوكب امعانا فى هـذا وذاك لا يدعو الدكتور طه الذى يشير الآن بمناقبه إلا بالشيخ بقدونس والشيخ سلاطه ، وكان هذا لا يجـد فى فى السخرية أبلغ من اهماله واغفاله ، لأنه يرى نفسه أكبر من أن يتدلى إلى مجاراته فهل هوى الدكتور إلى تيارات الكوكب وصاحبه وطاب له ذلك الهوى ولذ له الانحدار أو نرى الكوكب صعد إلى حيث كان يرى الدكتور لنفسه ولرأيه ومذهبه .

وقال : لقد حارب الدكتور طه الوفد لما كان الوفد وفـداً واليوم يحارب

تحت لوائه بعد أن أصبح عصابة فهنيئاً له هذا الموقف (١٦٨، ٨ مارس ١٩٢٣).

وقالت جريدة الاتحاد: استقبل الدكتور طه عهده الوفدى الجديد بمقال فى جريدة كوكب الشرق عاهد فيه قراءه انه سيكون عند ظنهم فيه من الصراحة والجهر بالحق. ونحن نعاهد الدكتور طه على أننا لن نرى فيما يكتبه فى عهده الوفدى إلا أنه رجل موتور، يريد أن يشفى غيظه وينفث سموم أحقاده، إلا أنه طالب قوت يلتمسه فى الجامعة فاذا استعصى عليه فليطمع فى مناصرة أصحابه الدستوريين، فان لم يجد ذلك عندهم فلا بأس أن ينضم إلى صفوف خصومهم، ولا بأس أن يكون وفديا اسماً ولحماً ودماً وأن يكون ذنباً للنحاس باشا وتجاهده الكبير ولكن نسأل أنفسنا كيف يستطيع الدكتور أن يحلل اليوم ما حرمه بالأمس، وكيف يجعل الأبيض أسود، الحر الدستورى سابقاً، الوفدى الصميم فى الآونة الحاضرة، وزير المعارف الذى كبح جماح الدكتور طه ومنعه من البقاء فى الجامعة ليدعو إلى ما يسميه تجديداً وليشكك الناشئين فيما ذكره القرآن الكريم، ولا نطيل جدال الدكتور طه فى معنى الكرامة وتعريف حدودها وأوضاعها، ذلك أن للدكتور ماضياً يكرهنا أن نقف فى حديثه موقف الحيطة والحذر، وبحسبنا من هذا الماضى أن نذكره بأنه كان يتقاضى مرتبه من الجامعة وهو يقول انه مسلم يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ولكنه لم ير مما تأباه الكرامة أن يذيع بين طلبة الجامعة أن قصة إبراهيم وإسماعيل من القصص الموضوعة. تلك سور عملية من صور الكرامة. وثمة صورة أخرى لا علاقة بالجامعة ولا بالتعليم، وإنما علاقتها بالصحافة فقد كان الدكتور كاتباً من غلاة الأحرار الدستوريين ثم بدا له وجه النفع فى أن يكون كاتباً اتحادياً، وليس إلى هنا تنتهى كرامات الدكتور فهو على انه برغم التشيع للاحرار الدستوريين قد رضى أن ياجره الوفديون على ما بين الفريقين من خلاف بل يرضى أن يكتم الطعنة، كما صوبها إليه النحاس باشا فى خطابه ولم ير غضاضة فى أن يكون كاتبا على مبدأ الوفد فان صح أن للكرامة مراتب مختلفة فهل يقول لنا الدكتور طه أين موضع هذا كله من الكرامة (١١/٣/٩٢٣).

وقالت : تحت عنوان احساساته العميقة نحو الوفد ورئيسه : أى احساسات عميقة ، أهى التى جعلته يفنى الشطر الأكبر من حياته وهو يشنع على الوفـــد والوفديين أشنع الصفات وأبشع النعوت أم هى الاحساسات التى أملت عليه مقالات (كذابون . منافقون . افاكون . دجالون) ام هى الإحساسات العملية التى حملت سعد باشا على أن يجعل من فصله من الجامعة ووجوب محاكمته مسألة رئيسية لولا حكمة رشدى باشا وتدخله لأودت باتلاف ١٩٢٧ . إذا كان الدكتور لم يبصر شفاه سامعيه وهى تفتر عن ابتسامة السخرية عندما تكلم عن احساساته العميقة نحو الوفد ورئيسه الجليل فهل لم يدرك أن هؤلاء السامعين سخروا منه وهزءوا به وتسآلوا : ما هذه الكرامة المنتحرة » .

وتحدث الدكتور محمد غلاب فى مجلة النهضة الفكرية (١٥ مايو ١٩٣) عن تلون الدكتور طه السياسى وتقلبه بين الأحزاب المصرية من حر دستورى إلى اتحادى ثم عودة إلى الدستوريين ثم قفزة إلى الوفديين : ان ماضيك يا دكتور أشبه شىء بشعور غوانى باريس التى تعطيه السيدة فى كل يوم لون الفستان الذى تلبسه . أقول : لو أن الشبان الناشئين تأملوا فى كل هذا ورجعوا إلى ما كتبه الدكتور طه فى جريدة السياسة ، تشهيراً بسعد زغلول حين كان الدكتور دستورياً وما طعن به عليه ورفع به من قدر صدقى باشا فى جريدة الاتحاد حين كان الدكتور اتحادياً وما يكتبه اليوم فى جريدة الكوكب بعد أن أصبح وفدياً ، لو تأمل الشبان فى كل هذا لقذفوا بالصحف على الأرض وداسوها بأقدام ثائرة مهتاجة غيورة على الشرف والنزاهة » .

ولم يلبث طه حسين فى عهده الوفدى أن كشف عن آهوائه وأهدافه فكان موقفه المؤسف من مقاومة حركة التبشير التى قامت بهـــا الارساليات التعليمية الأجنبية فى مصر وتوجهت همة الصحف وجريدة السياسة فى مقـدمتها إلى الحملة المتوالية على هــذا الاتجاه الخطير أما طه حسين فقد صمت صمتاً تاماً ، وانتهز فرصة حادث فتاة تدعى نظلة غنيم فقال كلمته المسمومة : من المحقق ان الاسلام لن يضعف إذا خرجت منه نظلة غنيم وأن المسيحية لن تقوى إذا دخلت فيهـا نظلة غنيم » .

ومن هنا نجد ان طه حسين كان يتخذ من الأحزاب أوعية ووسائل ومظلات واقية لإذاعة آرائه وأفكاره محميا من ضربات القوى المتيقظة لسمومه . ولقد ارتبطت مرحلة الوفد السياسية فى حياة طه حسين الفكرية بالكتابة عن الإسلام من خلال هامش السيرة . ولكن ماذا كان هدفه ، لقد كان يرى حركة اليقظة الإسلاميه التى تتحدث عن تطبيق الشريعة الإسلامية وان الإسلام دين ودولة فكان يعمل على أن يبث فى الناس ان الانسان دين روحى فقط . وهكذا اتخذ من حائط الوفد حماية للعودة بقوة إلى الحديث عن الإسلام بعد أن قطع عنها بعد الشعر الجاهلى متهما بأنه أحد خصوم الإسلام . ولا شك أن التحول إلى الوفد وكتابه هامش السيرة انما كانا بمثابة خطوة جديدة لكسب ثقة الأزهر والمسلمين وذلك ليتحقق عن طريقه أمر خطير .

ولم تكد تمر أيام حتى تحدث طه حسين عما كان يسره أو يكتبه فى خارج مصر ، تحدث فى أسف عن أن الدستور المصرى به مادة عن أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام تحدث عنها فى اشمئزاز عجيب قال فى كوكب الشرق ١٢ اغسطس ١٩٣٣ « لم أكن فى اللجنة التى وضعت الدستور القديم ولم أكن بين الذين وضعوا الدستور الجديد ولم يستشرنى أولئك وهؤلاء فى هذا النص الذى اشتمل عليه الدستوران جميعاً والذى يعلن أن للدولة المصرية دينا رسميا هو الإسلام ولو قد استشارنى أولئك أو هؤلاء لطلبت إليهم أن يتدبروا وأن يتفكروا قبل أن يضعوا هذا النص فى الدستور » .

(٢)

وحين نقارن بين موقف حافظ عوض فى نفس الصحيفة كوكب الشرق بين عام ١٩٣٣ وبين عام ١٩٢٦ لندهش ، هذا حافظ عوض يقول عن طه حسين :

ما هو عذر الشيخ طه حسين الذى يقول انه مؤمن بالله واليوم وان الإسلام دينه فى الثورة التى يحاول اضرام نارها ضد التعليم الدينى فى بلد نص الدستور

ان دين حكومته الإسلام ، هل مجرد اعترافه بالله والرسول واليوم الآخر ، عاصم له من الاشتباه فى مقاصده كلما هب لمحاربة دين الله . إذا شئت أن تعرف إلى أى مدى اسرف الشيخ طه حسين فى الحملة على الدين ورجاله فاعلم انه وصف الشيوخ جميعاً بلا استثناء بالجمود وحث على إستئصال هذا الجمود ووقاية الأجيال الحاضرة والمقبلة من شره ، ثم يريدنا الشيخ طه بعد هذا كله أن نعتقد انه متدين وانه مسلم ولو كان الشيخ طه حسين مسلماً حقاً كما يدعى لما سوغ لنفسه أن يقول بأن الدين عقبة كأداء فى طريق العلم وليس بدعا أن نرى هذا الشيخ يستأنف الحملة على الدين ورجاله بعد أن شن على الدين الغارة فى كتابه فى الشعر الجاهلى » (كوكب الشرق ١٩ يوليو ١٩٢٦) .

* * *

أما موقف طه حسين من سعد زغلول فقد كان طه حسين مديناً لسعد زغلول قبل سفره إلى باريس « ديناً مادياً » وقد أشار إلى ذلك فى مذكراته وأنه ذهب ليقابله عندما وصل إليها ليسدد دينه ، ومع ذلك فقد حمل عليه تلك الحملات القاسية ، ثم عاد فاعترف بعظمته بعد أن أصبح من أنصار الوفد .

وقد عاش طه حسين حياته كلها هكذا ينتقل من رأى إلى رأى ، وعندما دخل إلى الوفد ، كان العقاد من كبار كتابه فأراد أن يسترضيه فأهدى إليه امارة الشعر ، بعد أن كان قد أهداها مرة إلى الزهاوى فى بغداد ، ثم أعادها بعد ذلك إلى مطران ثم عاد طه حسين فاعلن انه لم يهد امارة الشعر إلى العقاد (راجع كتابنا المعارك الأدبية) .

وعندما اتجه طه حسين إلى الوفد لم يلبث ان هاجم جريدة السياسة وحزب الأحرار الدستوريين فكتب فى ١٥ مايو ١٩٣٣ يقول : كان المعقول أن تسلك السياسة مسلك الأهرام فتعرف للوفد بلاءه « وتؤكد كما أكدت الأهرام ان الوفد لم يكن يستطيع بحال من الأحوال أن ينزل عندما يريد الانجليز . اما الا يكون الوفد قد كسب هذه الأشياء فمن الحق على السياسة أن تبين ذلك للوفد من غير غضب

ولا سخط ، الا توافقني السياسة على انها تبحث عن خصومة فى غير ابانها وتلتمس خلافا لم يؤن له الوقت بعد ، الا توافقني السياسة على أن الخير فى أن تنتظر حتى يكون لهذه الخصومة معنى وحتى يكون من ورائها نفعاً للامة أو لبعض الأحزاب على أقل تقدير .

ثم كتب يوم ١٦ مايو ١٩٣٣ فاتهم السياسة بالتواء طرق التفكير فيها واساءة الظن بعقول قراءها قال : إذا التوت على الناس طرق التفكير واضطرب من حولهم الجو فهم يغالطون ويتورطون فى السفسطة ويزعمون كما زعمت زميلتنا السياسة أمس، تقول زميلتنا السياسة هذا الكلام ، انها لتسيء الظن بعقول قرائها فتسرف ولكننا نؤكد انها لم تسيء ظناً ولم تعتمد مكراً وانما التوت عليها طرق التفكير واضطرب من حولها الجو فقالت هذا الكلام .

وقالت السياسة ١٩٣٣/٦/٧ : نود قبل أن نناقش مقال صديقنا طه الأخير أن نذكر له صراحة أن السياسة لم تغير موقفها منه وانها لا تزال تعتقد أن مكانه الصحيح هو فى الجامعة وفى كلية الآداب وانها لم تغير رأيها فى تصرف وزير المعارف حين نقله من الجامعة . ومن تصرف الوزارة حين أقصته عن خدمة الدولة . وان كنا نعتقد انه اخطأ حين طلب إلى الناس أن يغضوا النظر عما تكتب الجرائد التى تنال من كرامات الناس ومن أعراضهم . وكنا نخشى أن يفسد هذا الخطأ تقدير تلاميذه الذين يحبونه ويقدرونه فنحن نعلم انه خطأ جر إليه الجدل الصحفى ولولا هذا الجدل ما تورط فيه وآية ذلك انه قرر أمس انه لا يدافع عن هذه الصحف الهازلة ، وانه نزل أمس عن رأيه فى أن تنشىء الهيئات السياسية صحفاً مثلها تجادلها بمثل أسلوبها فلم يتمسك به وهذا وذاك ما نحمده له » .

تقول جريدة الشعب : يرى الدكتور طه ان الشكوى من الصحف الماجنة إذا أساءت إلى الكرامة أو انتهكت الحرية فهو دليل ضيق الصدر ، وهى كذلك من ذا الذى لا يضيق صدره بالاعتداء على كرامته وانتهاك حرمته ، لقد زعم الدكتور طه بعد ذلك ان الصحف الماجنة قد نالته كثيراً بالأذى ومع ذلك لم يهتك لها

ستراً ولم يستعد عليها القضاء ولم يشكها إلى السلطان حتى واجهه الأستاذ هيكل بانه رفع دعواه على الأستاذ عبد القادر حمزة والأستاذ عبد الله حبيب ومعنى هذا أن الدكتور طه إذا دعا إلى الإباحية لم يتورع فى تدعيم دعوته بالاختلاق والافتراء وانكار ما وقع منه وما جرى له . فالواقع ان الدكتور طه قد أقام الدليل بهذا الرأى الآفن على أن وزارة المعارف كانت على حق إذ أبعدته عن الجامعة وإذ وقت عقائد الطلاب وأخلاقهم من شره فقد أثبت انه ليس حرب على الدين فقط وانما هو حرب على الخلق . (١٩٣٣/٦/٢)

وقالت : الحق ان غلبة الدكتور هيكل على الدكتور طه فى المناقشة قد أثارت فى نفوسنا عوامل الرثاء له ، فقد كان دستوريا قبل هذه المناقشة فانكشف ستره . كان الناس يظنون حين يقرأونه ان فى القبة شيخاً أو حتى على الأقل دكتوراً حتى قرءوا الحوار الذى دار بينه وبين الأستاذ هيكل فارتدوا عن القبة معرضين إذ لا شيخ فيها حتى ولا دكتور . وكيف . جرت المناقشة الدكتور طه إلى الاستدلال بآيات القرآن الكريم فى معرض الرد على ما قاله الأستاذ هيكل من وجوب الغضب مما تكتب الصحف الماجنة اعتداءاً على الكرامات وهتكا للحرمات ومع ان الدكتور طه كان الشيخ طه قبل ذلك فلم يوفق فى استدلاله بهذه الآيات لا فى تاييد دعواه ولا فى الدفاع عن صحفه الماجنة التى أساء إليها فى دفاعه عنها أكثر من خصومها . ونشهد هنا ان الأستاد هيكل كان فى مناقشته اياه من الناحية الدينية التى لم ينشأ فيها نشأة الدكتور ولم يدرسها دراسته نشهد انه كان فى مناقشته من هذه الناحية كالسيل العرم طغى عليه ولطالما كان للشيخ طه أو للدكتور طه اعتداد بنفسه فى هذه الناحية اعتداداً أساء به إلى الدين وإلى رجاله فى غير موقف واحد » ا . هـ

وملخص القضية ان للوفد صحفاً هزلية تحاول أن تسيء إلى رجال الحزب الآخر وطه يطلب منهم أن يقبلوا نقدها وسخرياتها دون أن يردوها إلى الحق أو يشكوها إلى النيابة ويعلل ذلك تعليلا يكشف عن دعوته وهدفه فى دعم هـذا اللون من الصحافة المازلة ، بينما يرى هيكل ان هـذا النوع من الصحافة جناية على الأخلاق لأنها تتناول حياة الناس الخاصة فى منازلهم وبين أهليهم .

ويقول : ما كنت لارضى لصديقنا الدكتور طه ان يكون المدافع عن الصحف الهزلية وما تبثه فيا يفسد الأخلاق لغير شيء لأن هذه الصحف تدافع عن سياسة الوفد التى يدافع هو عنها . وأشار هيكل إلى أن طه عندما انتقدته هذه الصحف الوفدية وهو فى الجانب الآخر أقام عليها القيامة وتقدم ببلاغ عنها إلى النيابة فاستعدى عليها القضاء .

ومما قاله طه حسين : ان هناك حديثا عن الأحرار الدستوريين وانه يكره تفصيل هذا الحديث إلا إذا أبى هيكل أن يفصله .

وقال هيكل : ان الأحرار الدستوريين ليس فى ماضيهم سر يخافون اذاعته من صديق أو من خصم فليفعل طه ماشاء فان أشد مايكره الأحرار الدستوريون هذه الثورية التى تفهم الناس ان فى الأمر شيئاً فاذا كان فى علم صديقنا طه شيء فلا يسكت عن اذاعته فانا نبيح له كل شيء دون أن يستاذننا فيه وأكبر اعتقادنا ان صديقنا يظن انه يعلم شيئا فإذا هو أراد أن يكتبه فتش عنه فلم يجد شيئا .

(دارت هذه المعركة على صفحات كوكب الشرق السياسية خلال شهرى مايو ويونيه ١٩٣٣) .

وهى مع الأسف تشهد للدكتور طه بما لا يتفق مع أى كرامة وان كانت تتفق مع الاتجاه الذى ينتظم هذا البحث كله .

وخير ما قيل فى هذا ما قاله محرر الاتحاد : ان الشيخ طه رجل موتور لوزارة المعارف وقد ركب ظهر الوفد ورجاله للانتقام والتشفى من الوزارة التى أبعدته عن الجامعة احتفاظا بسلامة عقائد طلابها من الآراء التى قد تزعزعها ولم تفتر الوزارة على صاحب الأدب الجاهلى الذى أنكر أصلا من أصول الدين ووصف قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأنها أسطورة بل نقلته إلى ديوانها . كان بطل هذه الرواية السياسية حزب الأحرار الدستوريين الذين نصر الشيخ طه حسين اثنى عشر عاما واتخذ منه عضداً وسنداً يلجأ إليه كلما حزبه أمر أو ضاقت به فرجه ، غير انه يبدو لنا أن الشيخ طه لم يجد عند الأحرار بعض ما وفى لهم به فوجد عند الوفديين ما لم يجده عند الأحرار الدستوريين

وحمل على نفسه واركبها هذا المركب الخشن لأن الشيخ طه حسين لا يؤمن بالوفد ولايرى للوفديين مبدأ ايصح الايمان به» (الاتحاد ١٨ مارس ١٩٣٣) .

ولقد حمل طه حسين على شوقى بك حتى انه فى رثائه لحافظ وفى آخر قصائده كان يقصد طه حسين حين يقول :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى
يا منصف الموتى من الأحياء
وودت لو انى فداك من الردى
والكاذبون المرجفون فدائى
الناطقون عن الضغينة والهوى
والموغرو الموتى من الأحياء
من كل هدام ويبنى مجده
بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطموك وإنما بك حطموا
من ذا يحطم رفرف الجوزاء

والضمير هنا فى (الكاذبون والمرجفون والهدام الذى يبنى مجده) عائد إلى طه حسين .

* * *

(٣)

طه حسين والملك

أما موقف طه حسين من الملك : سواءاً كان فؤاداً أم فاروقا فهو موقف الخضوع والعبودية الذليلة : أما فؤاد فهذه هي صورته (مارس ١٩٢٥) .

١ — ان مثال صاحب الجلالة قد طبع فى نفوس رعيته جميعا فليس يخلو منه إلا قلب مريض أو نفس مقفلة ، ولا عجب ولا غرابة فالمصريون مدينون له ولأبيه إسماعيل ولجده العظيم محمد على . انهم مدينون لهؤلاء العظماء حتى ما يملأ نفوسهم من أمل فى الاستقلال التام وحتى بما يدفعهم إلى السعى فى تحقيق هذا الاستقلال التام ، على أن جلالته قد سار سيرة أبويه فلم يقصر همه على المسألة المصرية وإنما رأى أن الحياة الداخلية والخارجية للامة إنما هما وجهان لشىء واحد فى حياة الأمة فسعى إلى اصلاح الأمرين جميعا .

٢ — ولكن صاحب الجلالة الملك فؤاد لم ينس الجامعة المصرية التى انشأها لحظة ولم يعرض عنها حينا وكيف ينساها وهى ابنته وكيف يعرض عنها وهى غرس يده . (الاتحاد ٢٧ مارس ١٩٢٥)

أما فاروق فهذه صورته :

أقبلت على مصر فأقبلت عليها الدنيا ونهضت بملكها فتمت لها عزته ودبرت أمرها فانجلت عنها الغمرات وانجابت عنها الخطوب ، لله أنتم آل البيت العلوى الكريم ، ما أعظم فضلكم على الحياة العقلية فى مصر ، لقد بعثتموها قوية نشيطة فجدكم العظيم يزكيها ثم هذا إسماعيل العظيم ينشر التعليم العام الذى قصد به إلى المعرفة الخالصة ، وهذا فؤاد العظيم ينشىء جامعته فى القاهرة إلى ما انشأ من معاهد العلم والثقافة ، وهذا فاروق العظيم ينشىء جامعته فى الاسكندرية .

وها انت يا مولاى قد أقبلت فبعثت فيها من قوتك قوة ومن جلالك جلالا ورفعت ذكرها فى أفاق الشرق والغرب فكيف السبيل لها أن تنهض بشكرك وأين الوسيلة لها أن تؤدى بعض حقك (فبراير ١٩٤٣) .

٣ — فالمصريون يجمعون على حب مليكهم لأنهم يرون فيه صورة بارعة لمصرهم الخالدة ورمزاً كريما لوطنهم العظيم وهم يرون فى شخصه العظيم واسمه الكريم أمنية صدقت وأملا تحقق . كان والده العظيم رحمه الله قد صور امنية الشعب وعبر عن آماله حين سماه الفاروق فكانت هذه التسمية دعاء لله أن يمن على مصر بحريتها وعزتها ، والمصريون يجمعون على حب مليكهم لأنهم يجدون فى شبابه النضر بهجة طالما نازعتهم إليها نفوسهم وزينة حالما هامت بها قلوبهم .

* * *

ثم سقطت الملكية وتحدثت محكمة الثورة عن العهد القديم وجاء ذكر طه حسين وحاول طه حسين أن يدافع عن نفسه فماذا قال :

أى المصريين يجهل انى كنت وزيراً للمعارف فى يوم من الأيام وانى خطبت أمام فاروق فى مواطن لم يكن بد من أن أخطب فيها ، والناس جميعاً يعلمون أن الوزراء ما كانوا ليخطبوا أمام فاروق فينقصوه ويذموه ويدلوه على ما كان يتورط فيه من طغيان وما كان يقترف من آثام وانما جرت عادة الوزراء حين يتحدثون إلى الملوك بشىء غير هذا . من الذى يستطيع أن ينكر انى تصورت الملك كما ينبغى أن يكون وقلت فيه ما كان ينبغى ان يقال فلم يتجه من كلامى إلى فاروق فى قليل أو كثير وإنما اتجه كلامى إلى هـــذا الملك الذى صورته لنفسى وللناس » .

وهكذا راوغ طه حسين ربيب نعم فؤاد وفاروق والمقبل يديهما ، والمتذلل لهما ، ثم يدعى انه كان خصما لهما فأين هذه الخصومة فيما ترك من اثار ، ان لدينا عشرات المقالات فى التحريض على سعد زغلول لأنه يطالب بأن يكون ملكا وانه

يتقدم الوفود لتخطب له ، فى أسلوب عجيب من الانتقاص والايقاع بين الملك ورئيس الوفد .

وأنكر طه حسين ما شهد به شاهد أمام محكمة الثورة من أنه قبل يد الملك مع غيره من الوزراء وحاول أن يصور نفسه فى صورة المعادى للملك والمخالف له. وأشار إلى فصول كتبها فى الهلال مبهمة وصفت بانها موجهة إلى الملك . ونحن نعرف مما مر أن فاروق كان يعتقد أن طه حسين صنيعة جهات أجنبية و يظن انها الشيوعية ، ومن هنا كان موقفه منه وكلامه إليه يوم قدم وزيراً ومن قبل وان ما جرى له من اخراج من وزارة المعارف يوم خرجت حكومة الوفد عام ١٩٤٤ كان طبيعياً ولم يكن خاصاً به ولكنه كان عاماً بالنسبة لكل المتصلين بالوفد فى المناصب الكبرى وهكذا كانت تفعل الحكومات الحزبية .

* * *

الفصل الرابع

فى المجمع والجامعة العربية

فى السنوات التالية لعمل طه حسين فى وزارة المعارف اشترك فى مؤسستين كبيرتين هما مجمع اللغة واللجنه الثقافية بالجامعة العربية . أما المجمع فقد أنشىء منذ عام ١٩٣٤ ولم يقبل طه حسين بين أعضائه فكانت حملته عليه عنيفة حيث كتب فى ذلك الوقت يهاجه أبشع هجوم ويحاور فى أنه لايصلح لشىء ولا حاجة اليه ، فلما أصبح عضوا فيه ثم رئيسا له بعد وفاة لطفى السيد تغير ذلك كله إلى تقدير كامل لأعمال المجمع وأهميته . ففى ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ يقول :

والمجمع اللغوى ويا بؤس للمجمع اللغوى ويا بؤس للناس من المجمع اللغوى ويا خزى مصر من المجمع اللغوى . سل المستشرقين عن رأيهم فيه وعن احترامهم له وعن إيمانهم بنفعه فتسمع منهم مايسوء : (دائماً المستشرقين)

ويهاجم المجمع فى جريدة كوكب الشرق ٣ / ٩ / ١٩٣٤ :

لقد أراد حلمى عيسى باشا أن يتظاهر بالاجداء على النهضة الثقافية فى البلاد فلم يكد يجد فى الصحافة الأصوات منادية بوجوب إنشاء مجمع لغوى حتى راح يستمع فيه إلى الحزبية السياسية فرشح لهذا المجمع عدداً كبيرا من المؤيدين للوزارة أو مديريها أو المشتغلين حتى كادت الفكرة تستحيل بذلك إلى شبه لجنة حكومية لم تنظر فى تعيين أعضائها إلى سائر الاعتبارات الجوهرية من سعة

الإطلاع وامتلاك ناصية اللغة واحتفال التاريخ العلمي للعضو فيه بالمآثر والإحسان إلى النهضة الثقافية » .

وقد دارت مناقشات واسعة بينه وبين منصور فهمي عام ١٩٣٧ حول مهمة المجامع اللغوية تجدها في كتابنا (المعارك الأدبية) وفي هذه المساجلات يقول الدكتور طه حسين :

هون عليك أيها الصديق فالأمر أيسر من هذا كله فقد عاشت مصر من غير المجمع اللغوي فلم تجدب أرضها الخصبة ولم تغش سماؤها الباسمة ولم يبخل نيلها الجواد الكريم وقد أنشيء المجمع اللغوي في مصر فلم تزد أرضها خصبا ولا سمائها ابتساما ولا نيلها كرما وجودا وقد عاشت اللغة قبل المجمع وعاشت مع المجمع ولو قد ذهب المجمع مع الريح لما تعرضت اللغة لخطر ولا أدركها مكروه »

هذا المجمع هو الذي كان يتهالك عليه الدكتور طه أيامه الأخيرة وهو مريض ليحمل اليه حتى تنشر الصحف صورته ويخطب في الأعضاء ويؤكد نفوذه ، ويسافر إلى أوربا ستة شهور في العام ويقوم المجمع بأداء كل مطالب رئيسه المحبوب.

* * *

أما اللجنة الثقافية في الجامعة العربية فكانت مصدر نفوذ آخر استطاع طه حسين عن طريقها أن يجمع مالا عظيما لطبع كتب التراث ومندوبا عنها سافر إلى البلاد السعودية ووقف أمام الكعبة وتزعم الفكر وأصبح له نفوذ ثقافي في البلاد العربية.

ومنه قاد معركة ترجمة الآداب الأوربية إلى اللغة العربية وحاول أن يحصل على مبالغ لا حد لها وجهها كلها إلى ترجمة آثار شكسبير وكانت هذه الدعوة متفقة مع محاولاته السابقة وهدفه الأصيل فهو يريد أن ينقل إلى العربية كل آثار الفكر الغربي بغير انتقاء وبغير تحديد لموقفنا من هذا الفكر ما نقبل منه وما نرفض وكانت خطته هي النقل الكامل الواسع على طريقة الاغراق ، وتقول انه لم يكد يعود من أوربا حتى أخذ في اظهار

المواطنين على ألوان جديدة من المعرفة ما استطاع إلى ذاك سبيلا ، ونحن نعرف ان طه حسين لم يترجم إلا القصص بالفرنسية المكشوفة التي هاجها صديقه المازني، وترجم اثار اليونان ومسرحياتهم الإباحية الخطيرة .

ولابد ان مشروعه فى ترجمة شكسبير كان يهدف إلى غاية وكان له فى مخطط التغريب مكان ، وفى الصلة بالاستعمار البريطانى أثر . وعندما اعترض عليه المعترضون وطالبوا بترجمة العلم قال : من الحق كل الحق ان نزعم ان العلم وحده هو الذى يحيى الأمم ويقويها ، وعسى أن يكون خط الأدب فى حياة الأمم وقوتها مثل خط العلم ان لم يكن أعظم منه وأبعد مدى » . ودعا إلى ترجمة الثقافات الأجنبية مهما يكن مصدرها ومهما يكن وطنها ومهما يكن لونها وكان فى ذلك مطابق لدعوته إلى نقل الحضارة الغربية حلوها ومرها وما يحمد منها ومايعاب .

وقد أشار الباحثون ان اختيار شكسبير ليس اختياراً موفقا ، وذلك ان شكسبير له ستة عشر مسرحية مترجمة إلى العربية بالفعل ترجمها خليل مطران وعوض إبراهيم ، ولكن طه حسين يريد أن ينفق هذه المبالغ على أوليائه وحوارييه الذين وكل إليهم هذه الترجمات وأغدق عليهم ليجمعهم مرة أخرى فى خطة جديدة .

* * *

وقد أمضى طه حسين سنواته الأخيرة فى هذين العملين : مجمع اللغة واللجنه الثقافية .

وكان طه حسين قد أحيل إلى المعاش عام ١٩٤٨ ثم ولى الوزارة حتى أوائل عام ١٩٥٢ ، حيث اعتزل الخدمة الرسمية وان ظل متصلا بأكثر من عمل فى مقدمة ذلك عمله كمدير للثقافة بالجامعة العربية وعضواً ورئيسا للمجمع اللغوى ثم عضوا فى المجلس الأعلى للاداب والفنون .

فى هذه الفترة عمل طه حسين محرراً فى الصحف الأهرام والجمهورية والأخبار

وقد احتفل طه حسين بحركة الجيش وثورة ٢٣ يوليو احتفالا شديداً ظناً انذلك سيمكنه من متابعة عمله الذى أخلص له نفسه وانذلك ربما أتاح له العودة إلى مناصب الدولة الكبرى فيحقق عن طريقها مايرجو أن يحققه ، ولقد ضاق كثيراً حين اختير غيره وخاصة من كان معارضا لأسلوبه فى التعليم أمثال إسماعيل القبانى وغيره . وقد عمل فى الصحافة يحاول أن يتابع عمله ويحمى الخطوات التى حققها فى مجال التعليم والجامعة ويدافع عن أتباعه وأعوانه الذين يسيطرون على مجالات العمل . وقد تضمنت هذه الفترة كتابات عديدة فى مجالات مختلفة :

(أولا) مجال التعليم ومشاكل المدرسين والجامعة والمناهج وقد جعل هذه مهمة متصلة له يتابعها ويعلن وجهة نظره فيها .

(ثانيا) عمله فى مجمع اللغة العربية وكلمات استقبال الأعضاء الجدد وتأبين الأعضاء المتوفين .

(ثالثا) كتابات عن رحلاته إلى فرنسا وغيرها وما يتصل بالمؤتمرات التى اشترك فيها .

(رابعا) دعوته إلى ترجمة الآداب العالمية وقد اهتم بترجمة اثار شكسبير واستطاع أن يحصل على معونة كبيرة من أحد سراة البلاد العربية ووجهها لهذه الترجمة واستعان فيها بتلاميذه وحوارييه .

(خامسا) احتواء عدد كبير من شباب الكتاب وخاصة كتاب القصة وتقديمهم والإشادة باثارهم وتحديد العهد لتلاميذه وأصدقائه وخاصة من يتصل بالأدب اليونانى وتشجيع الدعوات الشعوبية وخاصة تشجيعه الشيخ محمود أبو ريه فى موقفه فى الحديث النبوى .

(سادسا) متابعة حملته على الأزهر الشريف وتأييد الشيخ عبد الحميد بخيت الذى حين دعا إلى الافطار فى رمضان وثارت عليه ثائرة علماء المسلمين، ثم كانت دعوته إلى إلغاء التعليم الأزهرى وتحويل الأزهر إلى جامعة أكاديمية للدراسات الإسلامية

وقد اطلق عليها (الخطوة الثانية) وكانت الخطوة الأولى هى إلغاء المحاكم الشرعية التى هلل لها كثيراً .

(سابعا) تابع دعوته المسمومة إلى اصلاح النحو ومشكلة الإعراب، وإلى اللغات الأجنبية ، وإلى التبادل الثقافى ، وشارك فى الحديث عن القومية والديمقراطية والعروبة والفرعونية وجدد آراءه فى احياء التراث العربى وفى هذه المرحلة كانت دعوته إلى كتابة اللغة العربية بالحروف الممدودة وقبل ان طه يتحدى سيبويه .

(ثامنا) تابع آرائه عن المرأة والأسرة وتحريضه للمرأة بالثورة على الرجال

(تاسعا) مناقشاته مع الماركسيين حول الأدب بين الصناعة والمضمون .

وقد ظهر فى هذه الفترة مجموعة جديدة من الحواريين الذين كانوا يتلقفون الكرة أمثال كامل الشناوى وأمينة السعيد وعبد الحميد يونس وموسى صبرى وسامى داود وكمال الملاخ .

* * *

الفصل الخامس

فى المحاضرات والمؤتمرات

حفلت حياة طه حسين بنشاط واسع خارج « الجامعة » « والصحافة » فى المحاضرات والمؤتمرات الدولية وكان منبر الجامعة الأمريكية فى القاهرة هو المجال الحيوى لآرائه ونشاطه وكانت مؤتمرات الاستشراق فى خارج مصر هى رحلته السنوية الدائمة وقد جرت الإشارة إلى الجمعيات التبشيرية الكبرى التى كانت تشرف على جمعية الشبان المسيحيين وقاعة أيورث وغيرها ودورها فى الثقافة .

وقد تراجعت الجامعة الأمريكية عام ١٩٣٢ فى افتتاح موسمها بعد ان اتهمت فى حركة التبشير ولكن الدكتور طه تقدم وأعلن أنه سيفتتح موسم المحاضرات : وقال إن شعب مصر ينسى اليوم ماذكره بالأمس . ولقد كان طه حسين يستغل هذه المحاضرات فى خططه وسياسته على نحو من الانحاء ـ تقول مجلة النهضة الفكرية إن طه حسين فى محاضرته فى الجامعة الأمريكية فى نوفمبر ١٩٣٢ ساق أسطورة الثعبان ذى الرؤوس التسعة فى معرض الحط من قدر سعد زغلول والاعلاء من شأن صدقى باشا حين كان الدكتور يخاصم الأول ويعاديه ويمكن الثانى ويتزلف اليه فشبه سعد بالثعبان ذى الرؤوس التسعة وشبه صدقى بهركيل البطل العظيم الذى قطع الرؤوس وأحرق مكانها بالنار حتى لا تنبت ثانية ثم دار الفلك دورته وتغيرت الأحوال وفصل طه من الجامعة وتبدل رأيه فى صدقى وتحسن رأيه فى سعد زغلول .

وهذه طائفة من أخبار محاضراته نحاول أن نصل بهـا إلى غاية واضحة من غاياته .

التاريخ : ٢ / ٣ / ١٩٣٩

المكان : قاعة مدرسة العائلة المقدسة للاباء اليسوعيين بالفجالة .

محاضرة الدكتور طه عن تكوين الصفوة المثقفة .

فقال : لست أعرف أن حياة لأمة متحضرة ، تستطيع أن تستقيم فى شأن من شئونها بغير التعليم ، أريد أن أتحدث عن تكوين فئة مثقفة تستطيع أن تفهم . الحياة وتقدر مصاعبها كيف السبيل إلى تكوين هذه الصفوة المثقفة ليس من المهم للمثقف أن يكون قد أتم مراحل التعليم أو أن يبرع فى فنه وإنما الرجل المثقف الذى يستحق هذا الوصف هو الذى يستطيع أن يفهم ما يعرض له ولمواطنيه من مشكلات . أن الصفوة المثقفة موجودة عندنا بالقرة فلأجل أن توجد بالفعل يجب أن توضع بحيث تتصل الثقافات المتحضرة اتصالا مباشرا ، ومعنى هذا أنى أكره أن يحكم على العقل المصرى أن يظل واقفاً على العربية وحدها أو يجاوزها إلى الإنجليزية أو الفرنسية فحسب لابد أن تفتح أبواب الثقافة عندنا على مصراعيها وإن تدخلها الثقافات كالهواء الطلق وبهذا نستطيع أن نكون العقل الحر القادر فاما أن نقتصر على ثقافة أو يقتر علينا فى الثقافة فلا تدخلها العناصر الأجنبية إلا بمقدار فهذا هو الشر الذى لا يتفق مع كرامتنا . هناك أشياء لا بد منها لتكوين المثقف الممتاز أهمها أن : فتح الأبواب للثقافات الأجنبية لتمتزج بثقافتنا والعناية بجعل اللغة العربية لغة مصرية ومادة لحديث الشباب وأذواقهم .

هذا هو مخطط طه حسين : فتح الأبواب للثقافات الأجنبيه لا الفرنسية والإنجليزية وحدها ولكن الشيوعية والوجودية والصهيونية جميعا حتى تغرقنا وحتى تسحق شخصيتنا وتقضى عليها وتذيبنا فى بوتقة الأممية وهذه خطة طه حسين التى عرضها عام ١٩٣٩ والتى سعى اليها وجمع لها المال ١٩٥٤ وهو فى إدارة الثقافة بالجامعة العربية .

* * *

ومحاضرة أخرى : التاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٤٤

المكان : المدرسة الإسرائيلية بالاسكندرية .

المحاضر : الدكتور طه حسين مراقب الثقافة بوزارة المعارف .

وهذا نص مانشرته مجلة المكشوف فى ٢ كانون ثانى ١٩٤٤ :

القى الدكتور طه مراقب الثقافة فى وزارة التربية الوطنية فى المدرسة الإسرائيلية بالاسكندرية يوم ٢٤ كانون الأول ١٩٤٤ محاضرة عن اليهود والأدب العربى فذكر العلاقات بين اليهود والعرب منذ الجاهلية وأى أثر كان لليهود فى تحضير سكان الجزيرة ثم تكلم عن انتشارهم فى أفريقيا الشمالية وأسبانيا حيث كانت لهم خدمات فى سبيل الثقافة وكيف نافسوا العرب أنفسهم على أكثر المناصب فى الدولة ، إلى أن قال إن المسيحيين واليهود كانوا خير عون للعرب فى نقلهم العلوم والفنون والآداب عن اليونان والهنود والفرس وختم الدكتور حديثه داعيا يهود مصر إلى توثيق صلاتهم بالمصريين من أهل الثقافة العربية والاندماج فى سوادهم اندماجا روحيا وتدارس أدبهم شعراً ونثرا ـ قالت المجلة فقوبل كلام المحاضر بعاصفة من التصفيق وقرر المجلس الملى الإسرائيلى انشاء جائزتين باسم طه حسين يمنحان لألمع طالبين فى المدرسة الاسرائيلية » .

وقد أشار هذا الكلام شبهة الصهيونية ولكن هل كان هذا هو أول ما قدمه طه حسين : إن على الباحثين أن يعودوا إلى ماقبل ذلك بكثير ، إلى الوقت الذى احتضن فيه طه حسين فى كلية الآداب طالبه الأثير (إسرائيل ولفنسون) الذى وصف بانه رجل استقدمه الدكتور إلى الجامعة وأحاطه بعنايته ورعايته وقد مكنه من الحصول على أجازة الدكتوراه برسالة عن (اليهود فى جزيرة العرب) قدمها بنفسه فى الحفل وفى الطبع ، وقد أطلق على نفسه (أبو ذوئيب) وقد عمل أستاذا فترة من الزمن فى دار العلوم وقد وجد فيما نقله من أخبار وأحاديث تحريفاً وبترا واقتطاعا من نصوص محفوظة معروفة ، كذلك فقد رأينا الدكتور طه يتحدث قبل ذلك (يناير ١٩٢٦) عن تاثير الوثنية واليهودية والنصرانية فى الشعر العربى حيث ادعى ان الحكام المسلمين منعوا تداول كل شعر اشتمل على مبادىء الديانات وأورد تهماً أخرى رد عليها كثير من الباحثين (اقرأ عباس فضلى السياسة اليومية ـ ١٣ يناير ١٩٢٦)

بل إن الدكتور ولفنسون استاذ اللغة العبرية بالجامعة المصرية القى محاضرات منها ما ألقاه فى ١٣ مايو ١٩٣٢ عن القصص اليهودية المصرية فى الف ليلة .

وقبل هذا كله نجد الدكتور طه حسين قد سجل فى كتابه (الشعر الجاهلى) أول محاولة له يمكن أن توضع فى هذا الخط الخطير وهو انكاره وجود إبراهيم وإسماعيل بالرغم من أن القرآن والتوراة قد أشارت إلى وجودهما (وقد أجبر على حذف هذا النص عندما أصدر كتابه البديل (الأدب الجاهلى)

وقد سجل هذا الدكتور فؤاد حسنين على فى مقدمة كتابه (شمس الله تشرق على الغرب) قال حيث : يحلو للدكتور طه أن يتحدث عن اليهود واليهودية إذا ما عرض للغة وأدبها ويحلو له الحديث عن اليونان إذا ما تعرض للحضارة العربية الإسلامية ففى الجامعة المصرية كان يحلو له التشدق بهذا الرأى فيما يلقيه على مستمعيه فى محاضراته وقد سجلت له صحيفة الجامعة المصرية فى عددها الأول فى سنتها الثالثة عام ١٩٢٥ محاضرة هى حلقة من سلسلة محاضراته تحدث فيها عن اليهود ومالهم من أثر فعال لافى الحياة العربية فقط بل فى الحياة الأدبية أيضا ويصل إلى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود :

(أولا) أن اليهود أثروا فى الأدب العربى أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود .

(ثانيا) : أن اليهود قالوا كثيرا من الشعر فى الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب .

(ثالثا) أن اليهود انتحلوا شعراً لإثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب .

وانتقلت الجامعة الأهلية إلى الدولة وانتقل معها الدكتور طه حسين فأخذ يكرر نفس الآراء ويدعو لها وأبى إلا أن يذيع دعواه خارج الجامعة فأصدر (الشعر الجاهلى) فلما صادرته الدولة عام ١٩٢٦ اعادة نشره مهذبا ببعض التهذيب تحت عنوان (الأدب الجاهلى) عام ١٩٢٧ وفى تلك الفترة أعد الصهيونى إسرائيل ولفنسون (المشرف على البحوث الإسرائيلية فى أفريقيا الآن) رسالة تحت اشراف الدكتور طه موضوعها «تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام» قدم لها الأستاذ المشرف بمقدمة جاء فيها : الموضوع فى نفسه قيم جليل الخطر

بعيد الأثر جدا فى التاريخ الأدبى والسياسى والدينى للأمة العربية فليس من شك أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا فى الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز وليس شك أن الخصومة كانت عنيفه أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفى أنها استحالت من المحاججة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت باجلاء اليهود عن البلاد العربيه » وهذه الرسالة التى نال بها إسرائيل ولفنسون لقب الدكتوراه من الجامعة المصرية والتى استحق صاحبها من الدكتور طه المشرف عليها أن ينعته بانه عالم شاب وفق إلى الخير وإلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل » .

ويقول الدكتور فؤاد حسنين : وإنى أحب أن أقول له ان هذا البحث حلقة من كتب الدعاية الصهيونية التى كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيونى باشراف (مارتن بوبر) تدعو إلى نشرها وما نقله إسرائيل ولفنسون فى رسالته من آراء كان القصد منها اطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ماجاء فى المصادر الأجنبية التى يجهلها القارىء العام فى الشرق . وهذه الرسالة التى اشرف عليها مشحونة بالأخطاء التى لاتصدر من طالب مبتدىء فى البحث وهى صدى لهذه الآراء التى كثيراً ما أوردها الدكتور فى الجامعة فضلا عن ان المراجع العبرية لاتمت إلى البحث بصلة والسيد المشرف لايعرف العبرية واخذ بالنتائج التى ينسبها الباحث إلى هذه المراجع العبرية دون التحقيق منها ودون الاستنارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية كانت تقتضى غير هذا . ان البحث العلمى يجب إلا يصبغ بصبغة القومية المتعصبة . كما لايتخذ وسيلة من وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادى الرخيص ويجب ان يسمو عن كل هذا وينظر اليه كقضية عالمية .

ويقول الدكتور فؤاد حسنين : ان الحانقين على الغرب والاسلام والناسبين التراث العربى إلى اليونان واليهود يضللون انفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح العرب هم اصحاب الفضل على اليونان واليهود . ولست وحدى الذى يقرر هذا بل يشاركنى نفر من الأوربين المنصفين مسيحيين كانوا أو يهودا والتاريخ اليهودى يحدثنا ان العرب احسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من

حكامهم فى فلسطين اوزاعا من اضطهاد اليونان والروم فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلا وسهلا ، وفد أفرادها على العرب بعد ان أفقدتهم القرون التى مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة تذوق اللغة العبرية حتى أصبح من المألوف لدى اليهودى أن يعبر عن أفكاره وشعوره فى لغة ركيكة هى خليط من العبرانية والكلدانية واليوانية فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية ، فما كان هؤلاء اليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر ، فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة ان العربى معجب بلغة معنى بهـا نثراً وشعراً حريص على المحافظة عليها فصيحة نقية . وأخذ اليهود من جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير ، فلما رحل بنو قنيقاع والنضير ويهود خيبر وغيرهم إلى العراق والشام وفلسين ، كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربى ويتطبعون بطباع عربية ، نزل أولئك اليهود فى أوطانهم الجديدة فاثرو فى أبناء ملتهم تأثيراً قويا ولم يمض نصف قرن من الزمان على تحرير العرب ليهود فلسطين والعراق وغيرها حتى أصبح فى استطاعتهم التحدث باللغة العربية .

ويحدثنا التاريخ اليهودى أن الإسلام أحسن معاملة اليهود أولئك الذين اضطر النبى والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام واتباعه ، اقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام على كرم الله وجهه ، الأراضى الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودى الشهير (جريتز) إلى الإشارة بعدالة العرب وانسيانيتهم وقال ان سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها .

هـذه هى الحقيقة العلمية أسوقها للدكتور طه وتلميذه الدكتور اسرائيل ولفنسون » اهـ .

ولا ريب ان هذا الذى اختصرناه مما أوره الدكتور فؤاد حسنين بتوسع ، له مكان آخر ، يكشف هوى طه حسين وزيفه فيما حاول هو وتلميذه اليهودى ان يضفيان على اليهود ما ليس لهم وما لم يكن فيهم ، بل هو فضل خلعه على اليهود فما كان لليهود على العرب أو على غيرهم على مر التاريخ البشرى أى فضل .

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن طه حسين قال : قد جئت به من فرنسا ثم قدمت رسالته مادحاً فى اليهود ، وهو اليوم يقود أكبر حملات الكذب والدعاية والتضليل على العرب فى فلسطين . ومن ذلك ماحاول الدكتور طه أن يدافع به عن عبد الله بن سبا فى كتابه (الفتنة الكبرى) وشكه فى حقيقة هذا اليهودى الذى تزعم أكبر فتنة فى صدر الإسلام وفى محاولته الساذجة فى إنكار شخصية ابن سبا وآثارها البعيدة المدى .

وهو صاحب نظرية الحلول والاتحاد التى انتقلت من اليهودية إلى المسيحية إلى الإسلام وهو على شاكلة كعب الاحبار الذى اشترك فى مؤامرة اغتيال عمر ابن الخطاب بيد أبو لؤلؤة المجوسى ، وكان كعب الاحبار خلف هذه المؤامرة كما كان ابن سبا خلف مؤامرة قتل عثمان بن عفان .

وقبل أن نصل إلى قصة إنشاء مجلة الكاتب المصرى : ذلك العمل الذى جاء مباشرة بعد محاضرة الاسكندرية المشهورة يجب علينا أن نتعقب آثاره فى الفترة السابقة فنجد صفحة كاملة من جريدة الوادى التى كان يصدرها يلخص فيها الدكتور كتاب (الاجناس) للكاتب الألمانى الاسرائيلى فرديناند بروكينز والتى نقلها من مجلة اللاستراسيون ونشرها فى ٣ يونية عام ١٩٣٤ وهى فى مجموعها دعاية صارخة لليهود ومحاولة لتثبيت معلومات زائفة عن مقتل هتلر لهم وإثارة القلوب عليهم بالاشفاق .

فهو يقول فى مقدمتها : لم يفرغ الناس بعد فى جميع أقطار الأرض المتحضرة ويظهر إنهم لن يفرغوا قبل زمن بعيد من الحديث فى مسالة الأجناس التى كانت تثار من حين إلى حين فى بلاد مختلفة وبيئات متباينة وفى عصور متباعدة ومتقاربة ولكنها أثيرت فى هذه الأيام بشكل عنيف ومخيف اضطرب له ضمير الإنسانية ، وكان الانقلاب الالمانى الأخير هو الذى آثار هذه المسالة حين أنكر الالمان من الاسرائيليين ما أنكروا ووجهوا إليهم من التهم ما وجهوا وأرادوا أن يخلصوا منهم الجنس الالمانى وأن يردوا هذا الجنس فيما يقولون إلى صفائه الأول ونقائه الذى لا تشوبه شائبة .

وما زال الناس فى حديث هذه الثورة التى ثارها الالمان باليهود يراها بعضهم حقاً ويراها بعضهم الآخر باطلا وظلماً ويدافع أولئك وهؤلاء عما يرون فينصرف أولئك وهؤلاء فى الهجوم والدفاع وفى التأييد والإنكار والصورة التى عرضها الكاتب فى قصة لهذه الخصومة ، والنقاد الذين شهدوا القصة ونقدوها لا يمضون مع الكاتب إلى حيث أراد . فهم قد قدروا كما نقدر أن الكاتب إسرائيلى وانه قد ازعج عن وطنه أثناء الفتنة بل من المرجح انه لم يأمن أن يتأثر بمذهبه وجنسه وهواه وما أصابه به من الضرر حتى نفى عن بلاده . بل من المرجح انه قد أخطأ بعض الخطأ على كثرة ما حاول من الاحتفاظ بالقصد والانصاف » .

وهكذا نجد انه أخذ يقدم وجهة نظر اليهود فى قضايا النازى بطريقة ماكرة خبيثة ، وهكذا مضى يقول « فالوطن اليهودى لا يطيق اليهود وهو يراهم شراً وخطراً بل الوطن الهتلرى لا يطيق إلا نفسه ولا يقبل من أبنائه أن يفكروا أو يقدروا أو يؤمنوا إلا بأنفسهم من حيث هم أفراد وإنما هو يريدهم على أن يفنوا فيه ويحيوا له ويعملوا بإرادته وأمره وكل ما يخالف ذلك فى حياتهم يجب أن يمحى محواً ويضطرح اطراحا » .

يقول : عاد هتلر وقد جحد الديمقراطية ومبادئها وآمن بعظمة الجنس الآرى وضعة غيره من الأجناس وعادت هى يهودية خالصة ، أما هو فيذكر أجداده القدماء ، أما هى فتمد يدها إلى التوراة لتنظر فيها ويقول ان الشباب اليهودى فى المانيا مؤمن بالديمقراطية والحرية مشفق من الظلم والجور ولكن هناك صوتا بعيداً يتحدث إليه هو صوت الاضطهاد وان مجدهم إنما يقوم على هذه المحن التى تلم بهم من حين إلى حين » .

وهكذا نجد طه حسين يتحدث كأنه محايد ثم يدس السم فى الدسم ويكشف عن ولاء واضح وهوى عميق كان له أثره فى نظر الكتاب والقراء حتى جاءت قضية مجلة الكاتب المصرى .

نعم ، لم يلبث الدكتور طه ان أشرف على دار الكاتب المصرى التى عينته مستشار لها ورئيساً لتحرير مجلة الكاتب المصرى ولندع الدكتور لويس عوض

تلميذ الدكتور وصفيه فى كثير مما يدعو إليه يحدثنا عن هذه القصة : كان لهذه الدار قصة واضحة وغامضة معاً ، كان يملك هذه الدار أربعة أخوة من يهود مصر الميسورين . كنا نعرف فى هذه الفترة مليونرات يهود بعضهم من يهود مصر وبعضهم من اليهود المصريين المتصلين بالثقافة والمثقفين ، منهم من كان ضالعاً فى تشكيل حركاتنا السياسية الجديدة كالشيوعية وما إليها وكنا نعرف أو نسمع عن آل كوريل : هنرى وراؤول ومليونير يهودى شاب اسمه ريمون اجيون . كنا نسمع عن هؤلاء وغيرهم أنهم يمولون الحركات الشيوعية بالمال وقيل بالجنس أيضاً . لم نسمع عن آل هرارى كانوا أربعة أخوة تجاراً ووكلاء شركة رمنجتون للالات الكاتبة ، قرروا دخول عالم النشر وتعاقدوا مع طه حسين ، استطاعت دار الكاتب المصرى أن تصدر مجلة ثقافية فكرية وقد أصدرت عشرات الكتب المؤلفة والمترجمة (اندريه جيد، دستوفسكى، ستندال، تولستوى، تورجنيف، ويلز ، أوسكار وايلد ، مدونه جوستنيان ، كافكا ، سارتر ، البير كامى ...) .

وقد ظهرت فجأة واختفت فجأة ، كنت أسمع ان حملة ضارية قد شنت على الدار من بعض الصحف المصرية الصغرى يقودها اسماعيل مظهر اتهمت فيها دار الكاتب المصرى بانها رأس رمح لليهود فى مصر تمولها الصهيونية العالمية بقصد استيعاب المثقفين المصريين والعرب فى تيار ثقافى مشبوه وفى الوقت الذى كانت الصهيونية تحاول بشوكة السلاح وبارهاب الهاباى والايرجون زفاى أن تنشىء دولة إسرائيل ، والحق ان ظهور دار الكاتب المصرى فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ العالم العربى إذا نظرنا له بعد هذه الفترة البعيدة أمر يدعو إلى الاستثارة فعلا وكلنا فى هذه الأيام لم نكن ننظر إلى اليهود المصريين على انهم مصريون ، وقد يختلفون عنا فى الدين ، كنا نفصل فصلا تاماً بين اليهودية والصهيونية ولم نجد فى الكاتب المصرى شيئاً ما يقبل التأويل إلى شىء من هذا الخطر الذى كانوا ينبهون إليه » . (الأهرام ١٩٦٨/٢/٢٠)

ولقد يصدق لويس عوض فى قوله إذا ما انتزعنا القصة من سياقها التاريخى الذى أوردناه ، ولكنها حين توضع فى مكانها الحقيقى من هذا التاريخ الطويل يتأكد لنا ان طه حسين يسير إلى غاية واضحة ، وإذا راجعنا ما أصدرته الدار

وجدنا حرباً واضحة للاسلام ممثل فى كتاب جولد زيهر ، ونجد عاصفة من المترجمات المثيرة التى تحمل الإلحاد والإباحية والفكر الغربى فى صوره المنحلة والمضطربة الوجودية والشيوعية وغيرها فنجد أن ذلك هو هدف الصهيونية العالمية ، وهذه هى خطة الماسونية والتلمودية جميعاً .

ولعل هذا هو ما دعا مجلة الاثنين ان تستجوب طه حسين فى عددها (٨ أكتوبر ١٩٤٥) تحت عنوان (يقولون عنك فاذا تقول) :

س : يقولون عنك انك تعمل على مساعدة الصهيونية فاذا تقول ؟

ج : ان مجلات دار الهلال آخر من يجوز لها إلقاء هذا السؤال فهى تعرفنى حق المعرفة وقد كتبت فيها منذ نشأت حتى الآن وليت الذين يذيعون مثل هذا الكلام الفارغ ، يستطيعون أن يبلوا فى خدمة العروبة مثلما أبليت ، وليس أدل على انى (أساعد) الصهيونية من ان أحيى الأدب العربى القديم ، فانشر ديوان أبى تمام وما كتب عليه من الشروح فى العصور الأولى ، وأنشر روائع الأدب العربى للجاحظ وأبى هلال العسكرى وغيرها وأنشر أشياء تتصل بعلوم القرآن الكريم فاى مساعدة للصهيونية أقوى من هذا ، أما مجلة الكاتب المصرى التى أسست فيما يقال لمساعدة الصهيونية فستكون فى أيدى الناس حين يظهر هذا العدد من الاثنين وسيقرأون ما فيها ويستوثقون من انها مجلة أقل ما توصف به انها لسان صادق للادب العربى الرفيع » .

وهكذا نجد أن «شبهة» الصهيونية قد وضحت كثيراً ، فاذا أضفنا إليها ان طه حسين فى حياته كلها وحتى مماته وقد شهد قيام إسرائيل وما بعده لم يكتب مقالا واحداً عن فلسطين لم نعجب ولم نشك فى صحة اتجاهه .

* * *

٢ — ولطه حسين مواقف أخرى فى ندواته . فنى نادى نقابة الموظفين كما تقول كوكب الشرق (٤ يوليو ١٩٢٧) وتعلق الفتح (٧ يوليو ١٩٢٧) وقف طه

حسين بعد محاضرة الدكتور فريد رفاعى وتحدث إلى الحاضرين عن شأنه مع الإسلام والمسلمين قال الدكتور فى حديثه :

أنا أسعد الناس لأن أرى من قومى ووطنى من يفهم العلم والعالم فيقدره ويظهر الاستعداد لتشجيعه على الحق . أنا أعلم حق العلم ان امتى تختنف فى هذه الأيام وأعلم حق العلم ان ذكرى قد يكون خطراً فى بعض البيئات ويمكن لمن يخافونى ان يسالوا تلاميذى الذين أضع علمى بين أيديهم وبحثى تحت نظرهم :

أيخافونى على دينهم وهم الحريصون عليه .

ووقف الأستاذ محمد الهراوى ونقض حديث الدكتور وقال : ان رجال الدين مدافعون والدكتور طه هو المهاجم وشرع فى سرد مخازى كتاب (فى الشعر الجاهلى) ولكن أسعد لطفى رئيس النقابة سعى فى قطع الهراوى عن الكلام .

تقول كوكب الشرق : لماذا أحال الدكتور الحاضرين على تلاميذه وهلا أحالهم على كتاب فى الشعر الجاهلى فيخبرهم اليقين بان أستاذ الجامعة يجلس إليه تلاميذه فيملأ حقائبهم بالطعن فى القرآن والاعتداء على كرامة النبى .

ومما قال (وأعلم انه لا يخطر ببالى فى يوم من الأيام ولن يخطر ببالى أبداً ما حييت أن أكون عدواً لدين من الأديان) فإذا كانت العداوة للدين غير الطعن فى كتابه المنزل غير إيذاء من أنزل عليه هذا الكتاب فذلك اصطلاح لا يفهمه إلا من يضع الدكتور علمه بين أيديهم .

ويصرح الدكتور فى مواضع متعددة من كتاب الشعر الجاهلى بنسبه الكذب إلى القرآن ويعتدى على كرامة النبى بما لا مساس له بموضوع البحث وتقرير النيابة شاهد بذلك . فماذا تكون العداوة للدين غير الطعن فى كتابه المنزل وغير إيذاء من أنزل عليه هذا الكتاب . دس الدكتور فى حديثه تلك الخديعة التى جعلوها أساس دعايتهم وجعلتهم فى نظر العقلاء قوماً لا يفقهون وهى زعمهم : ان الدين خارج عن دائرة العقل وقال :

ان واجبنا عليه ان يكون بحثه على طريقة العلماء بعيداً عن الدين وأموره .

يذكر القرآن ويقذفه بالكذب ويذكر النبي ويمس كرامته بلسان ماجن رقيع .

ويعلق صاحب الفتح فيقول : كانت هذه العصابة قد حسبت ان الاحساس الديني قد انمحى من قلوب الأمة فثبتوا حملة يهاجون بها الإسلام من طرق مختلفة وعقدوا الرأى على أن يقيموا لرينان حفلا يدرسون فيه مآرب أخرى وزينوا الشيخ مصطفى عبد الرازق أن يكون نصيبه إلقاء كتاب يقال ان جمال الدين الأفغاني بعث به إلى رينان يرى فيه جمال الدين ان بين الإسلام والعلم خلافاً .

وقال أحمد خشبه باشا : لو أن الدكتور طه تعرض للدين الإسلامي وهو يعلن انه لا يدين بدين من الأديان المنزلة لهان الأمر ، أما وهو يطعن فى الدين الإسلامي وفى نبي الإسلام ثم يقول فى نفس الوقت انه مسلم كما قرر أمام النيابة العمومية فهذا مما لا يصح السكوت عليه . "

***

وقد ألقى الدكتور طه حسين عدداً من المحاضرات عن البحترى وقد كتب الدكتور زكى مبارك (البلاغ ١٢ مارس ١٩٣٣) عن هذه المحاضرات تحت عنوان :

[الدكتور طه حسين يغلط ثلاث مرات فى محاضرة واحدة]

وقدم زكى مبارك الأبيات الثلاثة التى قرأها الدكتور وبين وجه الخطأ فيها فما كان من الدكتور إلا أن طبع محاضراته وشكل الكلمات على النحو الذى أوردها هو ضارباً صفحاً عن ما أورده زكى مبارك من تصحيح لها .

(٢)

أما المؤتمرات التى اشترك فيها الدكتور طه فهى كثيرة ، وأغلبها مؤتمرات المستشرقين ، ومن أهمها مؤتمر المستشرقين (سبتمبر ١٩٢٨) الذى عقد فى اكسفورد وألقى فيه بحثه عن الضمائر فى القرآن . والذى رفض الدكتور طه نشره فى اللغة العربية كما سجلت ذلك عليه جريدة الأهرام (١٢ سبتمبر ١٩٢٨)

وهو موضوع شائك خاض فيه الدكتور وارضى وجهة نظر المستشرقين ، يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى (كوكب الشرق ٢٧ نوفبر ١٩٢٨) رأيه أن ضمير الغائب فى آيات كثيرة من القرآن هو اسم إشارة وزعمه ان هذا الذى تأوله فى تفسير الضمائر يحل مشكلة عدم المطابقة بين الضمير وما يرجع إليه ويصحح ما ضبط به المستشرقون من توهمهم ان فى القرآن خطأ نحوياً إذ يرون الضمير قد رجع على متأخر أو يرجع إلى محذوف مفسر بما يدل عليه وجهاً من أوجه الدلالة . وقد استطرد (طه حسين) لبحثه من القاعدة النحوية التى نص عليها وجرى فى إيرادها مجرى المستشرقين فى عربيتهم الضعيفة فلا هى محكمة ولا هى مصلحة ولكن منترعة انتزاعاً عن جمع للقواعد بلا إستقراء وأخذ بلا تمحيص ونظر بلا تدقيق وفهم بلا تعليل . وكأن صاحب البحث لا يعرف كيف وضع النحو ومم اخذ وكيف تفرع بعضه من بعض وهل هو حجة على الفصيح المنقاد المجمع على فصاحته وخلاصه أم الفصيح حجة عليه ، وهل كان للعربى القح متن وشرح وحاشية أم قريحة وسليقة ودقائق فى التصرف . وكأنه أخذ تلك القاعدة من ذلك الكتاب الذى عثر به فى خرائب روما فرآه مكتوباً قبل الإسلام بمائة سنة وفيه آراء فى الشعر الجاهلى وفيه قواعد نحوية ضابطة محكمة لايشذ عنها إلا شاذ ولا يختلف عليها إلا ما كان خطأ وفيه أشياء وآراء يقال ان الدكتور طه لا يرده عن نشرها إلا أنه يطمع أن يجد تحقيقها فى كتاب آخر يعثر به فى خرائب أثينا الخ .

* * *

وهناك مثلا مؤتمر باريس العلمانى وقد كتبت عنه مجلة المكشوف فى ٢٨ تموز ١٩٣٧ وعقد مؤتمر البعثة العلمانية الفرنسية للبحث فى موقف اللغة الفرنسوية فى الشرق وكان من بين أعضاء المؤتمر من غير الفرنسيين الدكتور طه حسين وصاحب جريدة النهار فخطب مسيو هريو عن مهمة فرنسا التهذيبية فى الشرق وعن أثرها فى تكوين النهضات القومية .

وقد شرع كل واحد يتكلم عن أثر التعليم العلمانى فى بلد يعرفه من بلاد

الشرق ، وطلب الرئيس إلى الدكتور طه حسين أن يتكلم عن أثر التعليم العلمانى فى مصر فانطلق الأستاذ يتحدث بطلاقة لسانه المعهودة وطلب إلى البعثة أن تعنى فى مصر بتقوية الروح الكلاسيكى فى التدريس فكان كلامه يقاطع بالتصفيق » .

وكيف لا يصفقون لرجلهم وهو يعبر عن آرائهم ويدعم مقامهم ويدعو لما هو إلى رضاهم أقرب .

ومن ذلك نادى القلم الدولى الذى أقامه طه حسين فى مصر ودعا إليه عدداً من أصدقاء الغرب على عبد الرازق ، سيزا نبراوى ، مصطفى عبد الرازق ، توفيق دياب ، أنطون الجميل ، اميل زيدان ، أحمد أمين ، محمد عوض محمد ، عبد العزيز البشرى ، كامل حسن ، محمد عبد الله عنان ، مسيو دى لموا ، المسيو ومدام فوشيه ، مدام خير ، مستر سكيف ، ومسيو ومدام نيل ، محمود تيمور ، الآنسة مى ، خليل ثابت ، خليل مطران .

وقد كتب الدكتور محمد حسين هيكل يعترض على قيام هـذا النادى فى مصر لأنه يركز الغزو والتبعية .

(٣)

ونحن نجد طه حسين يكد ويكدح بعد معاهدة ١٩٣٦ ليفتح الطريق إلى عمله الكبير الذى تولاه فى وزارة المعارف مستشاراً ومراقباً ومديراً للجامعة ووزيراً ، ثم نجد مرحلة أخرى يريد طه حسين أن يكدح فيها بعنف ، ذلك بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية وانقطع فترة عن السفر الذى يقوم به كل عام إلى فرنسا ، ثم يسافر فماذا يكون فى حقائبه ومهمته . يكشف هذا الأستاذ محمد روحى فيصل فى مقال له فى مجلة (آخر دقيقة) نقلتها مجلة النديم القصصى فى مصر فى عددها ١٩٤٦/١٠/٩ تحت عنوان [هل باع الدكتور طه روحه لفرنسا] يقول :

تسلل الدكتور طه حسين إلى فرنسا فى هذا الصيف فمكث قرابة الشهرين ثم عاد إلى مصر يستأنف النشاط الذى اتفق معه فريق من التجار اليهود على أن

يقوم به على صفحات (الكاتب المصرى) باسم الأدب والثقافة والعلم وما اشك فى انه كان يصطحب معه إلى فرنسا زوجه التى قتلها الشوق من طول الحرب إلى أهلها ... ومن يدرى فقد يكون طه حسين نفسه يكابد الشوق إلى فرنسا فذهب فى هذا الصيف يجدد العهد بالوطن الذى إنتثر غبرة مزورة فوق الجزمه الايطالية طيلة سنوات الحرب كلها ، ومن المؤكد انه لقى هناك ولده الذى يحمل اسمين اثنين معاً أحدهما عربى وهو مؤنس ، يوقع به فى مجلة أبيه ، والآخر فرنسى وهو كلود توج به ديوان شعر صغير بالفرنسية وذهب الفتى العربى الفرنسى إلى فرنسا يدرس فى جامعاتها على نفقة الحكومة الفرنسية ، كل هذا يهون وكنا نعده من خاصة الشئون فى الصميم فلا نذكره ولا نأبه له لو أن الدكتور اقتصر عليه ووقف عنده ولم يتجاوزه إلى ما هو أعظم شأناً وأكثر خطراً ذاك انه ألقى فى بعض محطات الاذاعة الفرنسية أحاديث سمعوها من أصدقائنا الصحفيين دعا فيها إلى عودة الصلات التى انقطعت بين فرنسا والعرب لم يتحفظ فيها الكاتب ولم يصطنع فيها الذكاء الذى نعهده فيما نقرأ له من الفصول، وإنما كان صريحاً كل الصراحة واضحاً كل الوضوح جريئاً غاية الجرأة فلا جمجمة ولا مواربة ولا تمميه ، كانما الحديث عن فرنسا المستعمرة التى نكلت بالعرب وضربت دمشق مرتين من الأحاديث اليسيرة العاديه المستملحة . ومرة أخرى كل هذا يهون وكنا نعده من الكلام الذى يتبدد لو أن الدكتور طه اقتصر عليه ووقف عنده ولم يتجاوزه إلى ما هو أعظم شأناً وأكثر خطراً ، ذاك انه ألقى فى نادى (اللجنة الوطنية للكتاب الفرنسيين خطبة باللغة الفرنسية ابى الا أن يسجل مافيها على نفسه ويذيعها فى الناس على أوسع نطاق فنشرها فى صحيفة الآداب الفرنسية التى تصدر فى باريس عنوانها (فرنسا ومصر) أعرب فيها عن إعجابه الخالص بفرنسا وتقديره العميق لما قامت وتقوم به من جليل الأعمال فى استئناف التعاون بين فرنسا والشرق العربى ، وقد قرأ الناس مقال الدكتور طه كما قرأناه فعجبوا مثلما كيف يجرؤ على الحياء والحق والعلم والتاريخ بهذه الآراء المغلوطة والتحريض المفضوح والشعور الدخيل ولكنهم تساءلوا عن (الثمن) الذى قبضه صاحبنا من أجل مقاله هذا ومن أجل ما أذاعه من ألوان الدعاية لفرنسا

السياسية ، وأنا أدل القارىء على الأجرة المقبوضة حتى الآن ، فإن مؤنس أو كلود يتعلم فى جامعات فرنسا على نفقة الحكومة الفرنسية ، وهو ـ أى الدكتور طه ـ بنفسه يذهب إلى فرنسا ويقضى فيها ما شاء من الأيام والشهور ، ثم يعود إلى بلده خالص الأجرة ، ولا يدفع من جيبه فرنكا واحداً هذا إذا لم ينحدر إلى جيبه ما لا يعلم إلا الله من الخيرات وشىء آخر ينبغى أن نعده بعض الثمن المقبوض وهو ان جامعة مونبيليه قد منحته لقب دكتور شرف من جملة من منحت من دعاة فرنسا المأجورين » ا . هـ .

* * *

الباب الثالث

آراء طـــه حســـين
وصراعـه مع أهل جيـله

أولا : آراء طـه حسين

ثانيـــا : طريقة البحث

ثالثـــا : ظاهرة التحول والتناقض

رابعا : الأسلوب والأداء الفنى

خامسا : الاســـتجواب

سادسا : صراعه مع أهل جيله

الفصل الأول

آراء طه حسين

كانت مجموع آراء طه حسين التى قدمها بعد عودته من أوربا هى بمثابة محاولة لتغيير منطلق الفكر الإسلامى وضرب حركة اليقظة الاسلامية ، وتغريب هذا الفكر بإدخال مجموعات مختلفة من الأفكار والآراء الغربية اليونانية والباطنية والالحادية والاباحية فى مختلف المجالات وكانت أداته إلى ذلك الصحافة والتأليف والمحاضرة ، والعمل فى الجامعة ووزارة المعارف وفى الأحزاب السياسية ، وكانت الأحزاب السياسية والصحافة هما الاطار الذى يتحرك فيه لتغطيه خطوة ومواجهة المعارضة والترصد إزاء خطوة أهل الأصالة والحملة عليهم فى عنف .

ولقد قدم فى هذا الأطار وخلال سنوات طويلة امتدت أكثر من أربعين عاما هذه السموم .

(أولا) : دعوته إلى أن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندرية ، ونشر تقرير المستشرق جريفينى فى جريدة السياسة بعد واحد من مؤتمرات المستشرقين ، وقد واجه هذه الشبهة شيخ العروبة أحمد زكى باشا مواجهة واضحة كشفت زيف جريفينى وطه حسين ووقف طه حسين موقفا غير كريم من أستاذه الذى كان له عليه فضل العلم وفضل العطف فى المرحلة الأولى من حياته وقد سجل طه حسين موقفه منه فى وضوح فيما بعد .

(ثانيا) عمله على إعاده طبع رسائل اخوان الصفا وتقديمها بمقدمة ضخمة فى محاولة إحياء هذا الفكر الباطنى المجوسى الذى كان يحمل المؤامرة على الإسلام والدولة الإسلامية وكان هدف طه حسين ومن ورائه جماعة الاستشراق والتغريب هو صب هذه الآراء المسمومة فى بيئة الفكر الاسلامى الحديث لاثارة الشبهات بدعوى أنه عمل أدبى صرف .

(ثالثا) احيائه شعر المجون والغزل المذكر وكل شعر خارج عن الأخلاق سواء كان جنسياً أو هجاءاً وقد جدد الحديث عنهم فى هاله من تكريم حول أبو نواس وبشار والضحاك وغيرهم وجدد أثارهم وأذاع آرائهم وحلل حياتهم ، وقد واجه هذا كثيرون فى مقدمتهم إبراهيم عبد القادر المازنى .

(رابعا) : ترجمة القصص الفرنسى المكشوف وترجمة شعر بودلير وغيره من الأدب الأجنبى الأباحى الماجن الخليع .

(خامسا) : أثار شبهة خطيرة عن أن القرن الثانى الهجرى كان عصر شك ومجون وقد تصدى له كثيرون فنقضوا رأيه وفى مقدمتهم المؤرخ الإسلامى رفيق العظم . .

(سادسا) : قدم فكرة فصل الأدب العربى عن الفكر كمقدمة لدفعه إلى ساحة الإباحيات والشك وغيرها ، وذلك باسم تحريره من التأثير الدينى وقد أخذ ذلك عن الفكر الغربى الذى يختلف عن الفكر الاسلامى الجامع والذى لا ينفصل فيه الأدب عن القيم الأخرى ، والذى يتكامل فيه الأدب مع هذه القيم فى سبيل بناء الإنسان الربانى والإسلام أساسا هو نظام حياة ومنهج فكر جامع والأدب جزء منه .

(سابعا) : اعلاء شأن الفرعونية وانكار الروابط العربية والاسلامية وتجاهل أثر اللغة والقيم والتاريخ فى قيام الأمم .

(ثامنا) : اشاعة دعوة البحر الأبيض المتوسط والقول بأن المصريين غربيو

العقل والثقافة وأن الفكر الاسلامى قد قام على الاتصال بالفكر اليونانى فى القديم وأن هذا لايمنع أن يكون تحت تأثير الفكر الغربى الحديث الذى هو وريث وامتداد الفكر اليونانى وذلك رأى مسموم ردده طه حسين طويلا وهاجمه عدد من المفكرين .

(تاسعا) : الادعاء بان الشاعر أبو الطيب المتنبى «لقيط» وهذه دعوى باطلة أقام عليها كتابه « مع المتنبى » متابعا رأى الاستشراق وهادما لبطولة شاعر عربى نابه .

(عاشرا) : مؤامراته المتعددة على القرآن ومحاولاته المتكررة لاثارة الشبهات حوله والادعاء بانه يمثل نمطين نمط مكى ونمط مدنى وأنه متأثر باليهوديه وأنه منقول من الكتب القديمة وقد كشف الباحثون زيف هذا الادعاء .

(حادى عشر) : اتهامه الخطير لابن خلدون بالسذاجة والقصور وفساد المنهج وهو مانقله فعلا من المؤرخ الفرنسى اليهودى دوركايم .

(ثانى عشر) : اعادة خلط الاسرائيليات والأساطير إلى السيرة النبوية بعد أن نقاها المفكرون المسلمون منها والتزيد فى هذه الاسرائيليات والتوسع فيها ، وذلك فى كتابه على هامش السيرة ، وقد عارض هذا الاتجاه الدكتور محمد حسين هيكل .

(ثالث عشر) : حملته على الصحابة والرعيل الأول من الصفوة المسلمة وتشبيههم بالسياسين المحترفين فى كتابه (الفتنة الكبرى) وقد كشف زيف هذا الاتجاه الأستاذ محمود محمد شاكر .

(رابع عشر) : اثارة الشبهات حول ما زعمه من تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية فى الشعر العربى والأدب العربى .

(خامس عشر) دعوته إلى اعلاء شأن الأدب اليونانى على الأدب العربى والقول بانه لليونان فضل على العربية وقد كشف زيف هذا الرأى الدكتور زكى مبارك .

(٢)

هذه هى أغلب وأهم الآراء والأفكار التى طرحها طه حسين فى أفق الفكر الاسلامى . وهى لاتشكل نظرية معينة أو منهجا كاملا ، وإنما هى نظرات مفرقة قوامها التناقض والتحول والانتقال من الرأى إلى ضده حسبما يرى الظرف مواتياً لبث شبهته أو التقية فى عرضها .

قوام فكرة الشك الفلسفى ، وقوام أسلوبه التكرار ، وقوام منهجه التضاد وهو لايثبت على صورة واحدة ولا منهج واحد ، وإنما هو يعتمد فى الأساس على غاية واحدة أساسية وأن تكن الصور والوسائل والأساليب اليها متغيرة دائما فى مكر ومرونة — وفى عقله ونفسه يكمن الباعث والهدف ، وهو لايكشف عنهما بسهولة ، ولكنه يخفيهما وراء كلمات براقة كالحرية أو العلم أو الحضارة ويجعل ضرباته معولة موجهة إلى مؤسسات ظاهرة : الحزب ، الأزهر ، الوزارة ، وزارة المعارف ، الجامعة الخ .

وهو يتحرك دوما على طريق جديد ويركب الموجة السائدة ، وإذا عاد من أوربا بعد الصيف كانت هناك خطة وعمل جديد ، على نفس الطريق يستكمل به عملية الغزو فى ناحية أخرى ، فهو مرة فى الشعر الجاهلى أو أدب الشاكين والماجنين ، أو هامش السيرة ، أو الفتنة الكبرى ، أو مستقبل الثقافة ، أو ترجمة القصة الفرنسية المكشوفة ، أو مهاجمة الأزهر ، أو الدعوة إلى الفرعونية أو اعلاء شأن الأدب اليونانى ، الخ .

وهناك أساسيات لا تتخلف هى مواجهة الاسلام والقرآن والنيل من التراث الاسلامى على نحو أو آخر ، وقد شغلته دائما مسألة القرآن والاسلام والعقائد .

فهو يدعو طلاب كلية الآداب إلى اقتحام القرآن فى جرأة ونقده بوصفه كتاب أدبى يقول فيه هذا حسن وهذا .. (كذا) ويعلن فى أراء ألقاها فى الجامعة وأوردها عبد الحميد سعيد فى مناقشة فى مجلس النواب وأوردها تلاميذه فى الصحف (الكوكب ١٠ مارس ١٩٢٨) مثلا أنه حاول دراسة القرآن دراسة فنية ، وأثار الشبهات حول كلمة الكتاب وكلمة القرآن وقال إن الكتاب غير القرآن وأنه

كان موجوداً قبل إنزال القرآن وأن القرآن صورة عربية منه ، وأنه أخذ صورا من قبل كالتوراة والإنجيل .

ومما قاله : أن هناك قرآن مكي له أسلوب وقرآن مدني له أسلوب آخر . القسم المكي يمتاز بالهروب من المناقشة والخلو من المنطق (تعالى الله وكتابه عما يقولون علوا كبيرا) وأما القسم الثاني فيناقش الخصوم بالحجة الهادئة ، ومنطلق هذا القول كله أن طه حسين لايؤمن بالقرآن منزلا من عند الله ولكنه يراه من وضع النبي محمد ويتابع المستشرقين وكازنوفا على الخصوص في هذا الاتجاه .

وقد كذب الباحثون رايه هذا وزيفوه : وكشفوا عن أن القرآن المكي مليء بأقوى البراهين وأروعها وأظهرها وأنصفها وأقمها للجاحد وأملكها للقوى المعاند وأن القسم المكي لم يكن يهرب من المساجلة وإنما كان يقتحمها وما كان يولى الأدبار بل كان يقدم على الخصومة أقدام الواثق بقوته المؤمن بحجته المطمئن إلى عزة الحق وفوز اليقين .

ويقول أحد الباحثين الأعلام : لا ادرى كيف يتسنى للطاعن أن يزعم خلو القسم المكي من المنطق وهروبه من المناقشة . وأكبر الظن أن الطاعن لم يفهم أدلة القسم المكي ولا براهينه وأعجزه أن يستنبط حججها فتورط فيما تورط فيه ، ولا أظن انه يعلمها ويغالط منها لا اخال خصما يحترم نفسه يلجأ في المغالطات إلى انكار الوقائع المادية ويقول الباحث : الصحيح ان القسم المدني هو الذي كان فيه الحجة والبرهان ؟ اننا نجيب على ذلك اولا بتسليم ان القسم المدني فيه برهان ومنطق ، وثانيا ان القسم المكي كذلك مفعم بالمنطق والبرهان وانه ما كان يهرب من المناقشة بل كان يقرع بالحجة ويصول بالدليل وان الناقد نفسه ليعيننا على نفسه ويقدم لنا الدليل على نقض قوله فهو يلقى اليه بانه قول الله (لو كان فيهما إله إلا الله لفسدتا) فيه حجة هادئة وبرهان ساكن رزين ولكنه يزعم باطلا أنها من المدني لا المكي .

ونحن نقول له وللناس جميعا إنها مكية لامدنية وإثبات ذلك سهل يسير فتلك الآية من سورة الأنبياء وسورة الأنبياء مكية .

ويشكك طه حسين فى لفظ القرآن أهو عربى أم تشترك فيه لغات أخرى أم هو لفظ استعير من اللغة العبرية . ويثير شبهة خلق القرآن ويتحدث عن الحروف الأوائل فى بعض السور (ألم ألمر . طه . يس . ن . ق) ويقول : هل لهذه الحروف معنى مستقل بذاته أو هى أشياء يجب أن يقف عندها العقل ويكل أمرها إلى الله كما يقول الفقهاء . ويقدم ثلاث مذاهب فى الصراع مذهب المتصوفة ومذهب أهل اللغة والنحو ومذهب المفسرين .

ويقول أن لفظة سورة أخذت من لفظ شورة العبرية بمعنى سلسلة وهكذا يمضى الدكتور طه فى اثارة الشكوك حول القرآن فى دراساته فى الجامعة ونحت تاثير التبعية يقدم فى مؤتمر المشرقين السابع عشر بجامعة اكسفورد بحثا عن ضمير الغائب واستعمال اسم الاشارة فى القرآن ، (سبتمبر ١٩٢٨) ويحاول بعد عودته أن يمنع ترجمته ثم تستطيع الصحف أن تحصل عليه فاذا هو شيء ملىء بالشكوك والشبهات يجرى فيه مجرى المستشرقين ويتابع خطواتهم وقد أطلق الأستاذ مصطفى صادق الرافعى على استبدال طه حسين ضمير الغائب باسم الاشارة عبارة طريفه هى (بيع الذهب بالملح) وقال إن محاولة طه حسين هى القول بان ضمير الغائب فى آيات كثيرة من القرآن هو اسم اشارة وزعمه أن هذا الذى تأوله فى تفسير الضمائر يحل مشكلة عدم المطابقة بين الضمير وما يرجع اليه وتصحيح ماخبط فيه المستشرقون ، من توهمهم ان فى القرآن خطأ نحويا إذ يرون الضمير قد رجع متأخرا أو يرجع إلى محذوف مفسر بما يدل عليه وجها من أوجه الأدلة ويقول الباحث (طه حسين) الواقع أن القرآن لم يخطىء (هكذا يكون الذوق فى التعبير) وإنما قصر النحويون حينما وضعوا قواعد النحو فلم يستوعبوا القران (كذا) والشعر ولم يستقصوها (كذا) .

ويمضى طه حسين فى الحملة على القرآن حثيثا ومن ذلك قوله فى تحقيق النيابة : أن العلم شيء والكتب الدينية شيء آخر وانكاره وجود ابراهيم وإسماعيل وبنائهما الكعبة .

وفى السنوات الأخيرة من حياة طه حسين كان لايزال الرجل يردد شبهاته وفى مجلس ضم اللواء محمود شيت خطاب الذى روى لى القصة (عام ١٩٧٢ تقريبا) قال طه حسين : أن القرآن كان غير منقط ولذلك فقد حدث فيه اختلاف كثير فهناك كلمات تنطق كذا وكذا فتبينوا ، فتثبتوا ، الخ .

قال شيت خطاب : يادكتور ان الله يقول إنا أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون هل لو كانت هناك كلمات اختلف فيها أما كان الفقهاء والمفسرون سجلوا ذلك ، إننا لانجد فى كتب التفسير أو القراءات مايدل على ماذهبتم اليه ، أن ماتقولون به هو ماقاله ماسينيون وغيره من المستشرقين افتراءاً على القرآن والاسلام ولابد من مواجهة هذا والجهاد فيه .

وصمت طه حسين لحظة : ثم قال : لماذا لم تقولون لى إن فلانا هنا معنا ، إنى أعتب عليك يادكتور مدكور !.

ومما كان يردده طه حسين قوله : إذا كان من حق الناس جميعا ان يقرأوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفنى فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا والدرس والفهم مادام هذا الاعلان لايمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هى كتب مقدسة » .

ولا ريب أن طه حسين كان يهدف بهذا كسر « القداسة » القرآنية وجعل القرآن موضع نقد فنى أدبى كالتوراة ، وهو يعرف أن التوراة من وضع الأحبار وقد اعترف الغربيون فى أبحاثهم بذلك اما القرآن فهو من عند الله وهو سقف اللغة العربية كما يقول (جاك بيرك) فكيف يوضع هذا الموضع ولكن هى حملة التغريب .

(٣)

ويتصل بهذا رأى طه حسين فى الدين جملة : يقول [ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية ومما وصل اليه العلم من النظريات والقوانين فالدين حين يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم ، فالعالم الحقيقى ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر إلى الفقه وكما ينظر إلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وإذن نصل إلى أن الدين فى نظر العلم

لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها » .

وهذا هو مقطع الرأى فى عقيدة طه حسين ونظرته إلى الدين بعامة والاسلام والقرآن ومن أجل هذا فهو يقول فى كتابه مستقبل الثقافة : الدين الاسلامى يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومى لا كدين الهى منزل بين الشرائع للبشر فالقوانين الدينية لم تعد تصلح فى الحضارة الحديثة كأساس للاخلاق والأحكام ولذلك لايجوز أن يبقى الإسلام فى صميم الحياة السياسية أو أن يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين .

وتلك هى أقوى ركائز فكر طه حسين كله ومنطلقه التغريبي الواسع هو منطلق عقدى يقوم لديه مقام اليقين الصادق . ولقد أفرد الدكتور اسماعيل أدهم أحمد فى كتابه عن طه حسين فصلا كاملا تحت عنوان (دين طه حسين) تحدث فيه عن عقيدته فقال [ليس الدكتور طه برجل متدين بالمعنى الذى نعرفه من الدين انما هو مفكر حر التفكير ينظر إلى الدين نظرة العالم وهو يوافق دوركايم الاجتماعى المشهور فى أن الدين نبع من الجماعة نفسها غير أن الاسلام الذى يقول به الدكتور طه ويؤمن به غير الاسلام الذى عرفه المسلمون ثلاثة عشر قرنا أسلمت للقرن العشرين صورة من الاعتقاد اللاهوتى المذهبى عرفه الناس بالاسلام » .

وقد هوجم الدكتور طه من ناحية عقيدته هذه ورأيه فى الدين والاسلام كما ناقشه الرافعى ، فى اعتقاده القائل بأن الدين يتبع الجماعة فى تطورها وقرر أن الدين هو اقرار الالهية والاستدلال عليها باثارها ومتى تناول الدين شؤون للناس والحياة ومن طريق الاجتماع كما هو فى الاسلام فقد توثقت الصلة بينه وبين العلم (تحت راية القرآن ص ٢٧٦) وتقول لعل هنا خطر فرض مفهوم جديد للاسلام من خلال طه حسين يستدل به فيما بعد ، فطه من خريجى الأزهر وهو يريد ان يؤكد صلته بالاسلام فهو مسلم من ناحية للشعور وحده أما من ناحية العقل فهو حر الفكر يصرف حرية فكره نحو الالحاد .

ويقول : ولقد هوجم الدكتور طه من ناحية عقيدته هذه ورأيه فى الدين

والاسلام وقد رماه الرافعى بانه كافر ملحد وأنكر عليه وجود ناحيتين فى الانسان ناحية المشاعر وناحية العقل .

ويقول اسماعيل أدهم أحمد : إذا يمكننا أن نقول أن الدكتور طه حسين حر الرأى ، محول فى حرية فكره على الالحاد وعقيدة الدكتور طه فى (الله) غامضة ولم يحاول أن يفصح عنها ولربما كان غير مؤمن بالله لأنه باعتقاده أن الله من خلق الوهم والجهل فى الانسان يدفع عنه القدسية .

وقال إن طه حسين ثائر على الأديان ملحد من ناحية ارتضاها عقله فسكن اليها شعوره . فالدين عنده ظاهرة من الظواهرا الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

هذا ما أورده اسماعيل أدهم أحمد أحد أعوان طه حسين على نفس الطريق وليس من خصومه وهو يكشف عن خبيئة الرجل التى حاول اخفاءها وراء كتاباته الماكرة وقد قال الكاتب هذا وسجله فى الأربعينات .

ومن هذا المنطلق نفهم رأى طه حسين فى مادة الاسلام دين الدولة التى تضمنها الدستور حيث يقول [لم أكن فى اللجنة التى وضعت الدستور القديم ولم أكن بين الذين وضعوا الدستور الجديد ولم يستشرنى أولئك ولا هؤلاء فى هذا النص الذى اشتمل عليه الدستور والذى يعلن أن للدولة المصرية دينا رسميا هو الاسلام . ولو استشارنى أولئك أو هؤلاء لطلبت اليهم ان يتدبروا وان يتفكروا قبل ان يضعوا هذا النص فى الدستور ، كوكب الشرق ١٢ أغسطس ١٩٣٣ .

ولم يكن هذا هو غاية ماوصل اليه طه حسين فانه كتب قبل ذلك فى مجلة الحديث التى تصدر فى حلب ناقدا لهذه المادة ساخراً بها مصوراً مدى خطرها على حرية الفكر التى يدين بها .

وليس على الذين يشكون فى خصومة طه حسين للاسلام من بأس إذا وضعوا بين أيديهم مثلا عبارته التى يقول :

فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب ان يكون من صفوة بنى هاشم ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات ان القران كتاب عربى مطابق فى لفظه للغة العرب (فى الأدب الجاهلى ص ١٤٦) وقد سجل تقرير اللجنة التى كلفها الأزهر دراسة كتابه الشعر الجاهلى والمشكلة من محمد حسنين الغمراوى واحمد العوامرى

ومحمد عبد المطلب وعبد الحميد حسن هذه الحقائق والمعروف ان اللجنة اعادت النظر فى كتاب الأدب الجاهلى ايضا وهى حقائق تؤكد هذا الاتجاه فقد اشار إلى ما يلى :

(١) أضاع على المسلمين الايمان بتواتر القرآن وقراءاته وانها وحى من الله .
(٢) أضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم .
(٣) أضاع عليهم الثقة بسيرة النبى فى كل ما كتب فيها .
(٤) أضاع عليهم الاعتقاد بصدق القرآن وتنزيهه عن الكذب .
(٥) أضاع عليهم تنزيه القرآن عن التهكم والإزدراء بما كتب فى سورة الجن وصحف إبراهيم .
(٦) أضاع عليهم تنزيه النبى وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف .
(٧) أضاع عليهم ماوجب من حرمة الصحابة والتابعين .
(٨) أضاع عليهم صدق القرآن والنبى فيما أخبروا به عن ملة إبراهيم
(٩) أضاع عليهم براءة القرآن مما رماه به المستشرقون .
(١٠) أضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسله وكرام خلقه .
(١١) التشكيك فى علاقة القراءات السبع بالوحى .

وهذه الخيوط والمعانى كلها التى أوردها طه حسين عام ١٩٢٦ فى كتابيه الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى لم تتوقف عن الظهور والحركة والتوسع فى كل اثاره وكتاباته من بعد وحتى نهاية حياته فانك تجدها واضحة فى كل اثارة وخاصة كتاب مستقبل الثقافة وكتاب الفتنة الكبرى وكتاب هامش السيرة وكتاب مرآة الاسلام وهى آخر ماكتب فى حياته ومن هنا نجد أراء طه حسين التى قدمها بعد ذلك تجرى فى هذا النطاق قوة وضعفا وبروزاً واختفاءاً مع سبق الإصرار والترصد ومن هنا نجده يقف موقفه المشين من العرب والمسلمين وتاريخهم فيقول أن العرب فاتحون كالرومان والفرس ويقول أن البيان العربى نسجت خيوطه

من البلاغة الفارسية فى الصورة والهيئة ومن البلاغة اليونانية فى الملائمة بين أجزاء العبارة . ويرى ان الدين مهما بلغت أهميته العاطفية لا يستطيع أن يوجه الحياة السياسية ، ففكرة الأمة يجب أن تقوم على غير المفاهيم الدينية وهو هنا يعرض منطلق الفكر الغربى بالنسبة المسيحية ولا يفهم الفوارق العميقة بين كلمة دين وكلمة إسلام أو ما بين الإسلام والأديان الأخرى من فوارق جعلت الإسلام دينا ومنهج حياة وليس دنيا لاهوتياً خالصاً .

وهو فى هذا الاتجاه ينكر « ذاتية الحضارة الإسلامية » وأثرها الواضح المختلف عن الحضارات التى سبقتها ويجرى وراء الاستشراق فى القول بأن الدور الذى قام به العرب هو الدور الذى قام به من سبقهم من شعوب البحر الأبيض المتوسط كالايجيين والفينيقيين واليونان والرومان وان العرب ليسوا إلا وسطاء بين الأمم والحضارات ، وهو داعية إلى التبعيه للبحر الأبيض والغرب فى وجه الوحدة الإسلامية ، وهو داعية إلى الاقليمية المصرية فى وجه العروبة » .

يقول : « لا تصدقوا ما يقوله بعض المصريين من انهم يعملون للعروبة فالفرعونية متأصلة فى نفوسهم وهى ستبقى كذلك بل ويجب أن تبقى وتقوى . لا تطلبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها وإلا كان معنى طلبكم : أهدمى يا مصر أبا الهول والأهرام وانسى نفسك واتبعينا » .

وهذا القول لم يقله سلامه موسى ولا جرجس فلتاؤس عوض دعاة الفرعونية الأصلاء ، ولكن هذا القول لم يمض دون رد ودحض وتزييف .

ومن هذا الاتجاه ما أورده من قوله ان عقلية مصر عقلية يونانية .

وقوله بالباطل ان الإسلام لم يغير هذه العقلية وهو ما دحضه الكثيرون وكشفوا زيفه وفى مقدمتهم زكى مبارك الذى قال : انك تعرف ان مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية والأمة التى تقضى ثلاثة عشر قرناً فى ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة هذا الدين .

وهكذا نجد أن حرب طه حسين للإسلام موجهة إلى كل طريق ، فهو يشيد بما اسماه العقلية اليونانية التى تلقت الدرس عن مصر الفرعونية والتاريخ يشهد بأن مصر حين دخلت الإسلام فصلت بينها وبين ماضيها كله الفرعونى واليونانى والرومانى بل ان كل العالم العربى من سوريا إلى آخر المغرب الذى عاش الف سنة فى هذه التبعيه ، سرعان ما نفض نفسه وآمن بالإسلام واتخذ لغتـه ، وفصل بينه وبين ذلك الماضى تماما حتى قام ما يسميه علماء التاريخ الآن بالانقطاع الحضارى عن الفرعونية واليونانية والوثنية من ناحية وبين الإسلام .

ولقد كان من أخطر ما دعا إليه طه حسين : فصل الأدب العربى عن الفكر الإسلامى باسم تحريره وهى محاولة باطلة زائفة كشف ضلالها وزيفها كل من عرف قدراً من الأصالة للفكر الإسلامى والأدب العربى وقد سقطت تماماً ولكن المستشرقين ما يزالون واتباعهم ما زالوا حتى الآن يرددونها ويجددونها ويرون انها ركيزة من ركائز التغريب .

فيقول المستشرق كامفاير : ان المحاولة الجريئة التى قال بها طه حسين ومن يشايعه فى الرأى لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية : هى حركة لا يمكن تحديد آثارها على مستقبل الإسلام .

ان فكرة طه حسين فى دراسة الأدب العربى الإسلامى المصدر كما يدرس العالم الطبيعى علم الحيوان والنبات هى فكرة زائفة ضالة وقد كشف الغربيون أنفسهم زيفها حين فرقوا بين منهج العلوم التجريبية ومنهج العلوم الإنسانية وهى لم تكن مقبولة يوماً فى افق الفكر الإسلامى وقد ردها وسيردها كل واحد من أهل الأصالة الحقة .

وقد حاول طه حسين جرياً على طريق الفصل بين المصريين والإسلام أن يربط الثقافة باليونان والواقع انه ليس لمصر ثقافة خاصة منفصلة عن الثقافة العربية الإسلامية المصادر

ولقد وجه طه حسين بالرد الحاسم حين قال له الأستاذ حسن البنا إذ ذاك :

« ان مصر بتاريخها الإسلامى الباهر تدحض كل زعم يتأثرها بغير هذه العقلية ، ولعل تاريخها الحديث ونهضتها الحاضرة بين الأمم التى قامت على دعامة من فكرها الإسلامى وثقافتها الإسلامية خير دليل لمن يريدون الميل بها عن الينبوع الذى استمدت منه مئات السنين مادة قوتها وتماسكها وطابعها الخاص بين دول الشرق والغرب » .

* * *

الفصل الثانى

طريقة البحث

هل يمكن القول بان الدكتور طه حسين طريقة للبحث !

الواقع أن الدكتور طه حسين استعراضى الطريقة إذا صح هذا التعبير ، أى أنه ينطلق من الذوق ومن الذاتية ومن الرغبة المنطلقة إلى الغاية الكامنة فى أعماق النفس ، ولم يكن من الميسور أن يطالب الدكتور طه بان يكون له منهج علمى لأن هذا يتطلب أدوات لاتتيسر لرجل مثله مستعين بغيره ولذلك كان مجاله مقصوراً على النقد الأدبى الذى يقوم على الذوق وعلى القصة وهى تقوم على الخيال والاستعراض التاريخى والسياسى وهو ما يستطيعه كل من يمسك القلم أو يملى :

ولقد حاول طه حسين أن يقول بانه يمتلك الأداء الغربى و الأسلوب الفرنسى وأنه يجمع بين الطريقتين العربية القديمة والغربية الحديثة ولكنه عجز عن شىء واحد هو الانصاف والارتفاع عن الظن وما تهوى الأنفس .

وقد أيد هذا المعنى كثير من الباحثين الذين عرضوا لآثار طه حسين وكتبوا عنها وقد أوضح هذا الجانب اسماعيل أدهم أحمد فى بحثه عن طه حسين حين قال : إنه يمزج التحقيق العلمى بالفن فتضعف معرفة الجانب العلمى فى إثارة

وهذا جعل الكثيرون ينكرون على طه حسين الناحية العلمية فى دراساته خصوصا إذا لمسوا شيئا من عدم التحوط فى البحث وبعض التطرف فى الاستنتاج والسطحية فى استقصاء الاسلوب » .

وظاهرة السخرية والاستهانة وعدم الجدية واضحة فى طريقة طه حسين يسجلها عليه أقرب الناس اليه فيشير اسماعيل أدهم إلى أنه طه لاعب له روح الطفل الذى يريد أن يلعب ويلهو ؛ يقول « وأنت ترى فى كتابه (مع المتنبى) يظهر لك بروح الطفل الذى يلعب فهو يلعب ، ودائما يلعب ولعبته كانت فى كتابه مع المتنبى ، حياة المتنبى نفسها ، فانت ترى طه يثير مواضيع خطيرة تؤلب الرأى العام عليه فتظنه جاداً فى بحثه ولكنه سرعان ما يكشف من وراء هذا « روح » الطفل الذى يعمل (العملة) ويقعد يتفرج .

واستشهد فى ذاك بالمازنى الذى قال : ان لطه عناية بالمسائل التى بين العواطف والشعور ، من جهة ، وبين العقل من جهة أخرى ، فتراه يؤثر أخبار الزناة وذا كلف يتناول المجانة وأهل الخلاعة من شعراء العرب وتلخيص القصص التى تدور على الحيانات وما إليها وتسويغه ذلك والاعتذار له حتى لكأن يحاول أن يقول بلسانه غير ما تلج به الرغبة فى الكشف عنه والافضاء به من مكنونات قلبه وترى للغريزة الجنسية أثرا فى ذاك من صنع آرائه ونظرته للحياة ولحياة المرأة عنه طابع خاص والغريزة التى لم ترو عند طه فى شبابه أخذت طريقها للداخل لترتوى عن طريق الآثار الفنية وعن طريق الخيال الحر وما دامت الصلة بينه وبين أدب الدكتور طه وفنه وأرائه وبين شخصه فى ضوء العوامل التى كونته قائمة فلنا أن نفرض نجاحنا فى معرفة شخصيته ولقد أثرت هذه العوامل والمؤثرات فى نفس طه حسين فاستجاب لها وفعلت فى عقليته عن طريق اللاشعور فتكيفت تبعا لها اثاره الفكرية والأدبية والفنية .

ويرى اسماعيل أدهم ان فن طه حسين قائم على الاغراق والتهويل ، وان الصور التى يقدمها من الحياة [يضفى عليها خياله العميق صوراً فتخرج خارقة فى تهويل

وإسراف تهز نفس القارىء وتجعله يؤخذ بما فيها من تهويل ويرجع التهويل والإغراق إلى روح اللاعب ومعالجته بهذه الروح للاشياء .

وهكذا نرى مغمزا ضخما من مغامز الاستقامة الفكرية واسلوب الأداء والتعبير وطريق البحث فإذا أضفنا اليها فى مجال النقد الأدبى عجزه عن دراسة الأدب العربى دراسة وافية وأنه لايعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من إجراء المقارنة بينة وبين الآداب الفارسية وغيرها وافقنا ماوصل اليه اسماعيل أدهم وغيره من شبهة : « عدم استيفاء أدوات البحث العلمى » .

ومع عدم استيفاء أدوات البحث العلمى يأتى (الظن) وله فى أدب طه حسين مجال ضخم ، ومن بعد الظن يأتى الهوى .

(وإن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس)

يقول أدهم : والدكتور طه فى نقده للمؤلفات العصرية والأدباء والشعراء المعاصرين يميل كثيرا مع هواه لأنه يعتبر النقد عملا أدبيا محضاً فيعمل على إظهار تذوقه وتتجلى شخصيته باغراضها وأهوائها فى نقداته ومن السهل أن تستكشف عواطف الدكتور وميوله بل وأهوائه وأغراضه ، يستكشف انه متأثر بالحب فى هذا الفصل وبالصداقة فى ذلك الفصل وبالبغض والحسد فى ذياك الفصل ومن هنا يرى الكثيرون انه ليس بعالم ولا يستطيع ان يكون بعالم وهذا صحيح إلى حد كبير ولكن الدكتور طه فى تفكيره تجد تفكير العالم وفى منطقه منطق الباحث ولكن إذا مضى يملى فانه يسبغ على اغراضه واهواءه من منطقه وتفكيره ما تنضح به اثاره من تخالط المنطق بالأغراض والتفكير السليم بالأهواء ويتطرف بحكم الهوى والأعراض أضعاف تطرفه الطبيعى فيصعب على الباحث ان يخلص بالجوانب العلمية المحضة من اثاره والنواحى الأدبية الصرفة وهكذا اختلطت الناحية الفنية بالعلمية عند طه مع غلبة للفن على العلم فكان نسيجاً وحده بين المفكرين (كذ) .

والواقع أن تعبيرات اسماعيل أدهم فيها كثير من المجاملة وإن كانت فى هدفها الحقيقى تشير إلى فساد الطريقة التى يقوم عليها فكر طه حسين وأدائه .

وفى مجال الكشف والاباحة فى أدب طه حسين يقول زكى مبارك : ان طه حسين أعلن رايه فى كتابه (مدامع العشاق) فقال أنه يحرض على الشهوات ونحن نسأل : إذن فاذا يسمى كتاب (حديث الأربعاء) وما مدى أثره فى التحريض على الشهوات» .

ولا ريب ان اتجاه طه حسين إلى أدب الكشف والاباحة من خلال كتاباته عن الشعراء المجان له هدف داخل فى طريقته ومذهبه ودعواه المسمومة التى أعلنها حين قال ان حرية الفن تحقق ما أسماه [خسرت الأخلاق وربح الأدب] وتلك هى دعوته إلى الخروج عن الأعراف والمواصفات الخلقية إلى التعبير الحر عن الأهواء والنذوات وهذا هو هدفه الحقيقى من فصل الأدب عن الفكر الاسلامى ، حتى يتيح له الانطلاق وراء هذه النذوات ليفسد المجتمع ، وان وراء مصطلحات : الفن للفن ، والصدق الفنى ، أهواء شديدة الخطر قد ردها كثير من الباحثين فى تقدم لنتاج طه حسين .

ومن هذا المنطلق نجد دعوته إلى تحريض المرأة على الرجل ودعوته إياها إلى مخالفته والخروج عن ولايته وكذلك إلى اعطاء الفتاة حرية الشباب وإلا تحرم منها بحجة التقاليد وقوله فى تربية الأبناء انه تركهم لأنفسهم وكل هذه هى أراء الماسونية العالمية التى احتضنتها مناهج الفكر الفلسفى المادى التى احتضنتها مناهج الفكر الفلسفى المادى التى أداها فرويد ودوركايم وسارتر ومن ذلك ذهابه بجرأة غريبة إلى القول بانه العصر العباسى كان كله عصر شك وزندقة وفجور ومجون واتخذ كنموذج لهذا العصر أبا نواس ووالبة ومسلم بن الوليد وأمثالهم من شعراء اللهو والعبث واعتمد على كتاب الأغانى فى إصدار كثير من الأحكام التى أصدرها من غير تحرج ولا احتياط وقد كشف زيف هذه الآراء كل الذين ناقشوا أرائه .

وقد حاول زكى مبارك فى عديد من مقالاته أن يكشف عن فساد الطريقة

فى فكر طه حسين فقال : لقد انكشف أمر طه حسين منذ أصدرت كتاب النثر (١) الفنى فقد بينت أغلاطه وسرقاته وتحديته أن يدافع عن نفسه فتخاذلت قواه ولم يملك الجواب وعرف الأدباء فى المشرق والمغرب انه لا يملك شيئاً أصيلا وان مؤلفاته ما هى إلا هلاهيل انتزعها من كلام الناس وان ما يدعيه من الآراء ليس إلا صوراً ملفقة انتزعها مما يقرأ ويسمع ، وان هذا الرجل لم يكن فى كل أدوار حياته العلمية إلا مرتزقاً يتلمس فتات العلماء كلما نصبوا موائدهم أو أوقدوا نارهم ولم يستطع إلى اليوم أن يواجه تلاميذه ببحث أصيل ، وقال انه لا يحسن أسلوب الكتابة إذا حاكمته إلى الذوق العربى والبلاغة اللغوية وهو ليس متخصصاً بدراسة تاريخ الأدب ، لم يتلقه عن أستاذ ولم يلم به فى مدرسة وإنما علم من ذلك ما يعلق بذهنه من مطالعة كتب الأدب لا ليدرسها ولكن ليراها . وآية ذلك تكذيب القرآن والتوراة والانجيل وتهوين شأن النبى محمد ونسبته إلى التحايل بالأساطير والتهكم بالاجلاء من الصحابة ورميهم بالمخاتلة وعدم التأثر بتعاليم الإسلام إلا ظاهراً وبتكذيب صريح الأحاديث الصحيحة وتعطيل أحكامها والخلط فى الأعراض والأنساب والنتائج والأسباب .

ويقول العقاد : ان طه حسين صحيح الأصول فى النقد ولكنه لا يوفق بين أصوله وطبيعته فى كثير من الموضوعات وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف أحياناً عن الصواب ، أليس الدكتور يوصى بمبدأ الشك أو مذهب ديكارت ، بلى ، ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها فى عبارات الشاكين المترددين فلا يعجب أكبر ما يعجب إلا أشد الاعجاب ، أو إعجاباً لاحد له ، ولا يقنع بما دون الاسراف ولا يغضب الذين يتحدث عنهم إلا غضباً شديداً ولا يضيق إلا أشد الضيق ، ولا يتكلمون إلا بصيغة المبالغة فى معظم الأحيان ثم ينتقل من هذا إلى تشكيك يذكرك

(١) مجلة الصباح : ٢٠/١٣ سبتمبر ١٩٣٥ .

(بالنشاء الله) التى قالها جحا حين ضاع المال فقال ضاع المال إن شاء الله ، كان الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جحا من تلك التى يشبهها فضاع ماله فأنت تسمع منه .

أزعم انى ضحكت ، قد أزعم ، وقد أزردد ، وقد أقول ، قد لا أقول ، مع ان المرء لو أقسم جاهداً « والله لأزعمن ، وتالله لأزددن ، وبالله لأقولن ، لما خرج بالقسم عند الزعم من دائرة الشكوك والقاعدة تستقر على اطراد إذا كانت هى والطبع على وفاق غير انها عرضة للاختلاف إذا وقع بينهما الخلاف . ومن هنا نرى الدكتور يقول مرة ان أصول النقد الأدبى واحدة قد وضعها اليونان قديماً وفرغوا منها وتلقاها منهم الانجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لا يختلفون . ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة ان النقد ليست له أصول مقررة عند الناقد فضلا عن الأمم الكبيرة والعصور الكثيرة وان الناقد يستحسن أو يستهجن والمرجع إلى ذوقه وحده فى استحسانه أو استهجانه ولعل هذا التباين بين القاعدة والطبع هو الذى جعل الدكتور ينكر الجديد إذا جاء فى زى القديم أو هو الذى جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها فى حكم الطبيعة لأنه يجرى على مطابقته على القياس » اه .

وإذا كان هذا هو رأى زميل عمره والرجل الذى دافع عنه فى مجلس النواب إزاء الحملة على كتابه الشعر الجاهلى هو هذا ، فان ذلك هو رأى أساتذته أيضاً فى الأزهر والجامعة القديمة التى لم تكن جامعة بالمعنى المفهوم منها وإنما كانت قاعة محاضرات مفتوحة لكل من يريد بغير قيد .

يقول السيد محب الدين الخطيب : لا أنسى والشيخ طه طالب فى الجامعة المصرية كلمة سمعتها من فم أستاذه الشيخ محمد المهدى فقد حضر ذات مساء من درس الآداب العربية فى الجامعة وجائنا فى مجلس حافل كان فيه الشيخ طاهر الجزائرى ورشيد رضا وجعل يشكو جرأة تلميذه على المناقشة فى مباحث لم

لم يستكمل أدوات العلم بهـا ولا عماد له فى المناقشة غير السلاطة والذكاء ثم قال لنا الأستاذ :

« ان رأس هذا الفتى كالقدر الفارغة تحتها النار تتلظى فلا هو يشفق على القدر فيملأها بما يقيها جور النار ولا هو يبقى على النار إلى أن يتسنى لها الانتفاع بها فى الوقت المناسب » يريد الأستاذ المهدى أن طه حسين يتسرع فى اقتحام الأبحاث العلمية مخدوعاً بذكائه ومكتفياً بما يقع تحت يده من كتب قريبة المآخذ ظاناً منه ان فيها العلم كله وان فى الذكاء وطول اللسان غنى عن مواصلة البحث ومواصلة الاستقصاء » .

ويتفق هذا مع ما قاله بعض المقربين إليه (لا أدرى الزيات أم أحمد أمين أم غيرهما) من ان كتابات طه حسين كالخروب أغلبه خشب وأقله سكر ، فهو يداور المسائل ويلف ويوسع ويصمد وينزل حتى يكتب خمس صفحات فى موضوع يمكن إذا أردت تلخيصه أن يقع فى خمسة سطور .

ولعل زكى مبارك لم يكن مبالغاً حين قال : عرفته رجلا قليل الاطلاع ، لايفهم الشعر إلا بعنف شديد وقد ألقى محاضرة عن البحترى فكتب زكى مبارك فى جريدة البلاغ يقول : (الدكتور طـه يخطىء خمس مرات فقط فى محاضرة واحدة) .

يقول مبارك : فلما ظهرت الكلمة انزعج الدكتور أشنع انزعاج وسارع أصدقائه فرجونى أن أكف عنه لا سيا وانه رجل اخرج من الجامعة وهو يحاول أن يكسب قوته فى جريدة كوكب الشرق . فسكت عنه يؤمئذ ايثاراً للترفق برجل ضعيف . لقد درست طه حسين من جميع نواحيه فوجدته قليل العلم جداً ورايه ضعيف أبشع الضعف فى فهم النصوص ولم يقرأ فى حياته كتاباً كاملا وإنما فقرات من هنا ومن هناك وكان طوال حياته ظلا من الظلال فى عالم السياسة ولم يترك حزباً إلا خدمه ودبج فى تقريظه ألواناً من الرسائل الطوال ، والدكتور طه مقلد فى كل شىء حتى لتراه يهز كتفيه على الطريقة الفرنسية .

ويقول زكى مبارك : انه ينقل من كتب الغرب ، فأحياناً ينقل الأسماء العربية بفرنسيتها دون أن يتنبه لها . وقد نشرت له جريدة السياسة محاضرة كان ألقاها جاء فيها :

« ولكن شجرت بين الفريقين اليمانيين والقيسيين (معركة مرجرات) هذه كلمة لا يعرف العرب ، وإنما هى (مرج راهط) وعذر الدكتور طه انه كان يذهب إلى حديقة المستشرقين فى الليل ينتهب تفاحة أو تفاحتين . حسب ان مرجرات كلمة فارسية فراح يلوكها فى محاضراته » .

ولقد أشارت إلى هذه الواقعة مجلة الجامعة الإسلامية فى حلب (١٣ اغسطس ١٩٣٤) وقال الأستاذ اسماعيل مظهر فى مجلة العصور م ١ س ٦٥١ .

اتضح لى وأنا أقرأ الملخص المقتضب ان المحاضرة برمتها منقولة نقلا سقيما عن أحد المستشرقين الذين لم يدرسوا الموضوع درساً وافياً .

ولما نشر الدكتور طه كتابه فى الشعر الجاهلى ذكرنى الكتاب ببحثين فى الموضوع أحدهما نشرته السيدة مسز بلنت والثانى أطلعنى عليه المرحوم الدكتور صروف كتبه الأستاذ مرجليوث فى بحث الشعر الجاهلى ونحى فيه منحى الدكتور طه عينه بل وزاد فيه بحثاً مستفيضاً فى معانى الألفاظ التى استعملت فى الشعر الجاهلى والتى وردت فى القرآن وقد أردت حين نشر كتاب الشعر الجاهلى أن أمضى فى مقابلة أتناول فيها بحث مرجليوث وبحث طه حسين (والأول أسبق من الثانى فى النشر) غير ان الدكتور صروف منعنى عن هذا واخذ الكتاب منى غير ان نشر هذا التلخيص للمحاضرة قد أعاد إلى هذه الذكرى على انى لا أنكر أن فى الكتاب استنتاجات ذهب بها مؤلفه مذهب « التطرف وعدم الاحتياط » .

ولهذا سبب تكوينى فى ذهن طه حسين لا يتيسر له أن ينفك عنه بسهولة . والسبب هو أن الذين ينشئون فى الجمود ، ينزعون منزع التطرف فى الاستنتاج عند أقل احتكاك يشتمون به من ريح الحرية الفكرية مفهومة فهماً سقيما

ولديك دليل لا يحتاج إلى مناقشة ، فقد جاء فى سياق المحاضرة [شجرت بين الفريقين اليمانيين والقيسيين معركة مرجرات انتصر فيها اليمانيون على خصومهم وهذا يدل على ان الأستاذ يعتمد على مستشرقين لا يزالون حتى اليوم غير عارفين بالنطق العربى للاماكن التى وقعت فيهـــا المعارك . فقال الأستاذ مجاراة لهم (مرجرات) والحقيقة ان اسمها موقعة (مرج راهط) وهو موضع يعرفه المبتدئون فى درس تاريخ الإسلام .

وقد كتب هذه الموقعة المستشرق دوزى فى كتابه اسبانيا العربية وذكر شيئاً عن زفر بن الحارث وهو ممن كان لهم علاقة كبرى بالموقعة . فلو ان الأستاذ لم يكن قد نقل من المستشرقين نقلا سقيما إذن لقال مرج راهط بدلا من مرجرات كما كتبها المستشرقون » (ومما يذكر انه قال : اورتاس بدلا من الحارث) اهـ .

ويلاحظ فى هـذا ما ذكره سكرتير طه حسين فى مذكراته عن قدرته على استيعاب ما يقرأ فى الصباح من كتب المستشرقين فإذا ألقاه فى المساء جاء منقولا نقلا كاملا دون أن يفقد حرفا واحداً وتلك قدرة عجيبة على الاستيعاب وعلى النقل أيضاً .

وإذا كان تلميذه وتابعه فى فكره وهدفه (اسماعيل أدهم أحمد) قد أحصى عليه أخطاء خمسة فى طريقة البحث هى :

- مزج الجانب العلمى بالجانب الذاتى أو الفنى .
- عدم التحوط فى البحث .
- بعض التطرف فى الاستنتاج .
- السطحية فى استقصاء الأسباب .

فإننا قد أضفنا إلى ذلك الخطأ فى النقل ، والتبعية فى الرأى ، والإسراف فى الهوى ، واتباع الظن .

وهناك ما يصوره تلميذه عزيز أحمد فهمى (الثقافة ٤ سبتمبر ١٩٤٥) حين

يقول : كما يتمتع أستاذى بمحسنات الفرنسيين فإنه أيضاً مصاب بعيبهم ، فيه منهم الاندفاع ، لا أريد أن أقول انه نزق ، فهو إذا خاصم إنساناً لم يعرف الهوادة فى خصامه . فإذا ملك خصمه حطمه تحطيماً ونسفه نسفا ، كما انه إذا أحب إنساناً لم يعرف الهوادة فى حبه فإنه إذا ملك رفعه إلى أعلى عليين بلا تحفظ أو حذر » .

وهذا ما يمكن أن يسمى بالمبالغة ، ومن مبالغاته ما كتبه عن ديكارت حين قال انه يعرف من الأسرار عنه مالو قاله لدكت له أسوار السربون ، وماذكره عن عبد الخالق ثروت الذى كان عونه وحاميه أيام محنته حين يرى انه أعطى أمتـه الدستور ، وانه (ليس بين المصريين فى العصر الحديث من نشر أعلام مصر المستقلة فى أقطار الأرض إلا ثروت) .

ومن ذلك أيضاً « النفاق » فانه حين دخل الوفد وكان العقاد أبرز كتابه سعى لاسترضائه فأعلن فى احتفال كبير ان العقاد هو أمير الشعراء بعد شوقى ، وكان قد أهدى إمارة الشعر للزهاوى ، ثم عاد بعد ذلك فسحبها منه حين أعطاها للعقاد ثم سحبها من العقاد وأهداها لمطران ، وهو فى هذا يقول للعقاد فى مقدمة ديوانه (سيدى الأستاذ الكبير : أنت أقمت للكروان ديواناً فخماً فى الشعر العربى فهل تأذن لى أن أتخذ له عشا متواضعا فى النثر الحديث . (١٥ سبتمبر ١٩٣٤) ولما مات العقاد أعلن طه حسين انه لا يفهم كتابه عن عبقرية عمر ! .

ومن نفاقه خطابه فى الجامعة بعد عودته محييا الوفد ورئيسه وسكرتيره .

ومما قاله عن مكرم عبيد : أراه شابا فامثال مكرم لا يمكن أن يشيب لأنه لا يريد أن يشيب ولأن طبيعته فوق المشيب . كنت أسمعه يخطب فكان يخيل إلى إنى أقرأ ذلك الفصل البديع من كتاب الخطابة لأرسطو عن الشباب . وقال فى هذا الحفل : إذا خطب الأستاذ مكرم فلا ينبغى لغيره أن يخطب معه .

وهناك « الحقد » : لما سئل عن كتاب النثر الفنى للدكتور زكى مبارك

وكان خاصما له وهو كتاب فى ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير قال عنه انه : كتاب من الكتب ألفه كاتب من الكتاب !

وقال زكى مبارك رداً على هذا : ان الدكتور طه يعلم علم اليقين ان كل نسخة توزع من كتاب النثر الفنى فهى سهم مسموم مصوب إلى صدره لذلك فهو يتجاهل اسم المؤلف واسم الكتاب .

ومن مكره : انه حين احتفل فى قصر الزعفران بمهرجان شوقى وكان هو من خصومه ، ألقى محاضرة عن الشاعر النصرانى (الأخطل) لا عن شوقى بحجة ان الجامعة لا تؤرخ الأحياء ، وهو نفسه الذى ارتضى أن يدرس أسلوب أحمد أمين فى كلية الآداب وهو حى .

ولقد سجل الكثيرون على طه حسين ما أسموه « خلة التطاول على ذوى الأقدار وأهل الفضل من رجالات مصر » جريدة الاتحاد ١٩ مارس ١٩٣٢ — قالت : ان الدكتور طه كان يجمع إلى خله الجهر بالالحاد والتشكيك فى الإسلام خلة أخرى هى التطاول على ذوى الأقدار وأهل الفضل من رجالات مصر ، فما ترك عظيما أو سياسيا أو نابغة فى البلاد إلا وانتقص من قدره وبسط فيه لسانه بأقبح الألفاظ وأقذع عبارات الشتائم والسباب .

« أما الضعف النفسى عند الدكتور طه فواضح ، فقد حدث يوم طلب إليه تأدية الحساب عن طعنه فى الإسلام فى كتابه الشعر الجاهلى انه قال انه يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر » .

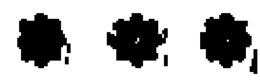
ويومها كتب الشيخ عبد ربه مفتاح مقالا فى الأهرام تحت هذا العنوان : « الآن وقد عصيت قبل » وهى العبارة التى أوردها القران فى الرد على فرعون عندما أعلن إيمانه وهو فى حالة الغرق .

وقد أشار كثيرون إلى هذا المعنى فقال داود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام :

« لو انا أخذناه على سبابه لما بقى شىء يسمى طه حسين » .

وقال الدكتور محمد محمد الصبيحى : وصفوه بأنه سباب شتام أحمق ضيق الصدر لا يقدر على ضبط ما يخرج من فمه ولا ما يسيل من قلمه فاتهموه بأنه سفيه اللفظ ولا يعرف كيف يطعن الطعنة النجلاء دون أن يسجل على نفسه تهمة التحامل والحقد (النهضة الفكرية ١٢ ديسمبر ١٩٣٢) .

وبعد فهذا إجمال عن طريقة البحث عند طه حسين له تفصيل مستطرد .



الفصل الثالث

ظاهرة التحول والتناقض

لعل من أشد المواقف أهمية فى حياة طه حسين ذلك التحول الخطير فى موقفه من الذين عرفهم من قبل سفره إلى أوربا وعمل معهم وتأثر بهم :

المنفلوطى : محمد عبده ، أحمد زكى باشا .

أما التحول فى موقفة من المنفلوطى فانه يؤكد خطة انتزاع نفسه من المدرسة الوطنية التى كان فيها على ولاء للشيخ عبدالعزيز جاويش ، كتب هذه الفصول فى ظل هذا الاتجاه وهى فصول لم تكن طارئة أو خاطفة ولكنها كانت معقودة بخطة واتقان وقد استمرت قرابة عام كامل تحت عنوان : نظرات فى النظرات حيث امتد من مارس إلى ٢٥ نوفمبر من عام ١٩١٠

أخذ بها طه حسين على صاحب النظرات جملة من الأخطاء اللغوية وقال« إن أول عيب يأخذه على صاحب النظرات » أنه شنوف كل الشغف بذات غيره وأنه منكر كل الإنكار لذات نفسه ، وأن السرقة فى كتابه شائعة شيوعا فاحشا ولست غاليا إذا قلت أن اسم كتابه مختلس من ديوان النظرات للرافعى أما العيب الثالث فانه أبعد الناس عن توخى الحقيقة . وأحبهم لاصطناع الخيال سبيلا إلى غايته والعيب الرابع أن لصاحب النظرات ألفاظا ومعانى وأساليب تشغفه

كل الشغف فلا تزال فى كتابه حتى تمجها الأسماع وتسأمها النفوس ، والخامس والسادس أن الكاتب على شغفه بجودة العبارة وحسن الاشارة وكلفه بأن يكون كلامه لحما سهلا وخفيفا جذلا وأن يكون أسلوبه رشيقا كثيرا يلجئه المرح إلى سخف فى الاستعارة والتشبيه (وهذا ما أورده أحد الباحثين فى مجلة السياسة الأسبوعية سنة ١٩٣٧) .

وإذا كان لنا أن نقول شيئا فى هذا النقد فإن فى الإمكان أن تؤخذ به كتابات طه حسين نفسه الذى عرف بالألفاظ التى يكررها والأسلوب القائم على ترديد العبارات ذات الرنين ومن عجب أن يتحول طه حسين عن المنفلوطى مرتين ، هذه المرة قبل سفره إلى أوربا بالإنكار والنقد ومرة أخرى بعد عودته أما هذه المرة فإن الناس يذكرون قوله : (لقد كنت أمقت المؤيد كل المقت إلا يوم تنشر فيه نظرة أو أسبوعية فقد علم الله أنى كنت أشغف به كل الشغف وأقبل عليه كل الاقبال) .

يقول فى مذكراته : (قرأ الفتى الفصول الأولى من نظرات المنفلوطى راضيا عنها معجبا بها ثم لم يلبث أن سئمها وانصرف عنها ولكن لم يكد يراها مجموعة فى كتاب حتى ضاق بها أشد الضيق وكتب يعيبها ويغض منها ، وفرح الشيخ عبد العزيز جاويش بما كتب الفتى أشد الفرح ، واستزاده من الكتابة وحرضه عليها وألح فى التحريض حتى ألقى فى روعة ألا يدع فصلا من فصول المنفلوطى إلا اختصه بفصل من النقد وكان الفتى قديم المذهب فى الأدب لاينظر منه إلا إلى اللفظ ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة فكان يعيب المنفلوطى عنده أنه يخطىء فى اللغة ويضع الألفاظ فى غير مواضعها ويصطنع ألفاظا لم تثبت فى لسان العرب ولا فى القاموس المحيط .

وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشىء من الشتم لم يكن بينه وبين النقد صلة ، ولم ينس الفتى مقالا دفعه ذات مساء إلى الشيخ جاويش فلم يكد يقرأه حتى طرب له وابى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك .

ولم يتردد طه حسين فى أكثر من موقف من أن يعتذر عن هذه المقالات ، يقول: لم أخجل من شىء فى كل ما كتبت قدر خجلى من هجومى على المرحوم المنفلوطى ، فالذى كتبته عنه كلام فارغ فقد كنت أستعين بالقاموس ضد المنفلوطى ، وكنت فى ذلك الوقت فى العشرين من عمرى ، وكان همى أن أعثر بين كلمات المنفلوطى على كلمة بها خطأ نحويا أو لغويا وكنت أعتمد على معجم واحد لا كل المعاجم . »

والأمر عند هذا الحد أشبه بالرجوع إلى الحق ، والاعتذار عن موقف ولكن للأمر خلفية أخرى لا يعرفها الكثيرون كشف عنها السيد محب الدين الخطيب (الفتح ١٨ نوفمبر ١٩٢١) وطه حسين حى ولم يعارضها أو يردها . يقول : لما التحقت بقلم المؤيد (١٣٢٧ — ١٩٠٩ م) كان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رحمه الله من أفاضل كتاب تلك الصحيفة الاسلامية ، وكانت له فيها مقالات أسبوعية بعنوان النظرات امتازت بطلاوتها وجمال ديباجتها ونبل مقاصدها ، وقد لقيت الحظوة عند قراء العربية .

إن طه حسين حسنه من حسنات كتاب النظرات أو سيئة من سيئاته ، إن قراء العربية لم يكن لهم بالرجل عهد ولا كان عندهم شيئا مذكورا قبل ظهور مقالاته فى نقد هذه النظرات مذيلة باسمه فكان الناس يقولون . وكنت أقول مع الناس : يالها من مقالات تنم عن اطلاع صاحبها بلغة العرب لولا ما فيها من بذاءة وتحامل لا يتجمل بها المنتسب إلى العلم والمتأدب بادبه وكان فى القراء من يتسع صدره لاغتفار هذا الجانب الضعيف من مقالات الكاتب فى مقابل ما وراءه من معرفة . ولكن هل تدرى أيها القارىء ما هى حقيقة تلك المقالات : ان تلك الحقيقة بقيت سراً مكتوما سنين طويلة وأنا نفسى لم أعرفها إلا اتفاقا .

لما ظهرت الطبعة الأولى من (النظرات) وجد فيها بعض الأفاضل من رجال الحزب الوطنى فقرات آلمتهم فرأوا أن تعمل صحيفتهم وكانت تنشر يومئذ باسم العلم أو الشعب على انتقاد النظرات والحط من شأنها وكان فى قلم تحرير تلك الصحيفة كاتب ضليع وأديب تحرير هو صديقى وزميلى الآن فى تحرير الأهرام ـ الأستاذ محمد صادق عنبر ـ فدفعوا إليه كتاب النظرات وطلبو اليه ان يقرأ منه كل يوم بضع صفحات فيعرض ما فيها من المفردات والتراكيب على

نصوص العربية وقواعدها وأساليبها ويضع إشارات على ما ينتقده منها ويكتب فيما يلي ذلك من الهامش وجوه الصواب بأدلتها . ومضى الأستاذ صادق عنبر فى عمله هذا زمناً طويلا وكانت الصفحات التى يودعها علمه فى اللغة والبلاغة والأدب تعطى يوماً بعد يوم إلى الشيخ طه الطالب الأزهرى المنصرف عن دروسه العلمية فى الأزهر إلى التردد على أبواب الصحف فيفرغها هذا فى فصول كان النـاس يقرأونها فيغفرون ما فيها من سلاطة طه حسين وهذره ، لما فيها من علم صادق عنبر وأدبه ، حتى لقد رأيت يومئذ من يرفع كاتبها إلى منزلة صاحب (الضياء) فيما كان ينبه عليه قبل ذلك من أغلاط لغة الجرائد ، وهـذا هو العمل الأدبى الأول الذى تقدم به طه حسين إلى قرائه وكان من نتائج تردده على أبواب الصحف أثناء دراسته الأزهرية خروجه صفر اليدين منها رغم الذكاء الفطرى فى أمثاله ولعل عدم نجاحه فى الأزهر كان خميرة عداوته له وحنقه على أهله » .

(٢)

أما موقفه من الأستاذ الامام محمد عبده فانه يختلف عن ذلك اختلافاً بيناً ، ذلك ان طه حسين الذى كان يرى أن صلته بالشيخ قبل سفره هى قمة طريقه إلى النجاح والنهضة قـد غير هذا الرأى من بعـد ، فيقول : حتى إذا أرسلت إلى القاهرة وانتسبت إلى الأزهر الشريف رأيت نفسى فى بيئة من الطلاب المتقدمين لا تعدل بالأستاذ الامام أحداً من رجال الأزهر ولا ترضى أن تقيسه إلى أحـد من علماء الإسلام وإنما تعجب به إلى غير حد وتكبره من غير تحفظ وتتعصب له إلى أقصى ما يستطيع الإنسان أن يتعصب .

ثم يقول : «إلى أن ألقى هذا الرجل وأسمع منه ولكن كيف السبيل إليه وهو يلقى دروسه فى الرواق العباسى ويقوم من دونه على الباب (الغراب) وأعوان الغراب وما كان أكثر الحديث عن الغراب حين كان الشيخ يدعوه أثناء الدرس ليخرج طالباً ثائراً أو محافظاً مشاغبا وإذا أنا أصبح داعية من دعاة الشيخ أعود إلى الريف أثناء الصيف فأدعوا إلى ما كان ينقل إلينا من الشيخ من أن التوسل

بالأضرحة والأوليـاء لا يلائم الدين ولا يوافق صفاء الإسلام وإذا أنا أثير من حولى شكوكاً وريباً .

ويقول : وكنت كلما تقدمت بى السن ازددت لآراء الشيخ فهماً وازددت بالشيخ إعجاباً حتى أنشئت الجامعة المصرية وأقبل هؤلاء العلماء الغربيون يعلموننا فيها فشغلت بهم وانصرفت إليهم وأخذت أنسى الشيخ وآراءه شيئاً فشيئاً .

ويقول : ثم تكون الرحلة إلى أوربا والإقامة فى باريس فى أشد الأوقات حرجاً وأشدها شراً ونكراً وأحفلها بما تغيرت له قيم الأشياء تغيراً تاماً . وإذا كل صلة بينى وبين الشيخ قد انقطعت وعفت عليها الأحداث والخطوب وإذا أنا أعود إلى مصر رجلا آخر ، يكبر الأستاذ الإمام ويعجب به ولكنه لا يتابعه ولا يحب أن تبقى طريقته فى التفكير أساساً للحياة العقلية لهـذا الشباب المصرى الناهض » .

وهكذا نجد أن منهج الدكتور طه الذى تلقاه فى باريس وفى مدرسة اللغات الشرقية وغيرها يدعوه إلى أن يغفل هذا الاتجاه الذى كان يسير فيه الشيخ محمد عبده لأنه متصل بحركة اليقظة الإسلامية وان عليه أن يسير فى الطريق الآخر الذى أنشأه الاستشراق والتبشير وسار فيه دعاة المقتطف والمقطم والأهرام وخصوم الإسلام والدولة العثمانية والداعون إلى النظرية المادية : شبلى شميل وجرجى زيدان وغيرهم .

(٣)

كذلك كان موقف الدكتور طه حسين من أحمد زكى باشا شيخ العروبة : كانت المكتبة الزكية ملتقى هذا الشباب فى أول العهد يقرأون فيها ويوجههم زكى باشا إلى النصوص وفحص المخطوطات وغيرها ، ثم كان زكى باشا واحداً من أساتذة الجامعة المصرية القديمة ولكن الدكتور طه قد نسى هذا التاريخ كله بعد عودته من أوربا .

يقول طه حسين : كنا نلتقى فى داره ثم نلتقى فى مكتبته بعد أن أنشئت له

مكتبة فى قسم من أقسام دار الكتب المصرية فى باب الخلق . كنا نلقاه مساء كل يوم فنقضى معه ساعات طوالا وربما انتصف الليل ونحن نبحث عن كلة أو نحاول تحقيق جملة .

ثم يقول : « ثم أعود من أوربا وقد تغير عقلى تغيراً شديداً ، وألقى الباشا لقاء التلميذ الوفى المعجب لا لقاء التلميذ الذى شارك أستاذه فى الرأى والنهج ومذهب البحث ولم أكن أشبهه فى النشاط ولكنى كنت أشبهه فى الاقناع فيشتد الخلاف فى الرأى بينى وبينه ويمضى كل واحد منا فى طريقه نلتقى من حين إلى حين على مودة ولكنا لا نتفق فى مذهب من مذاهب العلم أو منهج من مناهج البحث » .

وهكذا نجد طه حسين وقد عاد من أوربا يحمل لواء الخصومة لكل ما كان من أصالة ، وما كان يحمله رجال الفكر الاسلامى من رأى .

ولقد دخل طه حسين فى معارك مع أحمد زكى باشا ووقف منه موقفاً غير كريم ، ذلك أن طه حسين أيد ما قاله المستشرقون من تحريق المسلمين لمكتبة الاسكندرية ونشر فى جريدة السياسة تقريراً « لكازنوفا » فى هذا الشان فلما رد عليه أحمد زكى باشا كاشفاً زيف رأى الاستشراق وأتباعه وقف منه موقفاً غير كريم .

ومثل هذا ما فعله مع أستاذه فى الجامعة الأستاذ محمد الخضرى حين أغلظ له القول لأنه نقى وطهر كتاب الأغانى مما يضمه من سوءات وكشف وشعر رخيص .

لقد تحول طه حسين فى آرائه واختلف مع كثير من أساتذته بعد أن اعتنق المذهب الحديث فى الفكر على النحو الذى صوره حين قال : « ثم تكون الرحلة إلى أوربا والاقامة فى باريس فى أشد الأوقات حرجاً وأحفلها بما تغيرت له قيم الأشياء تغيراً تاما » .

وقد وقع هذا التحول بالنسبة لكل من كان يعرفهم قبل سفره : أحمد زكى باشا ، محمد عبده ، عبد العزيز جاويش ، الشيخ مهدى ، الشيخ الخضرى .

ولا ريب ان من أخطر أحداث حياة طه حسين ذلك التحول الذى حدث له بعد أن سافر إلى أوربا فاكسبه تلك الشخصية الجديدة التى ظلت تتراوح مع شخصيته الأولى طيلة حياته وما كان لهذا الازدواج من أثره فى التناقض الذى عرف فى حياته كلها فانك إذا رجعت تراثه كله لوجدت فيه كل شيء، الشيء وضده، والقول ونقيضه، ذلك ان الرجل كانت لديه المادة الكافية لكل وجه ولكل طريق، المحاسن والأضداد، ان للرجل آرائه الحقيقية التى يصر عليها ويراوحها بين آن وآخر، ولكنه لا يمتنع عن تغيير رأيه كلما تغيرت الظروف، ليسلك سبيل الأمن فى أوقات المعارضة، ثم يعود إلى آرائه مرة أخرى فيثيرها من جديد بطريق جديد. ونحن إذا راجعنا ما كتبه تلاميذ طه حسين نفسه وهم أصحاب الولاء لوجدناهم يصرون على وجود هذه الازدواجية والتناقض: يقول فتحى غانم:

« هل طه حسين ملحد أم مؤمن، هل يؤدى فرائض الدين فيصلى ويصوم، هل صاحب (على هامش السيرة) لا يقرب الخمر، ولا يأتى من الأفعال ماحرمه الله على عباده الأتقياء، هل طه حسين ديمقراطى أم محافظ أم استقراطى، أسئلة وأسئلة حار الكثيرون فى الاجابة عليها فاختلفوا وتناقضوا وتصارعوا ولم يصلوا ولن يصلوا إلى رأى واحد ينتهون عنده، قام رجال الأزهر ونواب الأمة وشيوخها وقعدوا وعلى رأسهم سعد زغلول ينادون بالحاد طه حسين وكفره ومروقه على تعاليم الدين الحنيف لأنه درس فى الجامعة كتابه (فى الشعر الجاهلى) فشكك فى بعض آيات القرآن الكريم، وقام رجال الأزهر ونواب الأمة مهللين مكبرين لكتب طه حسين الدينية التى تفيض بالايمان والتدين، وكان طه حسين ربيباً لعبد الخالق ثروت، وعدلى يكن رئيس حزب الأحرار وصديقا لهم يكتب فى جريدتهم السياسة ويعيش فى كنف أصحاب البيوتات والأيدى القوية الارستقراطية ويهاجم الحزب الوفدى ويصرح بأنه يمقته مقتا شديداً ويزدريه ازدراءاً لا حد له، وانه سخف سياسى منكر، ثم أصبح طه حسين أحد أعوان الوفد الذى يمقته ويزدريه وخطب فى آلاف المعلمين الالزاميين يصف لهم محاسن الوفد وحكمة رئيسه وأعوانه ومنذ أعوام استمع آلاف الطلبة فى الجامعة إلى طه

حسين وهو يقول : « نضر الله وجه فؤاد العظيم » ومنذ سنوات صودرت كتب طه حسين وقيل انه صديق للشيوعيين وبعد سنوات طالب طه حسين بنشر الأدب الأمريكي فى الشرق العربى ، عشرات وعشرات من الأمثلة تدلنا على الذبذبة والحيرة التى عاناها طه حسين وعانيناها نحن أيضا وهو لا يستقر على حال فى الدين أو السياسة .

ونجده يقول : « أنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى فى الأدب لأنى لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو » .

« لا يستطيع الأدب ان يخضع لنظام أو يذعن لسلطان إلا سلطان هذا الشيطان الذى يلهمه ويوحى إليه » هذا هو أدب طه حسين فوضى لا شعور ، شيطان شغوف بالفن لا بالحياة ، وليس هذه الكلمات إلا معنى واحد لا نحيد عنه ، هذا المعنى يعبر لنا عن كلمات مثل الأنانية والغرور ، وحب النفس والخوف من التجديد إلا بالمقدار الذى يتيح لطه حسين حريته الشخصية فى أن يكون فوضوياً أنانيا مغروراً ، فعندما قاد طه حسين حملة التجديد فى الأدب العربى للقضاء على أساليب الكتاب القدامى واتهم مصطفى صادق الرافعى زعيم هؤلاء الكتاب بأنه يكتب بأسلوب سخيف معقد غير مفهوم لم يحاول طه حسين كناقد أن يتبين تأثر أدب الرافعى بحياتنا الاجتماعية والسياسية فى ذلك الوقت وحصر همه فى القضاء على بضعة ألفاظ لتحل محلها ألفاظه هو وجاهد جهاد الأبطال ليوضح لنا فساد ذوق الرافعى ليبيع لنا ذوقه هو ، انه مخلص لنفسه أشد الإخلاص يحب صوته ويترنم به ، ويحب أسلوبه ويشيد به ، يحب ذوقه المصفى الخالص ، يحب اللغة الفرنسية وآدابها ويتغنى بجمال اللاتينية واليونانية ، ويحب أن يتيح للناس جميعا فوضى شاملة مثل الفوضى التى ينعم بها ويريدهم جميعا أن يتمتعوا باللغة الفرنسية كما يتمتع بها ، وأن يقدروا عظمة اللاتينية واليونانية كما يقدر هو عظمتها ، ان الدين عند طه حسين هو دين خاص به ، شعر ونغم وإيقاع داخلى وطرب » .

« وعلى هذا المنوال : تستطيع تفسير حياة طه حسين ، يرضى الأحرار

الدستوريين عن ذوقه وأدبه فيرضى هو عنهم ويسخطون فيسخط أيضا ، ويرضى الوفديون فيرضى ويسخطون فيسخط ، وترضى السراى فيرضى وتسخط فيسخط ، ان طه حسين يحتمى وراء لغته وهى بين بين ، وهى ليست جديدة كل الجد عليها ، أنها لا تقطع فى شيء أبداً ، بل هى مرنة تصلح للف والمداورة لا تصف شيئا بأنه أبيض أو أسود ، بل تصفه بأنه أقرب ما يكون إلى السواد وأقرب ما يكون إلى البياض ، وهذه الطريقة فى التعبير ، هى مرآة صادقة لحياة طه حسين التى هى دائما بين بين ، انها لغة لا تصلح للشعر ولا للمقالة ، انها تصلح فقط لطه حسين وهى لا تصلح له كأديب بل تصلح له وتساعده فى حياته السياسية والاجتماعية وفى التعبير عن مشاعره الدينية على السواء » .

(١١ أغسطس ١٩٥٤ — آخر ساعة)

ويعترف طه حسين فى كتابه من حديث الشعر والنثر اعترافا خطيراً حين يقول :

[إنى أعرف نفسى أكثر مما يعرفها غيرى وأن الذين ينتقدون ويعيبون ويشهرون لا يعرفون من عيوبى إلا أقلها] .

ويرى طه حسين ان هذا التناقض لا عيب فيه ، وانه أمر طبيعى ، لأن الأوربيين كذلك ، وكان أولى به أن يعرف أن دين الإسلام قد حال بين الانسان وبين التناقض وسلك عقله وقلبه فى إطار واحد ولكن طه حسين يفكر ويعتقد على أسلوب الغرب .

يقول طه حسين : «أنا كمسلم أعلن انى لا أرتاب فى شيء مما اشتمل عليه القرآن ولكنى كعالم أسلك إلى البحث مناهج العلم ، قال ذلك أمام النيابة العامة (٢٨ أكتوبر ١٩٢٦ — جريدة السياسة) بصدد إنكاره وجود إبراهيم وإسماعيل وإنكار ان تكون الكعبة من بنائهما وإنكار هجرتهما إلى مكة مع وجود ذلك فى القرآن » .

وقال أحد المعلقين : وهكذا دافع الدكتور عن نفسه بأنه يعتقد الشيء وضده

ويجمع بين المتناقضتين فى الأعتقاد فى عقائده اعتقاد بوجود إبراهيم وإسماعيل وبنائهما الكعبة واعتقاد بعدم وجودهما وعدم بنائهما الكعبة .

ويتصل هذا التناقض والتردد فينتظم كل حياة طه حسين وفكره .

يقول الدكتور عمر فروخ فى الحديث عن طريقته فى البحث :

فهو أبداً متردد بين المفهوم وغير المفهوم والمتحول والثابت والممكن وغير الممكن لم تر، فى كتاب إلا داعية للشك ولا فى مقال إلا آخذاً بالظن . لم يثبت فى حياته شيئاً بل كان ينفى ما ثبت بنفسه بنفسه . انه يقول : لعل . . ربما ولسنا نقول شيئا جديداً ، التاويل والدوران والتغيير .

ويقول الأستاذ العقاد : هناك النقيضة الظاهرة فى أسلوبه بين الحزم والتشكيك : ان أخصب الألفاظ فى كلامه من أمثال : ازعم . قد ازعم . لعله يكون ، ولعله لا يكون ، ربما ضحكت وربما بكيت ، (ونحسبه من الشك لا يكاد يستقر على شىء) وان أضعف التقريرات والتوكيدات فى كلامه قد نحسبه فى طليعة الكتاب الجارمين الحزامين (والقول ما قالت حزام) ، ونقيضة أخرى ان تقترن الروح الجدلية فى عباراته بالروح العلمية من سطر إلى سطر ومن قضية إلى قضية » .

انه كما قال البعض : « أنكر كثيراً ولم يثبت شيئا » .

ونحن نعرف أن إثارة الشكوك وتركها معلقة دون إجابات صحيحة هو لب المنهج التلمودى المسيطر الآن على الفكر الغربى الحديث .

ومن هذا التحول : تحوله من الشعر الجاهلى إلى هامش السيرة ، يقول الدكتور هيكل :

لقد كان تحول طه الرجل الذى لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير يعمل لاحيائها سببا لكثير من التساؤل بين الباحثين إذ أن طه وقد فشل فى أن يثبت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمى لجأ إلى الأساطير فينمقها ويقدمها للشعب إظهاراً لما فيها من أوهام فى الظاهر تفتن الناس ولكنها

فى الواقع تبعدهم عن اوهامها لأن روح العصر لا تحتملها ، ثم كان التحول من إغاظة الجماهير إلى تملقهم ، عندما عجز الأسلوب الأول أن يحقق الهدف الذى يتطلع إليه هو ومن وراءه .

وقد دمغه صديق عمره الأستاذ أحمد أمين بهذا التحول والتناقض حين قال فى إحدى مقالاته « حدث فى تاريخ مصر الحديث ان جماعة تسلحوا بالشجاعة الأدبية فاظهروا أراءهم فى صراحة تامة ولم يبالوا الرأى العام سواء فى بحوثهم وتقدمهم وقد كانت هذه البذرة الأولى للشجاعة الأدبية فى مصر فالفوا كتبا عبروا فيها عن آرائهم فى جلاء ووضوح وكتبوا مقالات تعبر عما يختلج فى نفوسهم ولكن هذا الصراع انتهى بهزيمة هذه الطليعة من المفكرين وتعرضوا للخطر فى مناصبهم وأرزاقهم ، وشعر القائمون بهذه الحركة الجديدة انهم اصيبوا فى سمعتهم وفى مناصبهم وفى مالهم ثم رأوا ان أتباعهم تخلوا عنهم ومن عطف عليهم فعطف أفلاطونى وكان الرأى العام قويا مسلحا فتغلب وانتقم وكان له السلطة التامة وانهزم أمامه فريق المفكرين الصرحاء هزيمة منكرة فاضطر إلى التسليم بل وفى بعض الأحيان رجع عن رأيه إلى أرائهم ومن منهجه إلى منهجهم ، وتعود المجاراة بدل المقاومة والمداراة مكان الصراحة .

وكان أحمد أمين يشير بهذا كله إلى موقف طه حسين الذى كتب يقول :

ان رأيك يمسنى وأؤكد له أن يحفظنى كل الاحفاظ ويؤذينى كل الايذاء ولعله يحفظنى ويؤذينى أكثر مما احفظنى وآذانى كل ما لقيت من الوان المشقة والاعنات (كذا) فهل من الحق أن هؤلاء الكتاب الذين تشير إليهم قد أدركهم الضعف والوهن فالاؤا الجمهور وصانعوا السلطان وآثروا العافية فى أنفسهم وأموالهم ومناصبهم » .

وحاول طه حسين أن يعتذر وأن يراوغ ولكن الأمر كان أكبر من كل مراوغة أو اعتذار .

وعلى امتداد حياة طه حسين الفكرية نجد ظاهرة التحول والتناقض واضحة.
كتب الدكتور زكى مبارك فى ١١ نوفبر ١٩٣٢ فى جريدة البلاغ تحت عنوان

الحديث ذو شجون يقول : «وقد دهشت ودهش تلاميذ الدكتور طه الذين تلقوا عنه فى الجامعة المصرية من هذا التطور بل الانقلاب المفاجيء ، الذى ظهر فى آراء الدكتور هذه المرة فان هذا الباحث كان يهتم دائما برجع مناقب الأدب العربى إلى أصول فارسية ويونانية ولكنه فى هذه المرة أعلن بأن الأدب العربى كان قوة خطيرة فى الآداب القديمة وانه استطاع بقوته أن يطارد أدب الفرس واليونان والرومان » .

والمعروف أن طه حسين كان يقول : « بفضل الفرس ، ثم عاد فقال بفضل اليونان ، المهم : الأدب العربى متأثر بهؤلاء أو أولئك وليس له عنده أصالة حقيقية »

ولقد نقول أن هذا التمزق والتناقض يصل إلى أعمق أعماق عقل وقلب الدكتور طه منذ وقت بعيد وانه قد سجل ذلك أكثر من مرة وكان أكثر وضوحاً فى كلمته (١٧ يوليو ١٩٢٦) حين قال : «فكل امرىء منا يستطيع أن يجد فى فى نفسه شخصيتين إحداها عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس وتهدم اليوم ما بنته أمس والأخرى شاعرة تلذ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وترغب وترهب من غير نقد ولا بحث ولا تحليل ، وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا لا تستطيع أن تخلص من إحداها فما الذى يمنع أن تكون الشخصية الأولى علمية باحثة نافذة وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة طامحة إلى المثل الأعلى » .

ولا ريب أن رأى الدكتور طه هذا فى نفسه ليس إسلاميا قط ، ولكنه تفسير فلسفى للتناقض والانشطارية التى عرفها الغربيون بين تفسيرات الدين ونظرات الفلسفة أما فى الاسلام فان شخصية المسلم سوية متكاملة تغشاها سكينة التكامل بين القيم والتوازن بين النفس والجسم والمواءمة بين الروح والمادة .

وبالجملة فان إنتاج طه حسين يكاد يكون متناقضا تناقضا بيناً ففيه الرأى وضده والقول بالشيء وبعكس الشيء ، فهو لا يقول عن عقيدة ثابتة لا تتزعزع ولا عن إيمان صادق ولكنه يقول فى مجال ارتفاع موجة ذلك الشيء ثم يقول فى انخفاضها

وهو يقول الرأى ليصدم الجماهير ، أو ليحدث الدوى ، أو ليرضى الهوى من أصحاب النفوذ والسلطان الذى عاش متعلقا بهم . ثم يغاير هذا القول إذا تغير النفوذ والسلطان ، وموقفه من العروبة والفرعونية واضح ، وموقفه من أسبقية الأدب الفارسى والأدب اليونانى معروف ، وموقفه من المنفلوطى بين ، وموقفه من سعد زغلول ومن الوفد جلى ، وموقفه من إمارة الشعر بايع بها الزهاوى ثم العقاد ، ثم خليل مطران ثم عاد فقال فى جريدة الجمهورية بعد عشرين عاما من بيعته العقاد

« ما أعرف انى بايعت شاعراً أو كاتبا قط ، وما أظن انى سأبايع شاعراً أو كاتبا قط فهذا نوع من السخف لم أشارك فيه ولا أريد أن أشارك فيه» . ومن ذلك أيضا موقفه من المعرى كراهية وانتقاصا ثم إعجابا وتقديراً يقول الأستاذ عبد الحميد حمدى (١٤ ابريل ١٩٥٠ - الأهرام) : «فى أول مرة التقيت به (أى بطه حسين) قبل أربعين سنة ساق الحديث إلى ذكرى أبى العلاء المعرى فلم أكد أذكره حتى بان التجهم على وجه طه حسين ، وفاجىء الجميع بحملة على أبى العلاء شديدة القسوة ومضت سنوات تقرب من الأربع ، كتب فيها طه حسين رسالته عن ذكرى أبى العلاء التى قدمها إلى الجامعة المصرية سنة ١٩١٤ » . اهـ .

* * *

الفصل الرابع

الأسلوب والأداء الفنى

هناك مظاهر كثيرة لاضطراب طريقة البحث عند الدكتور طه أبرزها :

(أولا) : غلبة العاطفة وعدم العدل ، وقيام كتاباته وآراءه على الولاء أو العداء دون تقدير أساسى للحقيقة العلمية . يقول زكى مبارك : « هناك جانب هام من ضعف هذا الرجل ، وهو حرمانه من حاسة العدل ، فما أعرف ان هذا الرجل استطاع أن يقهر أهواءه وهو يعامل الناس ، وقد اتفق له أن يصطنع النقد الأدبى حينا من الزمان وكانت أحكامه وليدة الهوى والغرض ولم يستطع أن يكشف للناس عن موهبة مستورة أو نبوغ مكنون » .

(ثانيا) تعمد الإثارة وإحداث الدوى وقد كشف هذا الجانب محمد لطفى جمعة حين قال : «ان الدكتور طه يعلم ان هذه الأمة لا يحركها إلا البحث فى دينها ولمس شعورها من قريب أو من بعيد ، ورأى انه لا شىء يحرك الخمول مثل إثارة هذا الشعور فعمد فى كتابه (الشعر الجاهلى) إلى هذا فلما انبرى له الكتاب وهاج البرلمان ارغم على ان يبرأ مما نسب إليه ، ومضى أكثر من عشر سنوات ورأى الدكتور ان الجو حوله هادىء فاراد أن يثير غبار مسألة جديدة فكان حديثه عن فرعونية مصر ، ومن ذلك ما ذكره الدكتور محمد حسين هيكل من تحول

صاحب الرأي الذى لايخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير لأن الشعب كلف بها ومحب لها . ويقول فى هذا زكى مبارك : لقد كنت لوحة إعلانات لا تدفع الرأى إلا ليغيظ الجمهور وليصبح حديث الناس فى الأندية والمجتمعات .

(ثالثا) أبرز مراوغات طه حسين « المهارة الأدبية » هذه التى تدعوه ان يقتحم اى مجال اعتماداً على جرس أسلوبه وموسيقاه التى تاخذ بالألباب وهى خصلة قريبة المأخذ ولكنها لا تستطيع أن تحقق شيئا على المدى الطويل إذ سرعان ما تنكشف الحقائق ويبدو للعيان ذلك الخداع البارع وينطفىء ذلك البريق اللامع ، هذه المهارة ليست إلا قشرة براقة تخدع السذج والاغرار ولكنها سرعان ما يكشف عن جوهرها فاذا هو هباء .

يقول الدكتور زكى مبارك : لا يمكن أن نعرف قيمة الدكتور طه إلا إذا نظرنا فى مهارته الأدبية وبيان ذلك ان هذا الرجل قليل المحصول ولعلى ما رأيت فى حياتى رجلا قليل العلم مع الصيت البين كما رأيت طه حسين ومع قلة محصوله العلمى تراه يتكلم كلام المحققين ويمضى فيبنى ويهدم وينقض ، وكأنه عالم محقق أخذ بنواحى المعارف الإنسانية فى القديم والحديث ، وهذا لا يقع إلا من رجل وصل فى المهارة إلى أبعد الحدود ، يضاف إلى ذلك كله لسان يحكى سلاسة المرمر وليونة الماء فاذا سمعت طه حسين وهو يحاضر شعرت انك أمام إنسان يملك ناصية الحديث وليس ذلك بالقليل .

ولكن الشخصية العلمية شىء غير ذلك ، فالدكتور طه الذى يبرم وينقض ويتحدث فيحسن الحديث ، هذا الرجل قد انهزم فى الميادين العلمية ولم يظفر من المجد الأدبى بايسر نصيب ، وأعيذكم ان تفتنوا بانه الف أقصوصة اسمها الأيام فان الأقاصيص ليست من الفنون العالية وإنما هو فن يمثل سذاجة الإنسان الأول يوم كان يملأ الدنيا اساطير وأحاديث » .

* * *

(٢)

أسلوب طه حسين فى تقدير جميع الباحثين يقوم على التشكيك والسخرية والتكرار والبراعة الأدبية والإثارة وإحداث الدوى ولا يصل أبداً إلى مقطع الحق فى أمر أو التماس الحقيقة خالصة لوجه العلم وحده ، وكتابه (بين بين) يكاد يكون رمزاً لطه حسين فى فنه وحياته وسياسته وأسلوبه : يتكلم به عن المقبل كالمدبر والجاد كالهازل واليقظان كالنائم والنائم كاليقظان ، لغته مرنة تصلح للف والمداورة ولا تصف شيئاً بأنه أبيض أو أسود بل تصفه بأنه أقرب ما يكون إلى البياض [١] متردد بين المفهوم وغير المفهوم والمتجول والثابت والممكن وغير الممكن ، لا تراه إلا داعية للشك والا آخذا بالظن لم يثبت فى حياته شيئاً [٢] .

وهناك محاولة الدكتور طه حسين الواضحة لنقل استعارات اللغة الفرنسية وجريانه على أسلوبها ، فرنسى الأسلوب ، فرنسى الطريقة فى النقد ، فرنسى العناوين [٣] يقول لأصحابه (انى أفكر بالفرنسية وأكتب بالعربية) فالكتابة بأساليب العرب أما الفكرة فهى من دنيا الفكر الفرنسى وطريق الحياة والتفكير فيه ولا سيا التصوير [٤] .

كذلك عرف بظاهرة التكرار ، يقول مصطفى صادق الرافعى :

أول من اجترأ على الأدب العربى بالمسخ والتكلف وإدارة على الوهم البعيد وتناوله من حيث يأخذه علماً ليتركه جهلا وهو يحسب انه أخذه جهلا وتاركه علماً ، ثم كان أول من استعمل الركاكة فى أسلوب التكرار كانه يمضغ الكلام مضغاً فتنزل به إلى أحط منازله وابتلى العربية بالمكروه الذى صبر فيه والمرض الذى لا علاج منه .

---

(١) فتحى غانم .
(٢) عمر فروخ .
(٣) فؤاد حبيش المكشوف (٤) زكى المحاسنى .

ويعد التهكم سلاح قوى من اسلحة طه حسين وهو تهكم لاذع - يقول إسماعيل أدهم أحمد انه استمده من الأدب الفرنسى وخاصة كتابات أناتول فرانس .

أما المبالغة فهى من أظهر معالم أسلوبه :

وذلك مثل قوله : كنت أريد ان أضع فى (ديكارت) كتاباً واضطرنى ذلك إلى كثير من البحث والتحقيق ولكنى لا اسف على ما لقيت من عناء فقد وصلت إلى نتائج غريبة لو أعلنتها فى فرنسا لأندك لها السربون ولاضطرب لها السكوليج دى فرانس ولأعلن لها المجمع العلمى الفرنسى افلاسه ، لا تضحك ولا تعجب فلست احدثك إلا بالحق الذى لا شك فيه ولا غبار عليه !!

وهناك محاولة القضاء على قدسية النص الإسلامى والاجتراء على الحقائق المقررة وإثارة الشبهات حولها والشكوك . وانتقاص المشاعر الإسلامية والعربية والسخرية بالتراث . والكلف بالشذوذ ، والخروج عما عليه الجماعة .

ومن ذلك الاهتمام بالأسلوب الساخر المليء بالتنكر والمقت وخاصة إذا اتصل الأمر بالأزهر أو التاريخ الإسلامى ومن هنا موقفه من على عبد الرازق وسخريته من الأزهر ومن الإسلام .

ويتحدث طه حسين عن : حب الفوضى فى الأدب وقد أعلن هذا الرأى مراراً فقال : انى حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى فى الأدب ، لأنى لا أستطيع آن أتصور الأدب إلا على هذا النحو .

(٣)

قال المستشرق هاملتون جب فى تقريره عن الأدب العربى عام ١٩٣٠ :

ان طه حسين هاجم الرأى العام المصرى بطريقة الشك الفلسفى وانه سار يقطع المراحل من إنكار إلى إنكار وعنوان هذا الأسلوب : حديث الأربعاء ثم تبعه بكتاب فى الشعر الجاهلى .

والواقع ان طه حسين لم يخف هذه الظاهرة فى فكره أو أدبه بل عبر عنها فى كثير من كتاباته ومنها قوله : انه ممن خلق الله لهم عقولا تجد فى الشك لذة والقلق والاضطراب رضاه ».

وقد جبهه محمد أحمد العدوى حين قال له : كيف يقدس الحق من يجد فى الشك لذة ام كيف يطمئن للحقائق من يجد فى القلق والاضطراب رضا » .

إذا كان الشك يلذ بالدكتور وأمثاله من المجددين والاضطراب تستريح إليه نفسه فكيف يستنتج مجهولا من معلوم وينتقل من مقدمات إلى نتائج ومن مبادىء إلى غايات وهل إذا وضحت أمام الدكتور المقدمات وتجلت الحقائق يامن أن تساوره شهوة الشك أو يملك عليه أمره لذة القلق والاضطراب وبذلك لا يستطيع أن يبرم حكماً أو يقطع أمراً فيصبح عدواً للعلم بغيضاً لليقين » .

وفى كل ما كتب طه حسين قام بحثه على الشك : ١ ـ الشك فى الشعر الجاهلى (فى الأدب الجاهلى) ٢ ـ الشك فى نسب المتنبى (مع المتنبى) ٣ ـ الشك فى عروبة مصر (مستقبل الثقافة) الشك فى وجود عبد الله بن سبا (الفتنة الكبرى) .

ولقد دمغ الأستاذ محمد طاهر نور مذهب الشك عند طه حسين وكشف عن أنه ليس منهجاً علمياً وإنما هو إدعاء زائف حين قال : ان الخطا عنده يبدأ بافتراض تخيله ثم ينتهى بان يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة ، وذلك شأنه فى مسألة إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة بدأ بقوله : للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكنه قال ان ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة . إلى هنا أظهر الشك بعدم قيام الدليل التاريخى فى نظره كما تتطلبه الطرق الحديثة ثم انتهى بأن قرر فى كثير من الصراحة [أمر هذه القصة إذن واضح فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب دينى] فما هو الدليل الذى انتقل به من الشك إلى اليقين ، هل دليله هو [نحن مضطرون الى أن نرى فى هذه القصة نوعاً من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب

من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى . وان أقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون في شمالى البلاد العربية] المؤلف يرى ان ظهور الاسلام قد اقتضى أن يثبت الصلة بين ديانة اليهود والنصارى وان القرابة المادية الحقيقية بين العرب واليهود اللازمة لاثبات الصلة بين الاسلام واليهودية واستغلها لهذا الغرض ، فهل له أن يبين السبب فى عدم إهتمامه أيضاً بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الإسلام وبين النصرانية . ان الأستاذ ليعجز حقاً عن تقديم هـذا البيان وكل ما استند عليه من الأدلة [فليس يبعد أن يكون ـ فما الذى يمنع ـ ونحن نعتقد ، إذن فنستطيع أن نقول]

فالأستاذ المؤلف فى بحثه إذا رأى إنكار شىء يقول : « لا دليل من الأدلة التى تتطلبها الطرق الحديثة للبحث وإذا رأى تقرير أمر لا يدلل عليه بغير الأدلة التى أحصيناها له وكفى بقوله حجة ! » .

وهكذا نرى أن شك طه حسين لا يقوم على أساس علمى وإنما هى محاولة لإثارة الشبهات حول الحقائق الثابتة .

وقد كشف كثيرون ومنهم الدكتور محمد أحمد الغمراوى عن فساد اتخاذ طه حسين منهج ديكارت أساساً للبحث عن الحقيقة وهاجم مفهوم الشك على هذا النحو فقال : ان العلم الحديث يحرم مثل شك الدكتور طه أن يؤخذ به فى العلوم الطبيعية فانه للاخذ به فى العلوم غير الطبيعية أشد تحريماً ذلك لأن العلوم الطبيعية كالكيمياء والطب تملك ضد الشك سلاحاً لا تملكه الفنون الأدبية كالتاريخ ، ذلك السلاح الذى لا يرد هو « التجربة » وعن طريق المعمل يقنع أو يفحم كل متفلسف شكاك فلا يسيطر شره على الناس ، أما التاريخ فلا يستطيع أن يحاكم الشاك إلى مثل ذلك الحكم ، ولا أن يفضح أمر المتجر بالشك . هذا هو الفرق بين التاريخ والعلم التجريبى ، فى القدرة على اتقاء مضرة الشك المطلق بالرجوع إلى طبيعة كل منهما فالعلم له ظواهره والتاريخ له ظواهره . ان الغرب نجا من أن يحاول هدم تاريخه أو تاريخ لغاته هادم عن طريق الشك غير العلمى

لسيادة الرأى العلمى فيه واستحواذ الروح العلمى على أهله ، أما الشرق فليس له مثل هذين السياجين ، يردان عنه عادية هذا الباطل الذى يهاجمه باسم الحق ، ولا هذا الشك الذى يريد أن يداخله باسم العلم ، ولا هـذا الهدم والتعطيل اللذين يكر عليه بهما نفر من أهله باسم التجديد .

ومهما يكن من موقف المؤرخين فى الشرق أو فى الغرب حيال مبدأ الشك المطلق فان العلماء لا يأخذون به وان العلم لا يقره ولا يمكن أن يقره ، ومن الافتئات على العلم والاجتراء على الحق بل ومن أكبر العقوق للشرق أن يأتى شرقى أوتى شيئاً من الفصاحة وقسطاً من الثقافة لا يعرف عن التربية العملية إلا ما قرأ أو سمع من غير أن يشاهد بنفسه ويمارس بحسه ما يأتى فيملأ فاه فخراً على أهل فنه باسم العلم ويحارب الشرق فى أعز ماليديه من حيث يدرى أو لا يدرى باسم العلم ويطبق على هذا التاريخ الشرقى باسم العلم مبدأ يحرمه العلم ، ذلك هو العقوق الفكرى وذلك هو الضلال المبين (النقد التحليلى ص ١٣٢) .

(٤)

الاعتماد على المصادر الضعيفة

ان اعتماد طه حسين على المصادر الضعيفة إنمـا يرجع إلى أهوائه الأدبية التى يجرى معها أساساً ، ذلك انه انمـا يريد أن يخدع قارئه بانه لم يورد رأيه هـذا الغريب من عنده ويود أن يضع جواً علمياً مهيباً حول شبهاته حتى تثبت وتجد طريقها إلى نفوس الناس ، ولذلك فهو يتعمد اصطناع « صورية » المنهج العلمى القائم على مصادر ومراجع .

ومن هنا يجىء اعتماده على المصادر الضعيفة وأبرز صور لذلك هو كتابه عن الفتنة الكبرى حين أراد أن ينكر وجود شخصية (عبد الله بن سبأ) المعروف بابن أبى السوداء ، فلا بد لذلك من الاعتماد على مصدر ، فما هو ذلك المصدر ، ذلك المصدر هو كتاب ملفق كتبه البلاذرى وضاعت منه أجزاء وجاءت الصهيونية

لأنها تريد أن تؤكد الناس «خرافة» شخصية عبد الله بن سبأ. فطبعت هذا الكتاب فى إسرائيل، هذا الكتاب هو الذى اعتمد عليه طه حسين ليس فى تحقيق وجود شخصية عبدالله بن سبأ، بل ليجرى فى نفس الطريق: طريق إنكار هذه الشخصية، وبينما عشرات المراجع الموثقة تؤكد وجود عبد الله بن سبأ فان طه حسين يعرض عنها جميعاً ويتكأ على البلاذرى فى كتابه الملفق.

ففى جميع المراجع ماعدا البلاذرى يرد أمر ابن سبا، فى مقدمة ذلك الطبرى الذى تجاهله طه حسين فى هذا الموقف تماماً، قال الطبرى [كان عبد الله بن سبا يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء فأسلم زمن عثمان ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ثم الشام، كما ذكره الشهرستانى فى الملل وابن حزم فى المفصل وعبد القادر البغدادى فى الفرق بين الفرق، والاسفراينى فى التبصر فى الدين وابن قتيبة فى تاويل مختلف الحديث وابن عبد ربه فى العقد الفريد].

* * *

وفى شبهاته التى اعتمدها فى (الشعر الجاهلى) كان ناقلا من (جرجس صال) المبشر.

(٥)

انتقاص اقدار الرجال وتدمير البطولات

لقد أدى طه حسين اهتمامه بانتقاص أقدار الرجال وتدمير البطولات العربية الاسلامية جريا وراء الأهواء أو إرضاء أساتذته أو بحثاً وراء الشهرة أو موالاة أجهزة التغريب والغزو الثقافى المتصلة بدوائر السياسة فى وزارات الاستعمار أو دوائر الماسونية والتبشير والاستشراق وغيرها من هيئات تعادى الأمة العربية والاسلام.

وقد بدأ ذلك واضحا فى أول موقف له وهو رسالته إلى السربون عن (ابن خلدون) ذلك العبقرى العالم الذى يعترف له الغرب والمنصفون من كتابه باثره البعيد المدى فى الفكر البشرى عامة وذلك نتيجة لإضافاته البناءة فى مجال علوم التاريخ والاجتماع والاقتصاد .

أما طه حسين فقد هاجم ابن خلدون وانتقص من قدره ومن علمه ومن مصادره ، وجرى فى ذلك مجرى بعض المستشرقين الذين أشرفوا على رسالته ارضاءاً لهم ؛ بل انه انتقص من جهاد المغاربة فى مقاومة الاستعمار الفرنسى ووصف ذلك بانه معارضة للتمدن ، ووصف استعمار فرنسا بانه تمدين للمغرب

وقد بلغ طه حسين فى ذلك حداً بعيداً فى انتقاص قدر ابن خلدون وقد نقل ذلك كله من كتابات دوركايم الذى كان يرأس امتحان الدكتوراة .

ثم عاد طه حسين فوجه انتقاصه لشخصية من أبرز شخصيات الأدب العربى هو (المتنبى) فادعى بانه لقيط ، وهاجم حياته وشخصه فى مؤلف ضخم وكان فى ذلك جارياً على نفس الهدف والخطط الذى اختاره ، أما ما أورده فقد سبقه إليه المستشرق الفرنسى (بلاشير) ولاشك أن الهجوم على المتنبى إنما كان يهدف إلى تدمير علم يعده الأدب العربى من أقوى أعلامه .

ولم يتوقف طه حسين عند ابن خلدون والمتنبى ، بل إنه فى كتابه عن الفتنة الكبرى قد حرص على الإساءة والسخرية والامتهان لمجموعة الصحابه الذين عايشوا الرسول ﷺ إذ حاول فى كتابه ذاك أن يصورهم على أنهم ساسة متضاربون طامعون فى الحكم ، يقوم خلافهم على أساس الطمع فى السلطة والتطلع إلى السلطان . وليس الأمر فى ذلك صحيحاً ، وإنما هى محاولة من الدكتور لإزالة ذلك التقدير الكريم الذى حرص عليه المؤرخون المسلمون لصحابة الرسول . ومحاولة لتدمير القاعدة التى حرص الفكر الاسلامى الاعتزاز بها وهى : الابتعاد عن مناقشة الفتنة على النحو الذى تناقش به قضايا السياسة فى عصرنا هذا . أو وضع أعلام الصحابة على قواعد نقد عصر غير عصرهم ودون تقدير طبيعة البيئة أو الظروف التى كانت تغلف عصر الصحابة .

وكان طه حسين فى ذلك كله محاولا القضاء على كثير من القيم الأساسية للفكر الاسلامى الذى تعارف عليها وذلك كله كمقدمة للشك والسخرية بالتاريخ الاسلامى وبأبطال المسلمين والعرب والنظر إليهم نظرة تخدش موضع المثل الأعلى للمسلمين .

ولقد سخر طه حسين فى عديد من كتبه بشخصيات متعددة من أعلام الفكر الاسلامى والأدب العربى ، وأعلا من شأن شخصيات أخرى لا تتميز بالعظمة أو البطولة .

(٦)

تعقب العورات

تكاد تكون نحلة تعقب العورات من أبرز الظواهر التى جرت عليها كتابات الدكتور طه حسين طوال هذا التاريخ الطويل ومن خلال هذه الآثار المتعددة .

فهو عندما جلا شخصيات أبو نواس وبشار وغيرهم من شعراء الكشف إنما كان يتعقب عوراتهم ويفضح مجالسهم ويعيد اذاعة الفسق والفجور الذى انطوى بانطواء صفحاتهم .

وعندما ترجم القصص الفرنسية الإباحية إنما كان يريد أن ينقل إلى اللغة العربية والأدب العربى تلك الصور المزرية ، وتلك المواقف الفاضحة .

وفى هذا يقول صديقه « المازنى » :

إقرأ للاستاذ قصصه التى ترجمها ، هل كان همه نقل الفصاحة الافرنجية إلى قراء اللغة العربية أو نقل الصور الفاضلة فى ثيابها المصونة ، إنما كان همه مدح الخيانة والاعتذار للخونة . وتصوير الخلاعة والمجون فى صور جذابة ليقضى بهذه الترجمة حق الإباحية لا حق اللغة ولا حق الفضيلة ، وكان طه حسين يقول : انه ممن خلق الله لهم عقولا تجد فى الشك لذة وفى القلق والاضطراب رضا .

وعندما كتب عن المتنبي كان همه أن يثبت شيئا غريبا هو أن المتنبي لقيط وأن هذا كان استنتاجا أراد أن يحوله إلى حقيقة ، ووهم أراد أن يجعله واقعا فمضى يجرى وراء شعر المتنبي وما كتب عنه ليحاول إلصاق هذه الفرية به .

وعندما تحول طه حسين من حزب الأحرار إلى حزب الوفد ، تعقب أصدقائه القدامى ، وكشف عن عوراتهم .

يقول محمد هاشم عطية : عاد طه حسين إلى الجامعة بعد أن أبعد عنها مدة قدر خلالها أن ينفض يديه من إخوانه الدستوريين وأن يجفو سياستهم وصحفهم ومجالسهم ، ويصير فى غمضة عين وطنياً مؤمناً موقناً بمبادىء الوفد وكاتباً فى صحفه ، وزائراً لبيت الأمة ، ومؤيداً الخليفة سعد وصديقاً لأنصاره بعد عمر طويل أفنى زهرته فى التشهير بهم ومحاولة النيل منهم بما يتعفف كثير من أهل الحزازات عن التهاجى بمثله تنزهاً عن مشابهة أخلاق العامة من الناس .

(٧)

المبالغة والاستعلاء على المناهج

وتبدو طريقة الدكتور طه حسين واضحة فى عدد من الايماءات والاشارات فى مقدمات كتبه فهو إما جامع مقالات لم تتح له الفرصة لمراجعتها ، وإما مقالات كان يطمع فى أن يغير فيها ويبدل وإما أشياء لم تستقر فى صورتها النهائية .

بل إنه كثيراً ما يغير صورة البحث تغييراً جذرياً كما فعل فى كتاب (حديث الأربعاء) الذى يمثل مجموعة من مقالات نشرها فى السياسة الأسبوعية ١٩٢٣ وأهداها إلى لطفى السيد ، فاذا به فى طبعة عام ١٩٥٤ يغير هذا كله ، فيزيح هذه المقالات إلى الجزء الثانى وهى صميم هدف الكتاب ، ويقدم مجموعة جديدة من المقالات كتبها فى المصرى عام ١٩٣٥ بنفس إهداء عام ١٩٢٤ وهنا يبدو مبلغ الاستهانة بالأصول التاريخية وإبقائها على وضعها الذى عرف عنها من حيث

مادة (حديث الأربعاء) الأساسية وذلك بتقديم مادة أخرى من نوع آخر لا يتمثل فيها ما عرف عن المادة الأولى .

* * *

ومن أبلغ مبالغاته ما ذكره وهو بصدد الحديث عن (ديكارت) :

كنت أريد أن أضع فيه كتاباً واضطرني ذلك إلى كثير من البحث والتحقيق وإلى ألوان من الاستقصاء والاستقراء ، ولكني لا آسف على ما لقيت من عناء فقد وصلت إلى نتائج غريبة قيمة لو أعلنتها في فرنسا لاندكت لها السوربون ولاضطرب لها الكوليج دي فرانس ، ولأعلن لها المجمع العلمي الفرنسي إفلاسه ، لا تضحك ، ولا تعجب ، فلست أحدثك إلا بالحق الذي لا شك فيه ولا غبار عليه .

أي حق يمكن أن يكون موضع ثقة القارىء من الدكتور وهو لم يدع أمراً واحداً يمكن أن يقبله القارىء على أنه صدق وإنما هي كتابات ساخرة ، لاعبة ، كلها عبث واستهانة ، تعلو وتهبط ، وتتدافع هنا وهناك ، دون أن تستقر على شيء . وهل يستطيع باحث أن يثق في شيء مما يقوله الدكتور على انه حق ، وهو داعية الشك والسخرية في الأدب العربي المعاصر .

اقرأ معي ما يقدم به قصة (المعذبون في الأرض) وانظر إلى أي حد يذهب في المبالغة والاستعلاء على المناهج وعلى القراء .

« لا أضع قصة فاخضعها لأصول الفن ، ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول لأني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرجعوا لي القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو يخطر لي فأمليه ثم أذيعه فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه .

ويقول محمود عبد المنعم مراد معلقاً على ذلك :

«إنه يضع نفسه فوق النقد ، لا يجب أن يسمعه ولا يعترف به ، ولا يريد ان يقيم له وزنا ، ولماذا ! لأنه يريد أن يكون حراً فيما يكتب ويذيع على الناس ، وكيف إذن نفي طه حين مجده الأدبي ، ألم يكن ذلك على حساب غيره من الأدباء القدامى والمحدثين على السواء . يخيل إلى أن الذى ألجأ طه إلى هذه الثورة المناضبة على النقاد والقراء هو إحساسه فى ذلك الموضع فى كتابه انه معرض للنقد فاراد أن يقطع الطريق على هؤلاء النقاد الفضوليون ، ولا أعرف فى التاريخ كله كاتباً مهما تبلغ عبقريته يستطيع أن يقول للناقد : قف من أنت ، ولن يستطيع طه حسين بهذا الكلام الذى ساقه أن يمنع قارئاً أو ناقداً من أن يبدى إعجابه بما كتب أو سخطه عليه » (١)

ويقول عبد الحميد جودة السحار : ان طه حسين يشبه السقاء فهو يحمل أبطال قصصه على ظهره كالقربة ويقف منهم كناظر المدرسة لايسمح لهم بالكلام إلا باذنه .

* * *

(١) جريدة المصرى — ٣٠ يناير ١٩٥٣

الفصل الخامس

الاستجواب

تتمثل المواقف الحاسمة فى حياة طه حسين الفكرية حسب تقديره هو فى الآثار المترتبة على حادث كتاب الشعر الجاهلى الذى كان علامة على طريق طويل فى مواجهة ممتدة مع بيئات الفكر الإسلامى وحركة اليقظة الإسلامية والبرلمان وممثلى الأمة والأزهر والجمعيات الإسلامية وقد امتدت هذه المواقف من أزمة ١٩٢٦ إلى أزمة ١٩٣٢ التى قضت باخراج طه حسين من الجامعة . ثم كان ذلك التحول الذى أراد به طه حسين أن يعود إلى حظيرة الاسلام مرة أخرى «مخادعا» لاحبا فى الاسلام بل رغبة فى التأثير فيه وخلق كيان فكرى له يتمثل فى مجموعة من الآراء يمكن أن يقال من بعد إنها رأى عالم أزهرى درس فى أوربا وتمثل هذه الآراء فى انتقاص تكامل الإسلام والضرب على نغمة « روحية » الاسلام وأنه دين لاهوتى عبادى لاصلة له بالحيـــاة ولا بالأخلاق ولا بنظام المجتمع وذلك جوهر النظرة الاستشراقية الغربية التى تستهدف عزل الاسلام عن التطبيق وهى قة ماكشفت عن زيفه حركة اليقظة التى قاومت طه حسين وحواريوه لقـد كانت حركة طـه حسين فى الشعر الجـاهلى عملا أحفظ عليه النفوس فلا عليه من أن يعود إلى إرضاء الجماهير عن طريقين عن طريق الدين بكتابه هامش السيرة والوعد الحق والفتنة الكبرى وكلها فى مظهرها العام دراسات إسلامية أشاد تلاميذه وحواريوه بها لاقناع العامة بأنه عاد إلى الإسلام والأخرى عن طريق اعتناق مذهب الوفد الوطنى لإقناع الشعب بانه أصبح وطنيا مخلصا ، وكل

الهدف من ذلك هو إعادة الثقة إلى نفسه ليكون قادراً على اداء دوره الخطير الذى تمثل بعد ذلك فى أشياء كثيرة . أهمها التأثير عند المناهج التربوية فى الجامعة ووزارة المعارف وخاصة برنامجه فى « مستقبل الثقافة » وهو العمل الذى اختير لتنفيذه مراقبا للثقافة ومستشاراً ومديراً للجامعة ووزيراً للمعارف .

ولم تتوقف محاسبة طه حسين خلال الفترة من (١٩٢٦ ـ ١٩٤٠) بل توالت فى الدورات المختلفة تكشف عن محاولاته وتدافع عن عقائد شباب المسلمين وفى كل مرة كان هناك عمل جديد يقذف به حافلا بالسموم والشبهات وفى كل مرة نجد ألسنة جديدة وأقلاما جديدة وحقائق دامغة .

ففى عام ١٩٢٦ وبعد ظهور كتاب [فى الشعر الجاهلى] تقدم (عبد الحميد البنان) إلى مجلس النواب باستجواب يتضمن :

أولا : مصادره وإعدام كتاب طه حسين المسمى (فى الشعر الجاهلى) بمناسبة ماجاء به من تكذيب القرآن الكريم واتخاذ ما يلزم لاسترداد المبالغ المدفوع إليه من الجامعة ثمنا لهذا الكتاب .

ثانيا : تكليف النيابة العمومية برفع الدعوى العمومية عليه لطعنه فى الدين الإسلامى دين الدولة .

ثالثا : إلغاء وظيفته فى الجامعة .

وقد تقدم الشيخ خليل حسنين الطالب بالقسم العالى بالأزهر إلى النائب العام ببلاغ يتهم فيه طه حسين بانه ألف كتابا أسماه (فى الشعر الجاهلى) فيه طعن جريح فى القرآن العظيم حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوى ، كما أرسل الجامع الأزهر إلى النائب العام خطابا يبلغ إليه علماء الجامع الأزهر .

وقد لخصت النيابة الاتهامات فى أربع مسائل كبرى :

الأول : أن المؤلف أهان الدين الإسلامى بتكذيب القرآن فى أخباره عن إبراهيم وإسماعيل حيث ذكر فى ص ٢٦ من كتابه مايلى :

« للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما ايضا ولكن ورود هذين الإسمين فى التوراة والقرآن لايكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلا عن إثبات هذه القضية التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى » إلى آخر ماجاء فى هذا الصدد .

الثانى : ماتعرض له المؤلف فى شأن القراءات السبع المجمع عليها والثابتة لدى المسلمين جميعا ، وأنه فى كلامه عنها يزعم عدم إنزالها من عند الله وأن هذه القراءات إنما قرأتها العرب حسب مااستطاعت لا كما أوحى الله بها إلى نبيه مع أننا معاشر المسلمين نعلم أن كل هذه القراءات مروية عن الله تعالى على لسان النبى ﷺ .

الثالث : ينسبون للمؤلف أنه طعن فى كتابه على النبى ﷺ طعنا فاحشا من حيث نسبه فقال فى ص ٧٢ من كتابه :

« ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر واضافته إلى الجاهليين وهو مايتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه إلى قريش فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون صفوة بنى هاشم ، وان يكون بنو هاشم صفوة بنى عبد مناف وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بنى قصى وأن تكون قصى صفوة قريش وقريش صفوة مضر ومضر صفوة عدنان وعدنان صفوة العرب والعرب صفوة الإنسانية كلها » .

وقالوا ان تعدى المؤلف بالتعريض بنسب النبى والتحقير من قدره هو تعد على الدين وجرم عظيم يسوء إلى المسلمين والاسلام فهو قد اجترأ فى أمر لم يسبقه كافر ولا مشرك .

الرابع : أن المؤلف أنكر أن للإسلام أولية فى بلاد العرب وأنه دين إبراهيم إذ يقول فى ص ٨٠

« أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أولية فى بلاد العرب كانت

قبل أن يبعث النبى وأن خلاصة الدين الأسلامى وصفوته هى خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل » إلى أن قال فى ص٨١ « وشاعت فى العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة أن الاسلام يجدد دين ابراهيم ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور ثم أعرضت عنه لما أضلها به المضلون وانصرفت عنه إلى عبادة الأوثان » .

وأشار التقرير الذى قدمه علماء الأزهر (محمد حسنين الغمراوى ، أحمد العوامرى ، محمد عبد المطلب) عن كتاب الشعر الجاهلى أن الكتاب فيه شىء كثير يناقض الدين الاسلامى ويمسه مسا مختلف الدرجات فى أصوله وفروعه .

أولا : أضاع على المسلمين الوحدة القومية والعاطفة الدينية وكل ما يتصل بهما (المقدمة) :

ثانيا : أضاع عليهم الإيمان بتواتر القرآن وقراءاته وأنها وحى من الله (باب اللهجات)

ثالثا : أضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم (باب السياسة والدين) .

رابعا : وأضاع عليهم الثقة بسيرة النبى فى كل ما كتب فيها .

خامسا أضاع عليهم الاعتقاد بصدق القرآن وتنزيهه عن الكذب .

سادسا : أضاع عليهم الوحدة الاسلامية التى أوجدها الدين والقرآن والنبى بين الأنصار والمهاجرين .

سابعا : أضاع عليهم تنزيه القران عن التهكم والازدراء بما كتب فى سورة الجن وصحف ابراهيم .

ثامنا : أضاع عليهم تنزيه النبى وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف .

تاسعا : أضاع عليهم ماوجب من حرمه الصحابة والتابعين .

عاشرا : أضاع عليهم صدق القرآن والنبى فيما أخبر به عن ملة إبراهيم

حادى عشر : أضاع عليهم براءة القرآن مما رماه به المستشرقون .

ثانى عشر : أضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسله وكرام خلقه .

وأشار (محمد حسنين الغمراوى ، عبد الحميد حسن ، أحمد أمين) : فى تقرير آخر عن الكتاب ثلاث نقاط بها مساس بالدين الاسلامى :

(١) علاقة القراءات السبع بالوحى .

(٢) رأى المستشرقين فى مصادر القرآن .

(٣) الصلة بين الاسلام وملة ابراهيم .

وقال الأستاذ محمد طاهر نور الذى أجرى التحقيق مع طه حسين :

الخطأ حين يبدأ بافتراض تخيله ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة . كما فعل فى أمر الاختلافات بين لغة محمد ﷺ ولغة عدنان ، وفى مسألة ابراهيم واسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة . بدأ بقوله :

للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما ايضا ، ولكنه قال إن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إبراهيم واسماعيل إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . إلى هنا أظهر الشك بعدم قيام الدليل التاريخى فى نظره ، كما تتطلبه الطرق الحديثة ثم انتهى بأن قرر فى كثير من الصراحة [أمر هذه القصة إذن واضح فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب دينى] فما هو الدليل الذى انتقل به من الشك إلى اليقين ، هل دليله هو قوله [نحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى وأن أقدم عصر يمكن أن يكون قد نشأت فيه هذه الفكرة ، إنما هو

العصر الذى اخذ اليهود يستوطنون فيه شمالى البلاد العربية] المؤلف يرى أن ظهور الإسلام قد اقتضى تثبيت الصلة بين ديانة اليهود والنصارى ، وأن القرابة المادية الحقيقية بين العرب واليهود اللازمة لإثبات الصلة بين الاسلام واليهودية فاستغلها لهذا الغرض : فهل له أن يبين السبب فى عدم اهتمامه أيضا بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الاسلام وبين النصرانية . ان الأستاذ ليعجز حقا عن تقديم هذا البيان وكل ما استند إليه من الأدلة (ليس يبعد أن يكون) - (فما الذى يمنع) - (ونحن نعتقد) - (إذن فنستطيع أن نقول) فالأستاذ المؤلف فى بحثه إذ رأى إنكار شىء يقول : لا دليل عليه من الأدلة التى تتطلبها الطرق الحديثة للبحث، وإذ رأى تقرير أمر لا يدلل عليه بغير الأدلة التى أحصينا له وكفى بقوله حجة وسئل عن أصل هذه المسألة (أى تلفيق القصة) وهل هى من استنتاجه أو نقلها فقال : هذا فرض فرضته أنا دون أن أطلع عليه فى كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد ان ظهر الكتاب ان شيئا من هذا الفرض يوجد فى كتب المبشرين [المبشر الذى تستر تحت اسم هاشم العربى] .

وكان هاشم العربى فى عبارته أظرف من مؤلف كتاب (فى الشعر الجاهلى) لأنه لم يتعرض للشك فى وجود ابراهيم واسماعيل بالذات وإنما اكتفى بأن أنكر ان اسماعيل أبو العرب وقال ان حقيقة الأمر فى قصة اسماعيل انها دسيسة لفقها قدماء اليهود للعرب تزلفا لهم .

* * *

وقد كشف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ان أراء طه حسين فى ابراهيم واسماعيل قد أخذها من كتاب (ذيل مقاله فى الاسلام لهاشم العربى) والكتاب من عمل المبشرين الطاعنين فى الاسلام يقول صاحب ذيل مقاله فى الاسلام ص ٣٥٢ من كتابه (مقالة فى الاسلام) المطبوع فى مطبعة النيل المسيحية (أقدم طبعة للذيل عام ١٨٩١) « وحقيقة الأمر فى قصة اسماعيل انها دسيسة نقلها قدماء اليهود تزلفا إليهم وتذرعا بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة لهم فى بلاد العرب » وقد تابعه صاحب فى الشعر الجاهلى .

وصاحب الذيل يجعل (التوراة) هى الأصل ويعرض عليها القرآن فان

تخالفها طعن فيه (أى فى القرآن) أما الدكتور فيكذب بالتوراة والقرآن جميعاً ، ويؤمن صاحب الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ويكذب أبوة إسماعيل للعرب فيأتى المقلد فيكذب بوجود إبراهيم وإسماعيل فضلا عن أبوتهما للعرب .

كان صاحب الذيل فطنا محترساً وكان حاكيه قليل الفطنة فاصطدم بالنقض الآتى : ان التوراة قد انتشرت فى البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها فى جزيرة العرب وكان فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهرانى العرب حيلة منهم للتقرب إليهم ولو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوها حيلة ، فما هو السر فى ان كان ذكر ابراهيم واسماعيل فى جميع نسخ التوراة ، ان صاحب الذيل هو صاحب الفكرة الأصلية وقد كان أفطن لهذه الاعتراضات التى وقع فيها طه حسين فصدق وجود إبراهيم واسماعيل وكذب بأبوتهما للعرب فقط . لقد سرق الدكتور طه بحثه من كتاب سخيف ولم يفهمه على وجهه ونقله من كتاب المسيحى المبشر على انه ابتكار من ابتكاراته ورأى من آرائه الجديدة وهو الذى أقام الدنيا وأقعدها على الشيخ علام سلامة إذ نقل عن لسان العرب ما نقل ولم ينسبه إلى صاحبه فلما إذاً استحل هذه السرقة القبطية وهو العالم الذى لا يبارى » .

وأشارت أبحاث أخرى إلى أن مرجليوث المستشرق اليهودى كان قد سبق إلى هذه الآراء (راجع ناصر الدين الأسد فى أطروحته عن الشعر الجاهلى) .

وفى مجلس النواب (١٢ سبتمبر ١٩٢٦) قال الأستاذ عبد الخالق عطية :

ان تصرف هذا الشخص كان مخالفاً للذوق فلم يكن من المعقول ولا من حسن الذوق أن يقوم هذا الشخص فيبصق فى وجه الحكومة التى يتقاضى مرتبه من أموالها بالطعن فى دين رعيتها من أقلية وأكثرية . إننا إذ نسلم أولادنا للحكومة ليتعلموا فى دورها نفعل ذلك معتمدين على أن بيننا وبينها تعاقداً ضمنيا على ان الديانات محترمة ولا أقول تعاقداً ضمنيا فقط بل صريحا لأن الحكومة تعنى بتعلم الدين فى مدارسها ، فعلى الذين يحرقوا بخور الالحاد ان يحرقوه

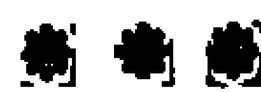
فى قلوبهم لأنهم أحرار فى عقائدهم أو يحرقوه فى منازلهم لأنهم أحرار فى بيئاتهم الخاصة أما ان يطلقوه فى أجواء دور العلم ومنابر الجامعة فهذا لا يمكن أن يفهم بحال من الأحوال .

وبالنسبة لحرية الفكر قال عبد الخالق عطية : إنه لا توجد فى العالم حريات مطلقة ولو كان الأمر كذلك لقام فى البلاد من يهاجم نظام الحكم اعتماداً على حرية الرأى، ولو كان الأمر كذلك لقام فى البلاد من يبث مبادىء الفوضوية أو البلشفية استناداً إلى جهة الراى ولـكن الحرية محدودة وتنتهى عندما تبدأ بالتصادم مع مقتضيات النظام والقانون والتعليم حر بنص الدستور ، ويعد التعليم حراً إلا إذا أخل بالنظام العام إذا كان منافياً للآداب والأخلاق ، هنا معناه ان يترتب على تقرير الرأى حدوث فتنة أو احتمال حدوثها وعند ذلك يقف القانون حداً حائلا لأن المصالح العامة مقدمة على الشهوة .

(٢)

فى ٢٩ يونيو ١٩٢٧ أثير موضوع طه حسين وعمله فى الجامعة وأثره فى الطلاب مرة أخرى فقد قـدم الأستاذ محمود رشاد سؤالا إلى وزير المعارف بمجلس الشيوخ هذا نصه :

« فى الدورة البرلمانية الثالثة أثيرت بمجلس النواب مسألة مؤلف أصدره الأستاذ طه حسين أفندى سماه (فى الشعر الجاهلى) أوجب ضمه وقدمت بخصوصه شكاوى إلى النيابة العمومية وانتهى التحقيق فيها بقرار الحفظ ، لعـدم توفر القصد الجنائى لدى المؤلف توفراً يوجب محاكمته جنائياً ، وقد جاء فى أسباب هذا القرار ما دعا الأستاذ طه حسين إلى تقديم استقالته من وظيفته فى الجامعة المصرية واذ هذه الاستقالة لم تقبل فأرجو إفادتى عن السبب الذى دعا إلى عدم قبولها » .



(٣)

وفى الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب فى ٢٨ مارس ١٩٣٢ فتح باب الحديث عن طه حسين .

قال الدكتور عبد الحميد سعيد : إن مسألة الدكتور مسألة ليست حديثة ولا هى بالتى يجهلها إنسان من هذه الأمة فقد استنكرتها الأمة بهيئاتها اللهم إلا نفر قليل .

قامت ضجة حول هـذا الرجل تراجع صداها فى مجلس النواب السابق ، واحتج عليه النواب وكان المجتمعون أمس هم الذين يدافعون عنه الآن فى ـ ١٩٢٦ كان المرحوم سعد باشا زغلول أشد النواب حماسة ضد كتاب الدكتور دافع عنه عدلى باشا وجماعة الأحرار الدستوريين وان الوزراء الوفديين جاروه خوفاً على كراسى الحكم وهى الغاية العظمى لهؤلاء الناس ، فعلوا ذلك فكانت النتيجة أن خلص هذا الرجل من العقاب ، كانوا فى ذلك الوقت يعتقدون أن بقاءهم فى الحكم رهن ببقاء عدلى باشا فانضموا إليه وخذلوا رئيسهم سعد زغلول .

وفى سنة ١٩٢٩ أثرت أنا هـذا الموضوع وطلبت إبعاد هذا الرجل عن الجامعة ثم اثاره زميلى عبد العزيز الصوفانى ، وأثير الموضوع فى مجلس الشيوخ مرتين بواسطة الشيخ سعيد الرومى وثانيهما بواسطة الشيخ رشاد باشا . ومن هذا يتضح ان الضجة القـائمة ليس الغرض منها استقلال الجامعة وإنمـا هى الحزبية العمياء .

كان الشعر الجاهلى الذى ضجت عند صدوره البلاد ولا يزال يدرس فى الجامعة بعنوان (فى الأدب الجاهلى) ولكن تغيير العنوان لم يغير من روحه اللا دينية فان السموم التى أراد الدكتور ان ينفثها فى كتابه لا تزال ماثلة فى كثير من فصوله ومباحثه كما انه قـد زين للشبان وسائل المجون والفجور فى كتابه (حديث الأربعاء) .

إن كل ما جاء فى هذا الكتاب (فى الأدب الجاهلى) مخالف للكتاب والسنة وإن تعرضه للقرآن بهذه الكيفية من غير احتياج إليه فى حجة ، دليل على سوء القصد ، وفى جريمة أقل نتائجها أن يخرج القارىء لكتابه فى شك من كتاب الله والشك به ، ومما يدل على سوء نيته انه يختار بقلمه ولسانه أخبث مناحى الحياة مع التهكم والتعريض ، باقدس ما يقدسه الناس من فضيلة ودين ، فهو يذكر المجون ويذكر الفجور ويروج لهما باخلاص وصدق عزيمة وقد أثرت هذه النظريات فى عقول الشبان ورسخت فى أذهانهم وليس هذا بغريب لأن الشبان كما نعلم جميعاً لا يلمون باصول الدين ولا يتمسكون بشعائره .

نشأ هذا الرجل فى الجامعة الأزهرية واشتهر بين إخوانه بتلك النزعة اللادينية والآراء الشاذة واعترض فى حياته أمور غرست فى نفسه عاطفة الحقد والحنق على الأزهر ثم على الإسلام من أجل الأزهر فشب عدواً للدين وتعاليمه يشوه كل ما هو منسوب إليه ومن يتبع حياته العلمية وجد انه يذهب فى كل مسألة تتعلق بالإسلام مذهب أعداء الدين وخصومه الألداء .

وهناك نقطة ضعف فى حياته بسط تفاصيلها صديقه الحميم الأستاذ المازنى فى كتابه (قبض الريح) وهى ترجع إلى ما أحدثه كف بصره من التأثير فى مزاجه وفى تفكيره وإحساسه ونظرته إلى الحياة والناس ، فهو لا يرى فى الحب إلا التمتع المادى ، ولأنه مكفوف البصر إذاً لم يتقيد بالفضيلة جرى على لسانه ما يجرى على لسان بشار بن برد من فحش القول ، والتغنى بالحب الحيوانى وإن كان من أهل الفضيلة والاحتشام كان كأبى العلاء المعرى زاهداً عفيفاً ولكنه سيء الرأى فى المرأة يعتقد أنها متاع فقط .

إننا لا نشكو منه حرية الرأى ولا ما يؤدى إليه من بحوث علمية وأدبية بريئة ولكننا نشكو منه غلا ران على قلبه نحو الإسلام والمسلمين ، نشكو منه أن يتخذ من الجامعة حصنا يقترف من خلف أسواره غاراته السامة الخانقة فيصيب من الأخلاق والآداب مقتلا ثم ينفث سمومه فى نفوس الطلبة وهم غير مسلحين بالدين وغير مدرعين بتلك التعاليم التى يمكنهم — لو كانوا يعلمونها — أن يهدوا

بها الجبال . هذا الرجل يكلف بعض طلبته أن ينقدوا بعض آيات من القرآن الكريم يعينها لهم، ويطلب منهم إثبات هذا النقد فى كراسات يتلونها عليه فكانوا يثبتون أن هذه الآية ليست من البلاغة وأن تلك الآية على جانب من الركاكة وأن الآية الأخرى مفككة لاتؤدى المعنى المقصود منها ولقد غاب عن هذا الرجل أنه لايصح التصدى لتعبير القرآن إلا لمن يتوافر فيه شروط أساسية أهمها :

أن يكون ملما بكل فروع اللغة العربية وآدابها وأن يكون واسع الاطلاع عليما بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه ، وبحديث رسول الله ﷺ وإسناده فهل تتوافر هذه الشروط فى الطلبة كما تتوافر فيمن يتعرض لتفسير كتاب الله فما بالكم بمن يريد أن ينقده ، وسأتلو عليكم بعض ماأثبته أحد طلبة الدكتور طه حسين فى كراسته مما كان يلقيه عليهم فالتقطه الطلبة عنه وسجلوه فى كراساتهم وهذه إحدى المذكرات التى أخذت من المحاضرات التى ألقاها الدكتور طه حسين فى كلية الآداب بقصر الزعفران (١٩٢٧ ــ ١٩٢٨) :

وصلنا فى المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب فى القرآن وقررت أنه ليس على نسق واحد واليوم نوضح هذه الفكرة .

لاشك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذى لايفرق فى نقده بين القرآن وبين أى كتاب أدبى آخر ، يلاحظ ان فى القرآن أسلوبين متعارضين لايربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة مما يدفعنا إلى الاعتقاد بان هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة ، فمثلا نرى القسم المكى منه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة كما نشاهد فى القسم المدنى واليثربى تلوح عليه إمارات الثقافة والاستنارة فإذا دققتم النظر وجدتم القسم المكى ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد ، ويمتاز كذلك بقطع الفكرة واقتضاب المعانى ، وقصر الآيات والخلو التام من التشريع والقوانين كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم إلى آخر ماهو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخرا وانحطاطا . أما القسم المدنى[1] فهو هادىء لين وديع

(١) نخرج من هذه النصوص بملاحظة دقيقة . الخ .

مسالم يقابل السوء بالحسنى ويناقش الخصومة بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين ، كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات . ولاشك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن » ا هـ .

ويقول عبد الحميد سعيد فكأنه يريد القول صراحة أن القرآن ماخوذ من التوراة ومما جاء به قول طه حسين : ليس القرآن إلا كتابا ككل الكتب الخاضعة للنقد ، فيجب ان يجري عليه مايجري عليها والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائيا عن قداسته التي تتصورونها وأن تعتبروه كتابا عاديا فتقولوا فيه كلمتكم ويجب ان يختص كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب ويبين ماياخذه عليه .

وقال : كما تحدث عن فواتح السور ، وكتاباته في الأدب الجاهلي وحديث الأربعاء محشوة بالطعن على الدين والتحريض على الفسق والفجور ، وأشار إلى تحقيق النيابة معه عام ١٩٢٦ وكيف أن المبادىء التي تضمنها كتابه في الأدب الجاهلي ورد مثلها في كتب بعض المستشرقين ، وأن كتبه تتعرض لنشر المساوىء والعورات في عصور الاسلام الزاهرة ، هذا هو أدب الرجل الذي يرأس كلية الآداب والذي يعهد إليه المسلمون بتعليم أبنائهم وتربيتهم . وأشار إلى الحكومات التي سكتت عن هذا الرجل وتركته يهدم الأخلاق والآداب ويعتدي على الدين فهي شريكة له في إثمه ، وقال : لقد شاع هنا وفي البلاد العربية ان هناك صلة بين الدكتور طه حسين وبين دعاة التنصير يثبت هذا ، التحقيق الذي أجرته النيابة وهو ينفث سمومه ويحتمي باستقلال الجامعة وما وجدت الجامعات إلا لتدعيم الأخلاق وتربية الفضيلة فإذا خرجت عن هذه القواعد فعدمها خير من وجودها إنه لايكفينا مطلقا أن ينقل طه حسين من الجامعه إلى المعارف لأنه مركز يمكنه من الإشراف على كتب التعليم وفي هذا من الخطر مافيه وإن هذا النقل كنقل جيش الاحتلال من مصر إلى القنال .

* * *

فى ٣١ / ٣ / ١٩٣٢ قرر مجلس الوزراء فصل طه حسين من خدمة الحكومة وجاء ذلك نتيجة للتحقيقات التى أظهرت كثيراً من التصرفات وبعد أن مرت عدة إجراءات فى مقدمتها استجواب الدكتور عبد الحميد سعيد فى مجلس النواب (٦ / ٣ / ١٩٣٢) .

وأشير إلى الأخطار التى اتصلت بانشاء معهد التمثيل والرقص التوقيعى الذى أنشأه الدكتور ، ومايتصل بها من صورة نشرت فى الأهرام عدد ١٦٩٥٩ تمثل طلبة المعهد وقد جلست كل شابة إلى جانب شاب .

كما أشير إلى تحريض الدكتور طه لأساتذة الجامعة بالامتناع عن التدريس فى كليات الأزهر وان هذا يهدف إلى محاربة هذا المعهد الاسلامى وأشير إلى محاباة الدكتور طه لبعض الأساتذة الأجانب رعاية لجنسيتهم بالرغم من عدم كفايتهم الإدارية وعدم كفايتهم العلمية ، وان هناك اتصالات مباشرة بهيئات سياسيه أجنبية بشأن توظيف الموظفين فى الجامعة مما يؤدى أحيانا إلى خلق صعوبات .

(الأهرام ٣ / ٤ / ٩٣٢ ، الصحف ٩ / ٣ / ١٩٣٢)

وأثيرت فى مجلس النواب أمور أخرى تتعلق بمكافأة الترجمة التى ظل الدكتور يحصل عليها سنوات عديدة : وقال المسئول أنه تقرر عام ١٩٢٧ اعطاء مكافأة للترجمة العربية للبحوث العلمية التى يتقدم بها الأساتذة وأن يعطى عشرة جنيهات شهريا مرتبا لسكرتير له للقيام بهذا العمل وفى أول يولية ١٩٣١ طلبت الجامعة من الدكتور طه بيان الأعمال التى قام بها منذ استيلائه على المكافاة فاجاب بانه راجع ترجمة حضرتى أحمد حسن الزيات ويوسف كرم لكتاب (لالاند) المسمى : الحكم على قيمة الأشياء من الوجهة النفسية وانه يوشك ان ينتهى من

ترجمة كتاب الأستاذ جراندور عن (اثينا فى عهد اغسطس) واوقفت المكافاة فى اغسطس ١٩٣١ وكتاب لالاند يقع فى ٦٠ صفحة وهذا كل ماقدم إلى الآن، أما كتاب جراندور يقع فى ٢٩٨ ولم يقدم منه شىء ومجموع المكافآت التى صرفت ٤٨٠ جنيها .

كذلك أثيرت مسالة المكافآت التى تصرف له بالنسبة للمؤتمرات التى حضرها ففى عام ١٩٢٦: مؤتمر الآثار السورية ٥٠ جنيها وفى عام ١٩٢٨ مؤتمر المستشرقين باكسفورد ١١٢ جنيه (ولزوجته ٧٠ جنيها مصاريف انتقال وبدل سفر) وفى عام ١٩٣٠ مؤتمر المستشرقين فى فيينا وقد رافقته السيدة قرينته وصرف لهما ١٣٠ جنيه ولحضرته وحده ١٩ جنيه وفى عام ١٩٣١ مثل الجامعة فى مؤتمر المستشرقين وقد رافقته السيدة قرينته فصرف له ٦٠ جنيها ولقرينته ٦٤ جنيها وبناء على شكواه وافقت المالية على صرف ٢٥ جنيها (المجموع ١٥٠ جنيها) .

وفى سنة ١٩٣١ ندب لتمثيل الجامعة فى العيد المئوى الرابع لكلية دى فرانس أثناء وجوده فى فرنسا ٥٣٢ جنيها وقد قدم عن أعماله فى المؤتمر تقريراً فى ثلاث صفحات عن مؤتمر سوريا وفى مؤتمر المستشرقين ١٩٢٨ محاضرتين عن ضمير الغائب فى القرآن والأخرى عن المقارنة بين فلسفة ليبنتز ومذهب المعتزلة ، وفى مؤتمر المستشرقين ١٩٣٠ لم يقدم شيئاً وفى مؤتمر المستشرقين ١٩٣١ قدم بحثاً عن البلاغة من عهد الجاحظ إلى عهد عبد القاهر .

وقد أثارت هذه البيانات التى ألقاها مندوب الحكومة فى البرلمان أحاديث كثيرة منها ان طه حسين يسافر على حساب الدولة ليهدم دينها بما يلقيه من أبحاث عن القرآن .

وقد أثار الدكتور طه ضجة بشأن نقله من الجامعة وأجاب وزير المعارف عن ذلك فكشف عن ان الدكتور طه لم تتجاوز مؤهلاته العلمية منزلة غيره من أساتذة الجامعة ، الذين نقلوا فى عهود سابقة بنفس الطريقة وان نقله جاء طبقاً

للقوانين المنظمة للجامعة ومنها ان هذا الرجل الذى يزعمون انه المثل الأعلى فى التخلق بفضيلة العلم لم يستبح لنفسه آن يخون أمانة العلم وحدها ولكنه استباح لها أيضاً أن يخون أمانة المال .

الصحف : (٧/٣/١٩٣٢ محاضر مجلس النواب والمتكلم أحمد والى الجندى) الذى قال :

« ان القول بوجود تقليد فى الجامعة بشأن نقل الأساتذة إدعاء غير صحيح ومع ذلك فان مدير الجامعة الذى جرى بين يديه وسمعه وبصره نقل احد عشر من هيئة التدريس بدون أخذ رأى مجلس الجامعة يقول فى جواب استقالته ان نقل الدكتور طه على هذه الصورة التى تم بهما بدون رضاه وبدون رضا الجامعة كان مخالفاً لما جرت عليه التقاليد المضطردة منذ نشأة الجامعة إلى الآن فيما يعرف. ولا أستطيع إلا أن أقول إنه يعرف وعلى علم تام بأن الأساتذة محمد صبرى وعبد الفتاح السيد وعبد السلام ذهنى وصادق فهمى ومحمد كامل ملش وغيرهم نقلوا فى عهده بغير رضاهم وبدون أخذ رأى مجلس الجامعة على أن مدير الجامعة يعلم مسألة الدكتور طه وكان يسترضينى بشأنه » .

(مدير الجامعة هو لطفى السيد الذى كان مظاهراً لطه حسين فى جميع خطواته)

(٥)

وأثيرت مسالة طه حسين مرة أخرى فى مجلس النواب يوليو ١٩٣٩ واشترك فيها الدكتور عبد الحميد سعيد مرة أخرى ومعه عدد من النواب العلماء : محمد عبد اللطيف دراز ورضوان السيد . وكان الموضوع هو مهاجمة السياسة الدينية للجامعة المصرية وكلية الآداب .

قال الدكتور عبد الحميد سعيد :

ليست نظرية فصل الدين عن التعليم إلا ستاراً للإلحاد والإباحية والخروج على الآداب والأخلاق والتقاليد الدينية والقومية ولهذه النظرية قال أولئك

المخربون المدمرون إنه يجب تحرير العلم من سلطان الدين ، كأن الدين نير ثقيل أو حاجز منيع فى وجه العلم . وفى السويد قانون يمنع الشخص من تغيير دينه ويحرم عليه اعتناق دين غير دين البلاد الرسمى وقد حدث أن أحد علمائها وهو أستاذ بجامعة ابسالو اعتنق الديانة الإسلامية فكان جزاؤه أن طرد من الجامعة وحرم من حقوقه السياسية والمدنية وهنا نطعن فى الدين وعلى أشرف المرسلين وعلى أخلاقنا وعلى تقاليدنا ثم لا تحرك الحكومة ساكنا . إن العلم قابل للتطور والتغيير لأنه نتيجة لعمل الإنسان وتجاربه وكثيراً ما نرى نظريات علمية يطغى بعضها على بعض ويلغى بعضها البعض الآخر . ولكن الدين الصحيح لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه من وضع خالق البشر . فلا نريد بعد اليوم أن نسمع هذه الدعوة الفاسدة : دعوة حرية الفكر التى فى ظلها تنشر الكتب التى تدعو إلى الكفر والطعن فى سيد الأنبياء والمرسلين والتى فى ظلها تهدم الفضيلة والأخلاق والعقائد .

عباس العقاد ـ إنى أقرر باسم الدستور الذى يقرر أن الناس أحرار فى عقائدهم .

عبد الحميد سعيد ـ هناك حدود للقانون إذا تجاوزها انقلب الوضع وانقلب الدستور .

على عبد الرازق ـ يجب أن يكون هذا المجلس هو آخر مكان تصادر فيه حرية الفكر .

عبد الحميد سعيد ـ أنا لا أسمح لحضرة النائب المحترم أن يقاطعنى : إن حرية الرأى ليس معناها الاعتداء على الدين .

أحمد والى الجندى ـ إن الدين شىء والتفكير شىء آخر .

عبد الحميد سعيد ـ فى سبيل الدين تبذل الأرواح ، ودين الدولة الرسمى هو الإسلام كنص الدستور فاذا رأيتم حذف هذا النص من الدستور فاحذفوه .

أنا لا أريد الحجر على حرية الرأى بحال من الأحوال ولكن لهذه الحرية حد يجب أن لا تتعداه ، إنى لا أشكو ممن ينشر الإلحاد فى الجامعة ولا أمثاله ، ولكن أشكو منهم غلا ران على قلوبهم نحو الإسلام والمسلمين ، أشكو منهم

أن يتخذوا من الجامعة حصنا يقومون من وراء أسواره بالغارات الخانقة القاتلة والقنابل المفرقعة المدمرة فيصيبون من الأخلاق مقتلا وينفثون سمومهم فى نفوس الطلبة العزل من سلاح الدين وتعاليمه ، ولو كانوا مسلمين لردوا كيد المعتدى فى نحره ، ولنكلوا بأولئك الذين يتكلون بالدين والأخلاق .

وزير المعارف ــ هل لحضرة النائب أن يذكر أمثلة لما يقول .

عبد الحميد سعيد ــ أرجو من معالى وزير المعارف ألا يقاطعنى وإذا كان معاليه يجهل الأمثلة التى يطالبنى بذكرها والتى تثبت الاعتداء على الدين والأخلاق والفضيلة فى كلية الآداب فلا يصح أن يبقى فى كرسى الوزراة وليت هذا الفساد كان قاصرا على الجامعة بل تعداها إلى سائر المدارس المصرية ، بل تسرب إلى البلاد العربية الأخرى فيا للفضيحة والعار، أنا لا أريد الحجز على حرية الرأى كما قلت ولكن للحرية حدوداً يجب ألا يتعداها فاذا تعدتها قضينا على النظام والأخلاق والفضيلة باسم حرية الرأى . إن مايقوم به المستشرقون ومايرموننا به من شر وبلاء مع كبره وعظمته لايقاس مطلقا بجانب ماأصابنا مما يلقى من دروس فى الالحاد والإباحة . إن الجامعة تسلم هؤلاء الشبان الذين لم يتعلموا شيئا من أصول دينهم إلى رجل يلقى فى نفوسهم الزندقة والكفر ليفسد عقائدهم وأخلاقهم ووزارة المعارف هى المسئولة عن ذلك لأنها لم تعلمهم أصول دينهم وتقاليده . والله لو كان هذا الرجل فى بلاد أخرى لما عاش ليلة واحدة . لقد تكفلت الاتفاقات الدولية بحماية المستشفيات والمعابد والكنائس بحيث لاتنتهك حرمتها أثناء الحروب ولكن إذا خرجت هذه الأماكن عما خصصت له واستعملت لأغراض حربية أباحت تلك الاتفاقات الدولية الاعتداء عليها وهدمها ونحن لانقبل مطلقا أن تكون الجامعة المصرية ستاراً لهدم الدين والأخلاق والفضيلة . لقد قمت أنا وزملائكم فى البرلمانات الماضية بمحاربة هذا التيار الجارف من يوم ظهر الالحاد فى كلية الآداب وفى المدارس الأخرى ومع الأسف أن أولئك الأشخاص الذين ينشرون الإلحاد قد وجدوا أغماضا وتسامحا بل تمتعوا فى بعض الأحيان بحماية محرمة . منذ ذلك اليوم وفى عهد المغفور له سعد زغلول باشا والحرب قائمة بين الإيمان والكفر وبين الفجور والفضيلة وبين الفساد ومكارم

الأخلاق وقد اشترك فى هذه الحرب إخوان لكم كرام كانوا يمثلون كل الأحزاب ووقف المغفور له سعد زغلول باشا إلى جانبهم مؤيدا للدين داعيا إلى جمع الكتب المضللة وحرقها ومن هؤلاء المجاهدين من قضى نحبه أمثال الأستاذ عبد الخالق عطية وفضيلة الأستاذ القاياتى ومنهم من لايزال على قيد الحياة أمثال السيد حسين باشا وعبد الحميد البنان وعبد العزيز الصوفانى وآخرون فى مجلس الشيوخ ، هؤلاء جميعا قد وقفوا صفا واحداً لمحاربة هذا التيار المدمر . وكانت هناك دعوى فى النيابة واتهام ودفاع انتهت بتقرير وضع المرحوم محمد نور رئيس النيابة إذ ذاك فاثبت التهمة على المدعى وكان مسفها لآرائه الفاسدة النجسة ، ومع كل ذلك لايزال هذا الرجل على رأس كلية الآداب ولايزال ذلك الرجل الذى قال إن قصة ابراهيم واسماعيل خيال فى خيال والذى طعن على الرسالة المحمدية بالكذب والبهتان لايزال صاحب هذا التاريخ الدنس ينشر آراءه الفاسدة المخزية فى الجامعة المصرية الاسلامية التى يقال وتقول الحكومة المصرية الإسلامية أنها غير مصر ، مثل هذا الذى يقع فى الجامعة المصرية والله لايمكن أن يقع فى بلد آخر غير مصر .

الرئيس ـ لقد مضى على هذا ثلاثة عشر عاما فتكلم فى التاريخ الحديث .

عبد الحميد سعيد ـ إننى أتكلم فى الموضوع لأن صاحب هذا التاريخ لايزال يلقى على أبناء الجامعة تعاليمه الخبيثة ، فى ظل هذه الاباحة وتحت ستار حرية التفكير تنشر المبادىء الضارة المخربة ويجندون مايسمونه بحرية المرأة واختلاط الجنسين وما من شك فى أن اختلاط الجنسين وخصوصا الطلبة والطالبات مهما تفلسف المتفلسفون فى تبريره ليس إلا ناشراً للفساد ومشجعاً عليه وباعثا على الاباحة ومدمراً للأخلاق والفضيلة . إن اختلاط الجنسين مسالة من المسائل العويصة التى تبحثها أوربا الآن بحثاً جديداً دقيقاً لأنها وقعت فى شركها ولا يستطيع التخلف عنها وهذا هى انجلترا كانت فى مقدمة الدول التى انتهت إلى خطورة هذا الاختلاط ، فانشات مدرسة خاصة للبنات لايدخلها شاب. وفى كلية الطب دعا على باشا ابراهيم إلى أن تكون هناك فصول خاصة بالبنات وأخرى بالبنين وعلى الخصوص فى كلية الآداب التى تضم نحوا من ثلاثمائة طالبة ، كما يجب

أن يكون للتشريح والتطبيق العملى دروسا خاصة لا يحضرها إلا البنات . على أن دولا فى أوربا خطت خطوة أخرى فى سبيل المحافظة على الآداب والأخلاق عن طريق تحريم اختلاط الجنسين ، ما نحن فى مصر فقد اصبح الرقص قوامها وعمادها ، وقد أقامت وزارة المعارف العمومية نفسها حفلة رسمية فى دار الأوبرا الملكية فجلبت لها الراقصات المحترفات من تلك الصالات التى اشتهرت بالخلاعة والمجون والفجور ، وما كان أولى بوزارة المعارف التى تعلن عند مناقشة ميزانيتها أنها حريصة كل الحرص على الأخلاق والآداب أن تكون على مقتضى القول فى تصرفاتها فهل ماجرى فى تلك الحفلة هو الحرص على الأخلاق والآداب وعلى الدين والفضيلة ياصاحب كتاب حياة محمد (كان الدكتور محمد حسين هيكل هو وزير المعارف).

ياحضرات النواب : ان مايحدث فى كلية الآداب لايستطيع مسلم ان يهضمه كما لايستطيع إنسان له ذرة من العقل والفضيلة والإيمان أن يسكت عنه . ولقد أثبتت التقارير الرسمية التى وضعتها اللجان التى ألفت لبحث كتب طه حسين وأمثاله إن كتبا منها ملأى بالكفر والالحاد وإذا شاء الوزير فليرجع إلى تلك التقارير ليقرأ ما تحتويه .

على عبد الرازق ـ انا احتج لأنه لا يصح ذكر الأسماء .

عبد الحميد سعيد ـ كنت أظن أن الشيخ على عبد الرازق آخر من يحتج فى هذا المجال .

على عبد الرازق ـ إنى أول من يحتج وآخر من يحتج لأن هذا المجلس . .

عبد الحميد سعيد ـ هذا المجلس لايسمح بالاعتداء على الدين ، ما كنت لأنتظر من الشيخ على عبد الرازق ابن المرحوم حسن عبد الرازق باشا القدوة الطيبة فى الأخلاق والدين أن يقف هذه الوقفة ، لايجوز فى دولة دينها الرسمى الإسلام وتضم أكبر جامعة إسلامية هى الجامع الأزهر ، لايجوز أن يبقى أستاذا فى كلية الآداب يطعن فى الدين ويمزق الأخلاق والآداب على هذه الصورة فإذا كانت الحكومة ترى التوانى والإعفاء والتساهل فعليها ان تمحو من الدستور هذا

النص الصريح ولكنها لن تستطيع ولن يستطيع العالم أن يفعل ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فإذا لم تستطع الحكومة أن تمحو نص الدستور وهى لن تستطيع فلتمنح إذن هـذا النص رعاية وحماية وتنكل بكل من يعتدى على الدين والعقائد والأخلاق حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

[وتحدث الشيخ محمد عبد اللطيف دراز] قال :

ان الموضوع يتعلق بتكوين شبابنا تكويناً يعدهم فى مستقبل حياتهم لخدمة بلادهم وهذا فى نظرى لا يتحقق إلا إذا كان هذا الإعداد متفقا كل الاتفاق مع تقاليدنا الدينية وتقاليدنا القومية والخلقية أن هؤلاء الأبناء سيقومون على توجيه أمتهم عندما يتخرجون ويتسلمون القيادة فإذا وجهوا إلى ما يوجهون إليه الآن فالنتيجة ظاهرة وقد فهموها لأن كل أمة تتحلل من أخلاقها وتقاليدها ومن عقائدها القومية : أمة مصيرها الفناء . هناك فى كلية الآداب أستاذ أجنبى يلقى محاضرات تقوم كلها على فكرة إنكار الإله . محاضرات تلقى فى نادى الجامعة المصرية ويكلف أبناءه الطلبة الذين يتلقون عنه أن يعدوا بحوثا فى هذا الموضوع ذاته فلما اجتمع فى نادى الجامعة فريق من الطلاب من غير قسمه وقع تصادم بينهم وبين طلبته الذين يخشون عاقبة الامتحان فذهب وفد إلى عميد الكلية يرفع ظلامته وسلواه من هذه المحاضرات فاجابهم بقوله : سمع وينفذ . وقد نفذ العميد ماطلبه الطلاب ولكن بطريقة تغيير مكان المحاضرات فبعد أن كانت تلقى فى نادى الجامعة أصبحت تلقى فى مدرجات الكلية . إن حادثة المحاضرات وما ترتب عليها من المصادمات فى الكليه كلها واقعة وإنى مستعد لإثباتها لوزير المعارف يجب أن يكون لنا موقف صريح فإما أن نكون مسلمين ومسيحيين ويهودا أو أن نكون غير متدينين بدين فإن كنا من أصحاب الأديان السماوية فيجب أن نحارب هذه المحاضرات وان نضع ملقيها فى مكان المسئولية والمؤاخذة الشـــديدة .

وزير المعارف ــ يجوز أن تكون محاضرات فلسفة يريد المحاضر أن يدحض فكرتها .

الشيخ دراز ــ هل أبناؤنا الذين فى الجامعة تعمقوا فى دراسة الدين إلى حد

يمكنهم أن يتلقوا محاضرة فى فلسفة الدين وإذا كان ابناؤنا وصلوا إلى هذا فهذا شيء آخر سائلوا على حضراتكم تصريحا تضمنته رسالة بعث بها أستاذ من أساتذة الجامعة إلى إحدى الصحف ونشرتها فى عام ٩٢٥ والمرسل إليه محمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة : جاء فى هذه الرسالة ما يأتى :

ونصل إلى أن الدين فى نظر العلم الحديث ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى ومن الصدق والنصح لرجال الدين ولرجال العلم ولجمهور الناس أن يقال لهم الحق وأن توضع لهم المسألة وضعها الصحيح ، وهو أن الدين فى ناحية والعلم فى ناحية .

أقول وأنا أعلم أن وزير المعارف يسمعنى وهو الذى أرسل إليه ذلك الكتاب ونشره ورد عليه بما فيه الكفاية وما أظن أن هيكل باشا الوزير الآن اعترض على صحة هذا الخطاب وأنه أرسل بالفعل إلى هيكل بك رئيس تحرير السياسة الأسبوعية ، ومن هذا ترون أن الروح التى تتمثل فى ذلك الخطاب هى الروح التى تسير عليها ـ كما قلت ـ سياسة التعليم فى كلية الآداب فالأساتذة المدرسون يجب عليهم أن يغذوا هذا الروح وعلى الطلاب أن يتجهوا فى هذا الإتجاه ذاته .

ماهو السبب الذى جعل الامتحانات التحريرية فى كلية الآداب على الخصوص غير سرية ؟ الامتحانات الشفوية فى كلية الآداب لاينتدب من أعضائها أحد من الخارج ، إن كنت لا أسأل عن السبب ولا أذكره فان الطلاب يذكرونه علناً ويذكره الأساتذه همسا ، ذلك أن الطالب الذى يعرف عنه أنه يحارب الروح التى أشرت إليها يجب أن يرسب فى الامتحان .

هم يسقطون الطالب الذى يعرفون عنه أنه يخالفهم فى الرأى فإذا لم يسقط فى مادة الفلسفة أسقط فى مادة أخرى كالجغرافيا أو اللغة الانجليزية .

أما القسم الفرنسى فى كلية الآداب فيشترط فيمن يلتحقون فيه من الطلاب أن يكونوا حاصلين على البكالوريا فى اللغة الفرنسية وأكثر الطلبة والطالبات فى هذا القسم يأتون من مدارس الليسيه والفرير والجزويت .الغرض من إنشاء هذا القسم تخريج مدرسين ممتازين مصريين ، أكثر المنتسبين لهذا القسم تجنسوا

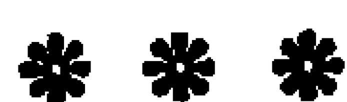
بالجنسية المصرية بمقتضى هذا القانون وهم غير مصريين فى دمهم وتقاليدهم وفى عقائدهم وفى أخلاقهم . أتدرون حضراتكم ماذا تعمل المتنسبات بهذا القسم لو احداً ذهب إلى طريق هؤلاء المتنسبات لوجدهن فى الصباح الباكر قبل افتتاح الدراسة راكبات الدراجات عاريات السيقان بشكل لاينبغى .

وأشار إلى تمثيل طلاب كلية الآداب الروايات الغرامية فى دار الأوبرا ويقوم بدور الحبيب والحبيبة طالب وطالبة وهذه الطالبة ابنة أستاذ ممتاز فى كلية الآداب فعلى الذين يريدون أن يحرقوا بخور الالحاد أن يحرقوه فى قلوبهم لأنهم أحرارا فى عقائدهم أو أن يحرقوه فى منازلهم لأنهم أحرار فى بيئاتهم الخاصة أما أن يطلقوه فى أجواء العلم ومنابر الجامعة فهذا مالايمكن أن يفهم بحال من الأحوال .

رضوان السيد

لا أريد أن أرجع إلى الماضى البعيد ولا أن أحدثكم عما كان من مواقف النواب من الدكتور طه ١٩٢٦ ، ١٩٣٢ فكلكم يعرفه وإنما الذى أريد أن أذكره هو أن البلاد كانت تضج من وجوده . والواقع أن تصرف وزير المعارف فى هذه المسألة وانتداب الدكتور طه مراقبا للثقافة العامة غير مفهوم بعد أن ضجت البلاد وبعد أن ظهر شعور النواب نحوه وكنا ننتظر أن تضيق الدائرة عليه ولكن أسند إليه عملا آخر فندب مراقبا للثقافة العامة وجعل له الاشراف والهيمنة على كل حركة فكرية وعلمية فى البلد . هذا الاختصاص الواسع غير المحدود إضافة الوزير على العمل الذى يقوم به الدكتور طه فى الجامعة بعد أن وقع فيه ما وقع وبعد ان قال مراراً وتكراراً انه لايعترف بالأديان السماوية وإنها لم تنزل من السماء ولم يهبط بها الوحى وإنما نبتت من الأرض كما نبتت الجماعة نفسها . وهذا الرجل الذى لايعترف بدين سماوى يأتى به وزير المعارف فيشجعه ويجعله مهيمنا على ثقافة البلد يوجهها الاتجاه الذى يصادف بالطبع أريحية فى نفسه . أنا أعتقد ان هذا تحد صريح كما أعتقد أنه تجاهل لشعور الأمة ومناهضة واضحة للدستور الذى يقرر صراحة ان الاسلام دين الدولة الرسمى كما يقرر أن التعليم حر ما لم يخل بالنظام القائم أو ينافى الآداب وكلكم يعلم ان آداب البلاد مستمدة من دينها فمن لم يعترف بالدين فلا شك خارج على دينها وآدابها معاد تقاليدها

فعمل هذا الرجل يتنافى قطعا مع الدستور والإتيان به للاشراف على ثقافة البلاد وتوجيهها إلى الوجهة التى تتجه إليها نفسه خروج على الدستور وعلى إرادة الأمة. لايصح لوزير المعارف أن يترك من رجال التربية من يصح أن يكونوا مفخرة لمصر على وجه الزمن وأن يعدل عن أفذاذ عرفوا باصابة الفكر وإصابة الراى ونزاهة القصد إلى رجل يسلك دائما مسالك التهم ويقيم فى محيط الخيالات ويضرب فى آرائه العلمية أخماسا فى أسداس كلما قام من وهدة وقع فى وهدة. وإذا قلنا جدلا أن ثقافة الرجل فوق كل ثقافة فإن هذا لا ينهض عذراً للوزير فى هذا التصرف فالعلم وحده لايكفى لتكريم صاحبه والعلم إن لم يكن له حصن من دين وسياج من خلق فإن ضرره يكون أضعاف نفعه.



وعلق أحد كتاب الصحف الاسلامية على هذه الجلسة فقال : كانت جلسة مجلس النواب المشهورة عظة وعبرة للمسلمين فقد قيلت كلمات خطيرة مستترة وراء هذا الستار الذى أسموه كذبا وزورا حرية الرأى والعقيدة وشهدت مصر بالأمس منظراً من أغرب المناظر فى تاريخ نهضتها باسم الدستور وسلامة الدستور. ثم قام نفر من السادة المترفين والاشراف من رجال الأحرار الدستوريين يكيدون للإسلام بإسم الدفاع عن الحرية تعلقاً بأهداب دستور وضعى أرضى. خرجوا من أوكارهم أخيرا وقد فاض ما انطوت عليه جوانحهم من الإثم والبغض فاعلنوه للناس فى جرأة واستخفاف. تاريخ الأحرار الدستورين المظلم وعدوانهم على الاسلام ونصب أنفسهم محاربين له فى جميع ميادينه فاحتمى بهم الكفرة والملاحدة وأوى رؤساهم وكبرائهم وهم الفاسقين الذين يدعون حرية الفكر والعقيدة بل رفعوهم من أحط الدرجات والطبقات إلى أعلاها وأسماها فارتفعوا إلى الذروة من المال والجاه والسلطان وفى ظل الأحرار الدستوريين نشأت الصحف الهدامة التى تدعو إلى التحلل من حضارة الاسلام وإلى التفكير فى نمط غربى، هذا النمط الغربى الفكرى أو بمعنى أدق منهج التفكير الغربى يفهمونه على أنه البحث المؤدى إلى الشك فى العقائد الأخذ بفلسفة أوربا - اغريقية أو حديثة - حلوها ومرها وخيرها وشرها.

استجواب ١٩٤٠

اشترك فى استجواب عام ١٩٤٠ عبد الرحمن فهمى ، رضوان السيد ، أحمد والى الجندى ، محمد عبد اللطيف دراز ، أحمد عبد الفتاح معبد عن الأسباب التى حدت بوزارة المعارف إلى أسناد وظيفة مراقب الثقافة العامة إلى رجل عرف بنزعات وآراء تخالف تقاليد البلاد واخلاقها ودينها .

عبد الرحمن فهمى : أشار إلى الضجة الهائلة وثورة الأفكار عقب صدور كتاب الأدب الجاهلى ، وأشار إلى آن اللجنة قالت أن الكتاب ضد دين الأمة الرسمى وأنه أضاع على المسلمين اثنى عشرة عقيدة من عقائدهم ومن تهجمه على القرآن والرسول . وقال أن ظاهر الهدف هو أن الأدب الجاهلى مختلق منحول، وباطن الهدف والغرض الحقيقى هو التشكيك فى الدين والتحريض على الاباحة والفجور . وأشار إلى نص ورد فى صفحة ٢٧٩ يقول أن الإسلام قد أخذ عن هؤلاء الناس شيئا من طرق الكسب التى كانت مألوفة فى الجاهلية حين ألغى ضروب الاغارة كما كانت فى الجاهلية ، وأن الاسلام حين أدخل النظام فى الحياة العربية فقد قيد حرية الفرد وحرية الجماعة ووصل من ذلك إلى أن الحياة المادية فى البادية بعد الاسلام كانت شرا مما كانت عليه قبل الإسلام .

وأشار إلى ماجاء فى حديث الأربعاء ج ٢ ص ١١ من قوله أن الأمة العربية قد خضعت خضوعا تاماً لمؤثرين مختلفين اختلافا تاما فبينما كان أحدهما يدفعها دفعا قويا إلى الإمام فتندفع ، كان الآخر يجذبها جذبا قويا إلى الوراء فتنجذب . كانت تندفع إلى الإمام اندفاعا قويا فى الحضارة الماديه وكانت تنجذب إلى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغه التى لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية .

وأشار إلى ماجاء فى كتابه مستقبل الثقافة : من أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول . وقوله فى ص١٧ من أن السياسة شيء والدين شيء آخر وأن نظام الحكم وتكوين الدوله إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على شيء آخر هذا التصور هو الذى يقوم عليه الحياة الحديثة فى أوربا فقد تخففت أوربا من أعباء القرون الوسطى وأقامت سياستها على المنافع الزمنية لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس .

م — ١٦ — طه حسين

وأشار إلى النص الذى أورده فى كتاب مستقبل الثقافة حيث قال عن النهضة .

ولكن السبيل إلى ذلك ليس فى الكلام يرسل إرسالا ولا فى المظاهر الكاذبة وإنما هى واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهى واحدة فذة ليس فيها تعد وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون شركائهم فى الحضارة : خيرها وشرها ، وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع .

وقال عبد الرحمن فهمى · إن هذا هو الطريق الذى يريد مراقب الثقافة العامة أن يوجه أولادنا وأقاربنا إليه وهو أن نأخذ من المدنية الأوربية خيرها وشرها وحلوها ومرها فهل يقول هذا عاقل .

ويقول فى صفحة ٦٩ : إن حديث الشرق الروحى هذا حديث لاغناء فيه وهو مضحك إذا نظرنا إليه نظرة عامة فإن المصريين الذين يزهدون فى الحضارة الأوربية ويدعون إلى روحية الشرق يعرفون إذا خلو إلى أنفسهم أنهم يهزلون ولا يجدون ، وأنهم لو خيروا لكرهوا أشد الكره أن يحيوا حياة الصين والهند ولكن هذا الحديث خطر لأنه يلقى فى روع الشباب « بغض الحضارة الأوربية » التى يعرفونها فتثبط هممهم وتضعف عزيمتهم(ويوجههم نحو هذه الحضارة الشرقية التى يجهلونها فيندفعون إلى بيداء ليس لها أول ولا آخر »

ويقول عبد الرحمن فهمى : ليس بينى وبين الدكتور طه حسين صلة وإنما الذى دفعنى إلى هذا الموقف عقيدتى التى اعتقدها فى دينى وان مثل هذا الأستاذ لو أعطى من القوة والسلطان والجاه ماشاء لقلب البلاد رأسا على عقب فى عقيدتها ودينها .

وقبل أن أختم كلامى أتلو على حضراتكم بيانا نشره الدكتور طه هذا نصه:

«ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وماوصل إليه العلم من النظريات والقوانين فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم . فالعلم الحقيقى ينظر الآن إلى الدين كما ينظر إلى الله وكما ينظر إلى الفقه وكما ينظر إلى الناس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وإذن نصل إلى أن الدين فى نظر العلم لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها » .

إنى وﷲ الحمد لا أقبل انا ولا احد من اسرتى ان نكون تحت رئاسة أو إشراف أو تعليم رجل كهذا وعلى الرغم من احترامى للعلم أقول : أنه يجب أن يحترم عقيدة البلاد أولا وأن جلالة ملك الانجليز يحكم الملايين من الناس منهم المسلم والمسيحى واليهودى والدرزى ومع ذلك فإنه يقسم يوم التتويج الرسمى على أن يحمى ويدافع عن المذهب البروستانتى أقول هذا وقبل أن أغادر هذا المكان أرجو ارضاء لضميرى أن يوافق المجلس على إبعاد طه حسين عن وزارة المعارف ومن جميع معاهد التعليم لكى تبقى عقيدة الطلاب سليمة إلى أن يبلغوا السن التى تمكنهم من أن يميزوا جيداً الغث من السمين. انظروا إلى ماوصلت إليه حالة البيئة عندنا وإلى الفسق الذى ترونه ليلا ونهاراً فى الطرقات والمتنزهات وفى المقاهى ودور السينما هل يتفق هذا مع الكرامة ومع النظام ومع الدين ومع العقل . أن كل هذا مرجعه إلى وجود مثل هذه الكتب .

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

سأل الشيخ محمد عبد اللطيف دراز الوزير : هل علم أن مؤلفا صدر فى مصر وصودر بقرار من مجلس الوزراء عام ١٩٣٨ اسمه (البحث عن الغد) وهل علم أن فى سجل هذا الكتاب حديث بين المؤلف وبين مراقب الثقافة الجديد وهل لهذا الحديث دخل فى مصادرة الكتاب .قال فيه : إن الدين لايتفق والعقل ، وأن الدين دائما ملازم للرجعية فى كل زمان وقال طه حسين عن الروح الدينية للشباب: ان هؤلاء الشبان قد اكتشفوا معبوداً جديدا اهتدوا إليه بعد أن اهتدت إليه أوربا بزمان بعيد . وهذا المعبود هو العقل وشكر المصادر التى كانت سيبافى نشر الأفكار المعادية للدين فقال:ان هذه المصادر هى دوائر المعارف فى أوربا وروسو وبعد أن بين أن الدين يلازم الرجعية فى جميع تطوراتها ذكر أن الشيخ المراغى يحاول أن يوفق بين العقل والدين وأن سبب هذا هو حرص هذا الشخص على نفوذه يقرر طه حسين أن الإسلام فى الواقع لايتفق مع العقل وأن من يحاولون إيجاد هذا التوفيق يحتالون عليه لتضليل الشعب وليقيموا مجدهم،واذن فالنتيجة ظاهرة من هذا القول أن الاسلام غير متفق مع العقل .

وأشار الشيخ دراز إلى أنه فى العام الماضى ندب الدكتور هيكل وزير المعارف

طه حسين مراقبا للثقافة وقد اتصلت بمحمد محمود باشا هنا فى المجلس فقال لى إن كان هذا صحيحا فهذا ان يكون احتراما لقرار صدر من المجلس .

وقال الشيخ دراز : ما الجـديد الذى أدى إلى أن يصبح ما كان ماسا بالكرامة بالأمس سائغا اليوم ، الجديد هو أن هناك نظرية جديدة ظهرت فى مؤلف جديد للدكتور طه حسين وهى أنه ينبغى لمصر تحقيقا لمصلحتها فى نظر المؤلف أن تشارك أوربا فى حضارتها فى الخير والشر والإثم والنفع ومايعاب منها ومالا يعاب ـ ظهرت هذه النظرية فى هذا الـكتاب ، وقد اطلع معالى وزير المعارف عليه وطبيعى أن معاليه أراد باختياره أو ندبه لمراقب الثقافة الجديد ترجيح هذا الرأى بعد ان اقتنع به فاراد ان يوجه البلاد إليه عن طريق مؤلف الكتاب : إن الروح العامة لهذا الـكتاب هو وجوب تقليد اوربا فى كل شىء ، إنى احرض الحـكومة على تتبع اوربا فى علومها وفنونها وان تأخذ عنها ثقافتها ووسائل إعداد دفاعها الوطنى فإن العلم لاوطن له وكما اخذت عنا اوربا بالأمس فلا باس من ان نأخذ عنها العلوم ولـكنى اخاصم الحـكومة اشد المخاصمة ان هى اقتنعت بانه يجب علينا ان نقلد أوربا فى شرورها ونتلقى عنها مجونها وعبثها وسفهها . لاحياة للامة دون الدين والعلم معاً ، العلم الطبيعى التجريبى الذى هو سبيل القوة والإحترام ولا بد لهذا العلم من قوة اخرى هى القوة الدفاعة إلى العمل: تلك هى قوة الروح التى إنما تستمد من الدين . هناك خطا شائع فقد انفصل العلم عن الدين فى أوربا لأسباب تعرفونها جميعا وانا لفى غنى من ان تساورنا الوساوس التى تخوفنا من هذه النتيجة فإن العلم الحقيقى الذى اشرت إليه لازم من لوازم الإسلام وجزء منه وان من يتصل بالقرآن اتصالا بسيطا ليعلم كيف تحث آياته معتنقيه على النظر فى الكون وإذا إنفرد العلم فى امة عن القوة الروحية كان قوة مخربة مدمرة ولكنه يكون مقيداً اذا اقترن بالقوة الروحية ، قوة الروح التى تعرف الفضيلة والأخلاق . ماهى الدوافع الحقيقية التى تدفع بعض الناس تارة الى التشكيك فى الكتب السماوية وتارة الى دفع البلاد الى العبث والمجون والى امتهان الحرم وهم فى ذلك يضحكون على ذقون المصريين معتبرين انفسهم اوربيين متمدنين يجب ان يشاركوا اوربا فى حضارتها وعلى هذا الاعتبار لا يستطيع احدهم أن يقول بان هناك تفاوتا فى الجوهر والطبع والمزاج بيننا وبين اوربا .

سمعت من صديقي فكري اباظه ان الأستاذ طه حسين قد عدل عن أفكاره وذلك بتاليفه كتاب على هامش السيرة وسمعت مثل هذا الكلام من غيره ولكن الأستاذ فكري يظلم من ينسب إليه هذا الكتاب لأن المؤلف نفسه يقرر بصريح العبارة في مقدمة كتابه انه لا يلتزم فيه برأي ولا بصحة خبر من أخباره وان الدافع إلى تاليفه إنما هو تتمة فكره . ويقول ان هذا لون من ألوان الأدب القديم بعبارة مستساغة . ولو انه التزم بصحة ما ورد في الكتاب من الأخبار لقلنا ان الكثير من هذه الأخبار مكذوب وأن البعض فقط متفق عليه ، ان هامش السيرة لايعدو أن يكون قد تخيله المؤلف وهو يتهكم بخصومه الذين ناقشوه المسائل التي أوردها في كتابه الشعر الجاهلي ، تهكم تتخيل أن ديكارت الذي بحث نظرياته على أساس طرق البحث العلمي جاء إلى مصر طائراً على وزير أو في زير

بعد هذا لا أريد ان أرجع بكم إلى الماضي الذي تعرفون ولا أريد ان أقول ان شهوة دفاعه تريد أن يتحلل من الأديان والتزاماتها هي التي تملي هذه الأفكار على بعض الناس فيصلون إلى أغراضهم تارة عن طريق البحث العلمي وتارة باسم الثقافة والعلم ، ولكني أريد في ختام كلمتي ان هذا المجلس لا يثق بأي حكومة تشجع أي شخص يخرج على أخلاق البلاد أو يتفيق في وجه الأمة باحتقاره تقاليدها وأخلاقها وأن يتناول على ذلك أجراً من خزانة الدولة .

رضوان السيد

قال : هذا الرجل الذي لا يعترف بدين سماوي يأتي به وزير المعارف فيشجعه ويطمن البلاد به ويجعله مهيمناً على ثقافة البلد يوجهها الاتجاه الذي يصادف أريحيته في نفسه ، اعتقد ان هذا تحد صريح لشعور النواب وتجاهل لشعور الأمة ومناهضة واضحة للدستور الذي يقرر صراحة ان الإسلام دين الدولة الرسمي كما يقرر أن التعليم حر ما لم يخل بالنظام العام أو ينافي الآداب رجل يسلك دائماً مسالك التهم ويعمه في محيط الخيالات ويضرب في آرائه العلمية

اخماساً فى أسداس . ان آراء الدكتور طه وتقسيمه القرآن إلى وحشى وغـير وحشى واعتباره متأثراً بثقافة اليهود وان محمداً لم يأت بالقسم غير الوحشى إلا بعـد أن اختلط باليهود وأخذ عنهم وتأثر بثقافتهم كل هذه الآراء معروفة للجميع ولا حاجة لى إلى سردها .

إننا قـد أقسمنا اليمين على احترام الدستور وقطعنا عهداً صريحاً على انفسنا ان نعبر عن شعور الأمة وندافع عن دينها وتقاليدها .

* * *

الفصل السادس

صراعه مع أهل جيله

الواقع أن أيسر سبيل لفهم الدكتور طـه حسين : [نفسيته وعقليته وشخصيته] هى دراسة تعامله مع أهل عصره : مع اساتذته واصدقائه وزملائه فى الجامعة وفى الصحافة ومع تلاميذه ، ولا ريب ان هذا التعامل يكشف عن الهدف الكامن فى أعماق الرجل الذى كان يعطى هذه العلاقات قوتها او ضعفها ، وامتدادها او انقطاعها .

ولقد كان معروفا عن الدكتور طه انه كان رفيقاً وانيسا باصدقائه وعنيفاً قاسياً مع من يختلفون معه ، فهو نفاع ضرار ، يعرف ان اقرب طريق الى تحقيق هدفه هو رعاية من يحقق بهم رغباته واهوائه ومن أبرز صور تعامل الدكتور طه ذلك التحول المفاجىء من النقيض الى النقيض ولكن ذلك ليس غريبا إذا فسرناه فى اطار الغاية التى يهدف اليها .

ولا ريب ان محاولة فهم شخصية طه حسين العامة والتعرف الى اعماق طبيعته الخاصة ، يمكن الوصول اليه ومعرفته عن طريق الذين اتصلوا به اتصالا وثيقاً وعرفوه فى اوقات الأزمات والمحن واوقات الصفو والطمانينة ، ذلك ان

كتابات طه حسين تحاول أن تصوره دائما بصورة الرجل الذى لا يقهر ، غير أن هناك من العبارات التى تجىء من وراء الوعى تكشف ذلك الساتر المتعالى وتظهر الحقيقة . فهو الحريص طوال عمر العقاد ألا يقول عنه كلمة سوء بالرغم مما أخذه العقاد به فى أكثر من مقال مما لو قال نصفه أو ربعه أى كاتب آخر لثار طه حسين ولم يستطع أن يهجو العقاد إلا بعد موته حين قال وبعد صدور كتاب عبقرية عمر بأكثر من ثلاثين عاماً : أنا لا أفهمه . ولم يكن أحد أقرب إلى طه حسين أبان أزمة الشعر الجاهلى من تلميذه البار (وسكير تيره على نحو ما فى فترة ما) زكى مبارك ومع ذلك فقد تحول عنه وتنكر له . وموقفه من تلميذه الدكتور نجيب الهبيتى كان كذلك .

أما موقفه من الدكتور محمد حسين هيكل فقد كان غريباً وعجيباً فبينما هو صداقة عميقة وود إذا هو خصومة عنيفة وجحود ، ثم صداقة هادئة فيها شىء أشبه بالتحامى والصمت وموقفه من إبراهيم عبد القادر المازنى جد غريب وفيه جرأة المازنى الذى لم يتوقف عن أن يجابهه بكلمة الحق فى كل موقف وفيه حقد طه حسين وإعراضه خوفا وتوقيا من الذين يعرفون غاياته وأهدافه .

(٢)

أن البؤرة الأساسية هى جريدة السياسة عام ١٩٢٢ وفيها اجتمع الدكتور هيكل رئيس التحرير وقائد الفكر الحر والدعوة إلى التغريب ومعه طه حسين ، والمازنى وعبد الله عنان ، ومحمود عزمى ، وبدأت الحملة على الإسلام .

وفى الجامعة (فى كلية الآداب) كان مع طه حسين ، أحمد أمين ، وأمين الخولى ، ومنصور فهمى ، ومصطفى عبد الرازق .

وفى عالم الأدب والصحافة وراء ذلك عباس محمود العقاد ، وزكى مبارك ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومحمد لطفى جمعة ، ومحمد الهياوى ، ومحمد أحمد الغمراوى وزكى أبو شادى وإسماعيل مظهر وسلامة موسى . وإبراهيم المصرى ، وداود بركات ، ومحمد غلاب — وفى دار العلوم محمد هاشم عطية .

وفى الأزهر : حسن الشقرا ، وعبد ربه مفتاح ، وعبد المتعال الصعيدى ، هذا هو المسرح الذى تحرك فيه الدكتور طه حسين مع أهل جيله .

والذى نحاول أن نقدم فى هذا الفصل صورة مقربة له .

الدكتور محمد حسين هيكل هو الصديق الأكبر : مامن كتاب يصدر حتى يتبادلان حوله عبارات التقدير [من طه إلى هيكل ومن هيكل إلى طه] .

ظلت الصلة قائمة ومستمرة حتى بدا للدكتور هيكل أن يتخذ موقفا من الغزو الثقافى والتغريب بعد أن ظهرت بوادره ، واشتدت حملته وعصفت بالقاهرة عاصفة التبشير المسيحى الذى تقوده الارساليات ، هنالك وقع الخلاف وصدر كتاب (وجهة الاسلام) لخمسة من المستشرقين فانتقده هيكل وكشف عن موقف الغرب والاستشراق ، وقال هيكل إن الغرب قد خدعنا عن نفسه حتى تكشف لنا بعد وقت طويل أنه إنما كان يهدف إلى تدمير كل مقومات مجتمعنا .

- هنالك بدأ الخلاف والتحول ، ذلك أن طه حسين أحس أن صديقه هيكل رأس مدرسة التجديد قد تخلى عن أمانته للفكر العربى ، هنالك أخذ يناقشه ويغمزه ، (راجع المعركة كلها فى كتابنا : المعارك الأدبية : معركة فقدان الثقة) أهم ما فى الأمر قول طه حسين : لعل اختلافنا ان يكون ناشئاً من شيئين أحدهما : هذا الإهمال الذى أخذ به هيكلا والذى يدفعه إلى المبالغة ويضطره إلى التقصير أحيانا . والثانى : أن هيكلا رجل أديب ولكن اشتغاله المتصل بالسياسة قد أثر فى تصوره للأشياء وحكمه عليها بعض الشىء (فهو يسرف حين يسىء الظن بما يكتبه الأوربيون عنا حين يعنون حياتنا الأدبية فما أظن أن (جب) وأمثاله يتخذون السياسة وأهوائها مقياسا لدراساتهم الأدبية) .

وكتب هيكل يرد على صديقه : وقد لاحظت يا أخى ان اشتغالى المتصل بالسياسة قد أثر فى تصورى الأشياء وفى حكمى عليها بعض الشىء وذكرت لذلك مثلين . أحدهما أنى أسرفت حين أسأت الظن بما يكتبه الأوربيون عن حياتنا الأدبية بينما تظن أنت أن جيب وأمثاله لا يأخذون السياسة وأهواءها مقياسا لدراساتهم الأدبية ويقول : فإن كان اشتغالى بالسياسة قد أثر فى تصورى للأشياء وفى حكمى عليها فإنما كان أثره أن زادنى تقاضيا للأشياء وامتحانا لها وتعمقا فى بحث ماتنطوى عليه ومايرمى إليه وإذا كانت الأهواء السياسية ليست هى التى توجه دراساتهم فدراساتهم يقصد بها فى كثير من الأحيان إلى خدمة تلك السياسة

وما احسبك تخالفنى ياصديقى فى أن كتاب وجهة الإسلام الذى الفه خمسة من كبار المستشرقين المشتغلين بالأدب الحديث فى بلاد الشرق المتخلفة إنما هو كتاب سياسى مداه بحث ماوصلت إليه أوربا مما يسميه الأستاذ جب: «تغريب الشرق» وما يرجى لهذا التغريب فى المستقبل من نجاح وأنا لا أعيب هؤلاء العلماء بهذا بل أحسدهم عليه أعظم الحسد فهم به يخدمون أوطانهم ويخدمون العلم ويخدمون الحقيقة من ناحية سياسة بلادهم ومن ناحية الحضارة الغربية التى يريدون أن تظل المدنية الحاكمة فى العالم. هذه الخدمة الجليلة التى يقومون بها لأوطانهم وللعلم ولحضارتهم حقيقة علمية يسر لى اشتغالى بالسياسة الوقوف عليها، ولو أنك انقطعت للسياسة ياصديقى انقطاعى لها وأفنيت من تفكيرك ماأفنيت. إذا لوافقتنى على هذه الحقيقة ولم تتهمنى بالإسراف إذ علمتها».

ولكن هل كان طه حسين لايعرف هذه الحقيقة، بالعكس، إنه كان أعمق فهما لها من هيكل وكان هو الحارس الديدبان للغرب إزاء كل قلم يتحدث بكلمة ما من شأنها أن تهز هذه الثقة فى نفوس المصريين والعرب والمسلمين. وصمت طه حسين ولم يجب صديقه ولكن الدكتور هيكل وقد كشف له وجه الحق لم يصمت وإنما أعلن رأيه فى صراحة وعلى نحو لم يعرف عن كثير ممن تحولوا عن معسكر التغريب فقد قال:

لقد خيل إلى زمنا — كما لايزال يخيل إلى أصحابى — أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض، ومأزال أشارك أصحابى فى أننا مازال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل مانستطيع نقله. لكنى اصبحت اخالفهم فى امر الحياة الروحية وارى مافى الغرب منها غير صالح لأن انقله. فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب وثقافتنا الروحية غير ثقافته.. الخ

وكان هذا دليلا على افتراق الطرق غير ان الدكتور هيكل لم يتوقف عن هذا بل انه سارع فى نفس اللحظات التى اصدر طه فيها كتابه (هامش السيرة) وهو أول كتاب صدر له بعد الخلاف فأعلن رايه واضحاً صريحاً.

قال هيكل: استبيح طه العذر ان خالفته فى اتخاذ النبى وعصره مادة لأدب الأسطورة واشار إلى ماتصل بسيرة النبى ساعة مولده وماروى عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبى ثم قال: لهذا وما إليه يجب فى رأيى ألا تتخذ حياة

التي مادة لأول الأسطورة وإنما يتخذ من التاريخ والقصيدة مادة لهذا الأدب وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر ، وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والعقائد أثراً ما . والنبي وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هي المادة من هذه الحياة ، ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً . اعلم أن هذه الاسرائيليات قد أريد بها إقامة «مثيولوجية إسلامية» لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه. وقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام.

ثم قال هيكل : من أجل ذلك أود أن يفصل طه فيما قد يكتب من بعد من فصول تجرى مجرى «على هامش السيرة» بين ما يتصل بالعقائد وما لا يتصل بها .

ولا ريب أن كلام هيكل هذا هو اتهام صريح لطه في اتجاهه وتحميل له لمسئولية من أخطر المسئوليات وهو إعادة إضافة الأساطير التي حرر المفكرون المسلمون سيرة الرسول منها طوال العصور ، إعادتها إليها لخلق جو معين يؤدي إلى إفساد العقول والعقول في سواد الشعب وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الاسلام ونبيه، وهذا الذي كشفه هيكل مازال كثير يجهلونه ومازال المتابعون لحياة طه حسين وتحولاته يرون أن هذا اخطر تحول له وإن هذا التحول جاء بعد إن انضم إلى حزب الوفد وأمن الهجوم عليه وخدع الناس بأسلوبه وطارت الدعوات تقول: ان طه عاد إلى الإسلام وإنه يكتب حياة الرسول ولم يكن هذا صحيحاً على الاطلاق ، ولكنه كان تحولا خطيراً وفق أسلوب جديد لضرب الإسلام في أعز فلذات حياته وهي سيرة الرسول الأمين .

وهكذا كان خلاف طه حسين مع رأس المدرسة عندما اهتدى إلى الحق ووقعت الخصومة .

ولقد دمغه هيكل حين قال : لقد تحول طه الرجل الذي لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير يعمل على إحيائها . وهذا يثير كثيراً من التساؤل ، إذ أن طه وقد فشل في أن يثبت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمي لجأ إلى الأساطير ينمقها ويقدمها للشعب إظهاراً لما فيها من أوهام في الظاهر تفتن الناس .

أما مع العقاد فان الأمر يختلف ، كان العقاد كاتب الوفد الأول فكتب طه حسين : أنا أمقت المذهب السياسي للأستاذ العقاد مقتاً شديداً وأزدريه ازدراءاً لاحد له ، ولا أقرأ للأستاذ العقاد فصلا مما ينشر في البلاغ ولولا لأنها جمعت في كتاب وانفصلت عن السخف السياسي الذي تنشره هذه الصحيفة لما قرأتها ولا نظرت فيها ذلك أن الأستاذ العقاد من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ، وأي لون سياسي وأي ظهور. هو سعدي مغرق في السعدية وهو كاتب من كتاب البلاغ الخ . ولقد تحول طه حسين بعد قليل إلى هذا المذهب السياسي وإذا به يدخل حزب الوفد فيتغير إزاء العقاد تغيراً كبيراً .

يقول : « لقد هاجمت العقاد في غير موطن من مواطن الخصومة : خاصمته في السياسة وخاصمته في الأدب ، وخاصمته في السياسة والأدب أيضا ولكن هذه الخصومة لم تنقص من مقدار العقاد في نفسي ثم يقول في خطاب في حفل تكريم العقاد: تستطيعون أيها السادة أن تحبوا العقاد ما وسعكم الحب فلن توفوه حقه ، ذلك لأن العقاد هو الصورة الناطقة واللسان الخالد والمرآة الصافية المجلوة التي حفظت صورة مصر الناهضة وأبقتها ذخراً للأجيال المقبلة ثم يقول : ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء :أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فلقد رفعه لكم صاحبه » .

وهكذا أهدى إمارة الشعر لزميله في حزب الوفد ، ثم عاد فأعلن أنه لم يبايع العقاد بإمارة الشعر .

ومن العجيب أن طه حسين يعود بعد وفاة العقاد فيعلن أنه لم يفهم كتابه عن عمر بن الخطاب وكان العقاد قد كتب فصلا عن طه حسين قال عنه أنه لايحسن إلا القصة وانه لا يحسن مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية وليس نصيبه في هذه المقاييس بأوفى نصيب وقد احتملها طه اذاك ولم يجب .

وانبرى زكي مبارك يقول للعقاد

هل يجوز لك أن تتهم الرجل في مفهومه للشعر وهو الذي أسبغ عليك إمارة الشعر ا

(٤)

ولعل أضخم معاركه (وقد دارت من جانب واحد) كانت مع الدكتور زكى مبارك.

وأبرز مراحل هذه المعركة ما أطلقنا عليه فى كتابنا (المعارك الأدبية): معركة لقمة العيش حين عين زكى مبارك فى الجامعة إبان وجود طه حسين خارجها فلما عاد وانتهى عقده رفض تجديده وكان زكى مبارك قد خالف طه حسين فى أشياء كثيرة عدها طه حسين خروجا منه على عقد الولاء والتبعية للفكر الغربى عامة والفرنسى خاصة فانتقم منه هذا الانتقام.

وكان الدكتور منصور فهمى قد وجه نظر زكى مبارك إلى ضرورة اتخاذ أسلوب أكثر ملائمة مع طه حسين حتى يجدد عقده الذى يقترب من نهايته. يقول زكى مبارك: قلت لمنصور فهمى: أتظن أن الدكتور طه ينتهز الفرصة ويتشفى منى إنه أعقل من أن يقترف مثل هذا الانتقام المفضوح فابتسم ابتسامة مرة وقال: انت يابنى تسرف فى حسن الظن بالناس.

وتدخل فى هذا الموقف الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى. إلى الدكتور طه حسين بقلم ابراهيم عبد القادر المازنى — (البلاغ — ٣١/ ١٢/ ١٩٣٢).

إنى أرى الدكتور طه قد خرج من زمرتنا معشر الأدباء والأحرار ودخل فى زمرة الجاه والسطوة والسلطان ولست أعنى أنه اكتسب لقباً جديداً أو صار بك أو باشا ولكنى أعنى أنه محسور فى هذه الزمرة، ولكنى رأيت المناصب والألقاب تتقاضى ثمنها من الرجولة والمروءة والكرامة. ومن كرهى لهذه الطبقة التى اتصلت بها ياصاحبى وانقطعت عما عداها ألفيتنى اشعر ان ما بينى وبينك من قرابة الأدب ونسبه يكاد ينفصم على الأيام. ويعز على ياصاحبى ان اقول انى اراهم عدوك ببعض مافيهم فما كدت ترجع الى الجامعة حتى صببت نقمتك على الدكتور زكى مبارك تلميذك القديم الذى كان حقك ان تفرح به ولكنك قطعت عيشه وحرمته وظيفته الصغيرة فى الجامعة لأنك صرت ذا سلطان واصبح بقاؤه وطرده بين يديك ووسعك ان تعاقبه على تسحبه عليك، ولقد كنت أصدق انك

تفعل كل شيء إلا هذا فاني عهدتك رجلا عظيم المروءة واسع الصدر كريما فلما كان منك ما كان مع زكي مبارك صعقت ولازلت من هذا كالمضروب على أم رأسه واقسم لقد فجعتني ودفعتني إلى الكفر بالخير في هذه الدنيا واقسم مرة أخرى أنك لمسئول لا عما أصاب زكي مبارك أو يصيبه بل عما أصابني أنا في نفسي من التحول وما يضطرم فيها من الثورة إذن أنت من أصحاب السلطان ياصاحبي وممن يملكون أن يقطعوا أرزاق العباد أو يصلوها فلست اليوم بالأديب الذي عرفته وأحببته وإنما أنت رجل يدني ويقصي ويرزق ويحرم ويطعم العيال أو يجيعهم ، ويضرب اليد التي ترتفع باللقمة إلى الفم فتطيرها وتوقعها على التراب لتلتقطها الكلاب والقطط ويأباها على أخيه الإنسان وزميله الأديب وإني لأحدث نفسي أحيانا باني لو كنت أقول الشعر في هذه الأيام لرثيت طه فانه يخيل إلى ان قد مات طه الذي عرفته وأحببته وأكبرته وجاء غيره الذي أنكره .

ولقد فتح زكي مبارك ملف طه حسين مرة واحدة وبدأ بذلك الهجوم العاصف .

(١) لقد ظن طه حسين انه انتزع اللقمة من يد أطفالي . لو جاع أطفالي لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه ولكن لن يجوعوا مادامت أرزاقهم بيد الله.

(٢) إني أعرف ماتكره مني ءانت تكره مني الكبرياء وكيف أتواضع وقد أعانني الله على بناء نفسي ، وكيف وقد أقمت الدليل على الشاب المصري خليق بعظمة الاعتماد على النفس . وهل رأيت رجلا قبلي أتم دراسته في أوربا وهو مثقل بتكاليف الأهل والأبناء .

(٣) أن من العجيب في مصر بلد الأعاجيب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربي في الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغاني وفصول من سيرة ابن هشام . أن الأستاذية في الأدب العربي عبء لا ينهض به إلا الأقلون وهي تفرض الاطلاع الشامل على خير ما أبدع العرب في خمسة عشر قرنا وهي تفرض البصر الثاقب بأصول الأساليب وهي تفرض العناء المطلق في التعرف إلى فحول الكتاب والخطباء والشعراء وطه حسين ليس من كل أولئك في كثير او قليل .

(٤) دلونى على رأى واحد فكره طه حسين ، أنا لا أعرفه إلا رجلا ينهب آراء المستشرقين ثم يدعيها لنفسه . أن للدكتور طه مزية واحدة هو القدرة على تلخيص الحكايات والأقاصيص .

لقد ادعى طه حسين أن القرآن لا يصلح سنداً فى حقيقة تاريخية ومضى يقول: للتوراة أن تحدثنا وللقرآن أن يحدثنا فلما كشف الناقدون عواره وبينوا انه نهب هذا الكلام الخاطىء من المبشرين وهددته الحكومة بالعزل أعلن فى الصحف (أشهد أنى اؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر):طه حسين

فأين كانت شجاعة العلماء واين كان التحقيق العلمى . ان اعظم اديب فى لغة العرب رجل ينهب آراء المبشرين فى القرآن ثم يذيعها باسم الابتكار والتحقيق العلمى .

(٥) كنت أصاوله على صفحات البلاغ وكان هو يدبر لى المكايد فى الظلام حين عجز عن حرب البينات والبراهين ، لقد عرف طه حسين انه لن يستطيع ان يواجهنى فى ميدان النقد الأدبى لأن وسائله فى ذلك ضعيفة جدا وقد مرت عليه اعوام لم يقرا فيها كتابا كاملا .

(٦) ابتدأت اناوش الدكتور طه حسين حين ثبت انه كالطبل الأجوف وانه لا يعرف من تاريخ الأدب العربى إلا قشوراً عديمة المحصول وكنت كلما هاجمته تخاذل وضعف وخشى عاقبة النضال . ثم اتفق انى عينت فى الجامعة المصرية فبدا له ان يتشجع ويناوشنى ظنا منه انى اخاف من المناوشات احتفاظا بمنصبى فى الجامعة ودفعا لمغبات القتال فأمهلته قليلا وتركته يصول فى مناوشتى ويجول وكذلك امليت له حتى جاءت الموقعة الحاسمة يوم عين نجيب الهلالى وزيراً للمعارف وكان يعرف الصلة التى بينه وبين نجيب الهلالى . ورأى فريق من زملائى ان اسامح مراعاة للظروف فاقسمت لأقذفن مشروع حياته ولأجعلنه مثلا فى الآخرين وكذلك كتبت المقال الذى يذكره القراء والذى ابكى طه حسين بالدمع السخين : مقال (طه حسين بين البغى والعقوق) راجع كتابنا المعارك الأدبية : معركة لقمة العيش .

(٧) لقد ذهبت فأتممت دراستك فى باريس وذهبت أنا فأتممت دراستى فى باريس وذهبت انت على نفقة الجامعه ومضيت أنا متوكلا على الله فانفقت ما ادخرت، واتصلت بالمسيو كازانوفا ففرض عليك آرائه فرضا ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من اراء ذلك الأستاذ واتصلت انا بالمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائى فرضاً ، واتصلت بينى وبينه الخصومة فاذانى إيذاء شديداً لقد كنت رئيسا لتحرير جريدة الأفكار وكانت تدافع عن مبادىء الحزب الوطنى وكان يشرف عليها عبد اللطيف الصوفانى فكنا نختلف ونختصم كل صباح لأنى كنت أأبى ان اكتب غير ماأراه من التعليقات السياسية ، وانت اليوم رئيس تحرير جريدة وفدية (الوادى) فهل تدرى ماذا تصنع ، تدخل إلى مكتبك فلا تكتب سطراً قبل أن تتصل تلفونيا بهذا او ذاك لتتلقى الوحى، ثم تكتب مايلقى عليك . ثم مضت فانتهت آراء المستشرقين وتوغلت فسرقت حجج المبشرين الخ .

وخرجت انا من الجامعة فاشتغلت بالتدريس والصحافة الأدبية وجمعت من المال الحلال ماأتممت به دراستى فى باريس وطبعت عدداً من المؤلفات ،وخرجت انت من الجامعة فانزويت فى بيتك واخذت تبحث عن سيد وطالت حيرتك فى تخير سيدك الجديد فكنت تراه تارة من هؤلاء وتارة من هؤلاء ، ورأيت اخيراً ان مائدة الوفد اشهى من غيرها وامتع فذهبت وقدمت إليها نفسك وهددت الدكتور هيكل بكشف اسرار الأحرار الدستوريين .

(٨) كان يعلن ان الأدب العربى يرجع إلى اصول فارسية ويونانية ثم عاد فغير رأيه وقال ان الأدب العربى كان قوة خطيرة بين الآداب القديمة وانه طارد ادب الفرس واليونان والرومان .

واهل القراء يذكرون ان الدكتور طه اخذ يبدى ويعيد منذ سنين ليثبت ان العرب لم يكن لهم نثر فنى وانهم لم يجيدوا الإنشاء إلا حين اتصلوا بالفرس وان اول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل قال الدكتور طه هذا الكلام ونشره فى المقتطف وكنت اعرف انه سرقه من المسيو مرسيه فكشفت هذه السرقة فى ترفق وكان كلام مسيو مرسيه قد نشر منذ زمان فى مجلة مجهولة يندر ان يهتم بها المصريون وهى المجلة الأفريقية التى تصدر بالفرنسية

فى مدينة الجزائر ، ماالذى وقع بعد ذلك ، أخذ الدكتور طه يتراجع ويتقهقر ، انتهز فرصة ظهور كتاب ابن المعتز ثم كتب كلاما نقض به ما بناه منذ سبع سنين (البلاغ - ١٩٣٥) .

وقد علمت أن هجوم طه حسين على زكى مبارك فى محاولة القضاء عليه إنما هو فى الحقيقة بمثابة عقوبة لزكى مبارك انه خرج من زمرة خدام الثقافة الفرنسية يوم رأى له رأيا فى اللغة العربية والاسلام ، حتى قال طه حسين لرجال الجامعة كيف صيرتم زكى مبارك دكتورا وهو رجل مشاغب .

نعم لابد أن يكون الرجل مصقولا ، ماضيا مع العرف والاتجاه ، وإلا فلا مكان له فى الجامعة .

(٥)

اما الدكتور على العنانى فقد أخرجه طه حسين من الجامعة لأنه عارض طه حسين فى رأيه وأخذ عليه القول بوجوب تخلى الأديب عن العاطفة الدينية والقومية وقال انه رأى فاسد لأن الأدب إذا خلا من هذين العاطفتين يفقد كل معانيه ومميزاته وتصبح الأمة التى يوجد فيها هذا النوع مقفرة من الأدب كل الإقفار (النهضة الفكرية ٩ مايو ١٩٣٢) .

وقال إن النهضة الفكرية فى يد رجلين أحدهما ملفق فى العلم طاغية فى الافتراء ملحد فى دين الله ، دساس من غير خجل ، هدام من غير تحرج ، وفى غير بناء (يقصد طه حسين) والآخر خال من كل معرفة بإدارة الجامعة وبعيد عن كل تجربة فى ذلك لأنه ماتثقف فى جامعة ولا أتيحت له فرصة مكنته من زيارة جامعة (يقصد لطفى السيد) .

ويقول : مانعرفه من أنه كثيراً لايعتمد فى أبحاثه على النقل دون كبير تجرد ودون تحرج فى اقحام شىء من عنده فيها ينقله وهو يرمى بهذا عادة إلى جحود النقل وانكاره وإظهار المنقول فى مظهر البحث المبتكر الطريف .

م ١٧ - طه حسين

يقول الدكتور اسماعيل أدهم أحمد : الدكتور طه يلبس أهوائه صورة البحث العلمي . وهو يميل مع هواه فتميل على إظهار ذوقه وتتجلى شخصيته بأغراضها وأهوائهـا في نقداته وتستطيع منها أن تستكشف عواطف الدكتور وميوله وأهوائه وأغراضه .

ويقول فتحي غانم : أن طه يختفي وراء لغته وهي لغة بين بين وهي لغة ليست قديمة كل القدم وليست جديدة كل الجدة ، يلاحظ إنها لاتقطع في شيء أبداً بل هي مرنة الف والمداورة .

ويقول عبد الحميد جودة السحار : إن طه حسين يشبه السقاء فهو يحمل أبطال قصصه على ظهره ويقف منهم كناظر المدرسة ولا يسمح لهم بالكلام إلا بإذنه .

ويقول محمود عبد المنعم مراد : أن طه حسين في مقدمة قصة المعذبون في الأرض يقول : -

لاأضع قصة فاخضعها لأصول الفن ولو كنت أضع قصة لمـا التزمت اخضاعها لهذه الأصول لأنى لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تـكن ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ماأحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو يخطر لى فأمليه ثم أذيعه فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه .

ثم يعلق قائلا : أنه يضع نفسه فوق النقد ولا يحب أن يسمعه ولا يعترف به ولا يريد أن يقيم له وزنا ولماذا ! لأنه يريد أن يكون حراً فيما يكتبُ ويذيع على الناس وكيف إذن بنى طه حسين مجده الأدبي ، ألم يكن ذلك على حساب غـيره من الأدباء القدماء والمحدثين على السواء . يخيل إلى أن الذى ألجأ طه إلى هذه الثورة الغاضبة على النقاد والقراء هو إحساسه في ذلك الموضع من كتابه انه يتعرض للنقد فأراد أن يقطع الطريق على هؤلاء النقاد الفضوليين ولا أعرف في التاريخ كله كاتبا مهما تبلغ عبقريته يستطيع أن يقول للناقد : قف من انت ولن يستطيع طه بهذا الـكلام الذى ساقه أن يمنع قارئا او ناقدا من ان يبدى اعجابه بما كتب او سخطه عليه (المصري - ٢٠ يناير ١٩٥٣) .

ويقول ابراهيم المصرى : يمثل هذا الأسلوب الشبيه بنقيق الضفادع يحاول طه حسين أن يتزعم الحركة الأدبية فى مصر ويبسط عليها نفوذه وسلطانه ويحمل منها علم التجديد والفكر المصرى وليعلم الدكتور طه انه إذا كان قد اثر فى ابناء الجيل الماضى فليس فى وسعه بالغا مابلغ خدمة ان يؤثر فى ابناء الجيل الجديد . وليس عندنا من الوقت مانضيعه فى مطالعة ترهاته (البلاغ ٢١ يونية ١٩٣٤) .

وقال سيد قطب : ان طه خبيث على مابه من طيبة واجاب طه حسين فقال: الكاتب الأديب يخطىء كل الخطأ ويتبرع بالإساءة إلى حين يظن انى خبيث على رغم ماأظهر من الطيبة الست ادرى الطيب انا ام خبيث ولكن الذى اعرفه أنى لاأحب الخبث ولا اتخذه سبيلا .

ويعلق فتحى غانم على قول طه حسين : انا حريص كل الحرص على ان اكون من اصحاب الفوضى فى الأدب لأنى لا استطيع ان اتصور الأدب على غير هذا النحو .

وقال فتحى غانم : هذا هو ادب طه حسين ، فوضى لاشعور .

وقال الأستاذ عبد الله كنون : ان اسم كتاب على هامش السيرة منقول من الفريد اوشلم الأستاذ بجامعة اكسفورد صاحب كتاب على هامش سيرة المسيح .

(٧)

اما الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى فله مع طه حسين قصة طويلة : بدأها بنقد قصصه المترجمة :

« اقرا للاستاذ قصصه التى ترجمها ، هل كان همه نقل الفصاحة الأفرنجية إلى قراء اللغة العربية أو نقل الصور الفاضلة فى صورها المصونة ، إنما كان همه مدح الخيانة والاعتذار للخونة وتصوير الخلاعة والمجون فى صورة جذابة ، ليقضى بهذه الترجمة حق الإباحية لاحق اللغة ، ولا حق الفضيلة وكان طه حسين يقول : انه ممن خلق الله لهم عقولا تجد من الشك لذة والقلق والاضطراب رضا.

وعندما ادعى طه حسين انكار شخصيات من التاريخ الأدبى وشك فيها كتب المازنى يقول : انه سيجىء يوم يوضع طه نفسه فى ميزان التشكيك .

يزعمون أن رجلا اسمه الدكتور طه عاش فى عصر فى أوليات القرن العشرين وانه صاحب هذه الكتب المختلفة التى نسبوها إليه ونحلوه اياها ، ولكن كل مااطلعت عليه مما يعزى له يحملنى على التردد بين رأيين احدهما ان يكون هناك أناس كثيرون يتسمون طه حسين وثانيهما ان يكون هذا اسما استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه ، ذلك انه على ماروى ازهرى النشاة والأزهر هذا جامعة اسلامية كبيره يلبس الجبه والقفطان والعمامة أو مايماثل ذلك فهو على هذا شيخ ويقولون انه كان فى صدر ايامه يكتب فى صحيفة اسمها الجريدة ونقول ان هناك ثلاثة : الشيخ طه ، وطه حسين الافندى ، والدكتور طه حسين ألخ . . ألخ

وعندما اصدر عزيز اباظه ديوانه (انات حائرة) كتب الدكتور طه حسين مقدمة للديوان ، فنشر المازنى مقالا فى البلاغ هاجم فيه المقدمة وقال ان الدكتور طه قد خسره الأدب ولم تربحه الحكومة . وقد أثارت هذه العبارة ثائرة الدكتور طه الذى وجه الى رئيس تحرير البلاغ خطابا ضمنه نوعا من النقد على أسلوب الرمز والايماء واعتذر عن ذلك بانه لا يتحدث إلى القارىء بقدر ما يتحدث إلى المازنى نفسه قال :

أراد الأستاذ المازنى أن يثنى على ديوان شاعرنا المدير ، أو مديرنا الشاعر الأستاذ عزيز أباظه فلم يستطع أن يصل إلى غرضه دون أن يقدم بين يدى مقاله رثاه لى واشفاق على أن الأدب قد خسرنى وأن الحكومة لم تكسبنى ولأنى كتبت فى تصوير هذا الديوان كلاما لا محصول وراءه ولا يعرف له رأس من ذنب .

وأنا استاذنك فى أن أشكر للاستاذ رثائه لى واشفاقه على فذلك أقل ما ينتظر من أديب مثلى لا يكتب إلا ماوراءه محصول وما يتبين رأسه من ذنبه وأريد أن أوكد أنى آسف أشد الأسف لأن الأستاذ عزيز أباظه لم يطلب إليه هو كتابة هذا التصدير ، إذن لكان له المحصول كل المحصول ولكان له رأس كقمة الجبل وذنب كالذى خوف به المنجمون المعتصم حين هم بفتح عموريه .

وآسف أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل الى الأستاذ عملى فى وزارة المعارف وفى جامعة فاروق . أذن لكسبته الحكومة والأدب جميعاً والأستاذ المازنى يعرف أن لأبى العلاء قصة مع الشريف المرتضى وأظنه يأذن لى فى أن اسرق من هذه القصة شيئا فالسرقة فى الادب مباحة ولا سيا حين تكون فى العلن لافى السر ، وهى حينئذ أشبه بالسطو ولست أسرق من قصة أبى العلاء أو لست أسطو عليها الا بمقدار ، فانا أرجو ان يقرأ الأستاذ سورة الفلق وان يقرأ مطولة لبيد ومطولة طرفة وعينيه سويد بن ابى كاهل التى مطلعها :

بسطت رابعه الحبل لنا   فبسطنا الحبل منها ما اتسع

ورائية الأخطل متى مطلعها :

الا ياسلمى ياهند هندنى بدر

وان كان حيانا عدى اخر الدهر

ولا مية المتنبى التى مطلعها :

بقائى شاء ليس هم ارتحالا   وحسن الصبر زموا لا الجمالا

سيقول القراء أننى الغز بهذا الكلام ولكنى إعتذر اليهم فانى لا أكتب لهم وإنما اكتب للاستاذ المازنى ، وانا اسلك فى ذلك طريقة الأستاذ نفسه فن المحقق انهم لم يفهموا عنه ما قال امس لأنهم لم يقرأوا التصدير الذى لا محصول وراءه والذى لا رأس له ولا ذنب ولأن أكثرهم لن يقرأه لأن الكتاب ليس معروضا للناس واحب إلى بان استقيل وافرغ للادب ولكنى اود ان استيقن قبل ذلك بان الحكومة ستضع الاستاذ المازنى مكانى لترى أيكتب كلاما كالذى أكتبه أم يكتب كلاما خيراً منه .

وجاء الدكتور زكى مبارك فأتى بدلوه فى المعركة ولكن من ناحية تفسير الغوامض وكشف الاسرار فقال :

« مناوشة عنيفة ثارت بين الدكتور طه والاستاذ المازنى على صفحات جريدة البلاغ وهى مناوشة تمثل التجنى والتظالم على أعنف ما يكون بين الرجال على

الرجال وستقف من هذه المناوشة موقف القاضى العادل فقد ساءنا ان يتقارض هذا الرجلان الظلم والعدوان بلا ترفق ولااستبقاء بعد ان ظلاصديقين حينا من الزمان واصل القصة ان عزيز أباظه مدير البحيرة اصدر مجموعـــة شعرية سماها (انات حائرة) مع تصـــدير بقلم الدكتور طه حسين فلما بدا للاستاذ ابراهيم المازنى ان يتحدث عن هذه المجموعة بدأ بالهجوم على صاحب التصدير فغضب الدكتور طه وكتب ردا أراد ان يدفع به العدوان بما هو اقسى من العدوان . ثم قال زكى مبارك انه سيفسر للقارىء هذه الرموز ولخص زكى مبارك كلة المازنى فى اربعة عناصر .

ان الدكتور طه خسره الأدب ولم تـكسبه الحـكومة

ومعنى هذا انه يتولى عملا لم يخلق له وان الدكتور طه يضيع نفسه فى مناصب تشغله وتستنفذ جهده ووقته فاذا كتب جاء بكلام لامحصول من وراءه ولا يعرف له رأس من ذنب والافضل ان يستقيل الدكتور ويريح نفسه من العناء الباطل وهو عمله فى الحـكومة ويتفرغ للادب

وانه لا يمكن للدكتور طه ان يزود نفسه بالتحصيل أو التجويد حين يكتب وهومشغول ليله ونهاره بأعمال كل واحد منها كاف للارهاق .

ونسارع فنذكر ان الاشارة إلى سورة الفلق منصبة على آية (ومن شر حاسد إذ حسد) وان الإشارة إلى مطولة ابيد تتجه إلى هذين البيتين :

فاقنع بما قسم المليك فانما   قسم الخلائق بيننا علامها
واذا الامانة قسمت فى معشر   أوفى بأعظم حظها قسامها

وانه يريد من مطولة (طرفة) هذين البيتين .

فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى   عداوة ذى الاصحاب والمتوحد
ولكن نفى عنى الاعادى جرأتى   عليهم واقدامى وصدقى ومحتدى

اما عينية سويد فقد اشار الدكتور طه إلى هذين البيتين :

ورب من انضجت غيظا قلبه		قد تمنى لى موتا لم يطع
وترانى كالشجى فى حلقه		عسراً مخرجه ماينتزع

وأراد من رائية الاخطل هذين البيتين :

تنق بلا شيء شيوخ محارب		وما خلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت		فدل عليها صوتها حية البحر

ومن لامية المتنبيء أراد هذين البيتين :

أرى المتشاعرين غروا بذمى		ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مريض		يجد مراً به الماء الزلالا

وما اردت تبليغ هذه التعاريض إلى الاستاذ المازنى وإنما اردت منفعة القراء والشر يتسم بالخير فى بعض الاحايين .

(١) كان يستطيع ان يقول انه (يستعير) قصة أبى العلاء مع الشريف و(يستعير) هى اللفظة المطلوبة فى هذا الموقع ، ولكنه قال انه (يسرق) ليندد بالاستاذ المازنى ولم يكتف بذلك بل جعل سرقته علنية وهى (حينئذ اشبه بالسطو كما قال) (٢) صور الاستاذ المازنى بصورة الحاسد لمن كتب تصدير الديوان (٣) صوره بصورة من يعجز عن عمل المستشار الفنى لوزارة المعارف ويعجز عن إدارة جامعة فاروق (راجع المعركة كلها فى كتابنا المعارك الأدبية) .

(٨)

أما الأستاذ أحمد أمين صديق طه حسين ومريده والقاضى الذى وجه طه حسين إلى دراسات الأدب فانه قد دفع مع استاذه وصديقه إلى حلبة الصراع ، وذلك حين جنح ذات يوم إلى القول بان جماعة من الكتاب تسلحوا بالشجاعة ثم شعروا أنهم أصيبوا فى سمعتهم وكان الرأى العام قويا مسلحا فتغلب وانتقم وظن طه حسين أن أحمد امين يعنيه فكتب يقول : اخالفك أشد الخلاف وأنكر عليك أعظم الانكار ، ان ذلك الرأى بعيد كل البعد عن ان يصور الحق والثانى ان رأيك يمسنى وأؤكد لك انه يحفظنى كل الأحفاظ ويؤذينى كل الايذاء ألخ

ومع توفيق الحكيم كانت معركة عاتية بعد صداقة طويلة ومودة غالية وكان طه حسين بين من عرفوا باهل الكهف حين ظهورها ولكنه كان أقوى من كتب عنها معجبا بها فقال ان أهل الكهف حدث ذو خطر . لا اقول فى الأدب المصرى وحده بل اقول فى الأدب العربى كله واقول هذا من غير تحفظ ولا احتياط .

ثم وقع الخلاف بين الرجلين تحت تأثير بعض عوامل السياسة والكبرياء الشخصى وكتب طه حسين نقده للحكيم فى عنف تحت عنوان (الأديب الحائر) حين ارسل توفيق يقول له (انى لاأسمح لأحد ان يخاطبنى بلسان التشجيع فما أنا فى حاجة إلى ذلك ، فانى أعرف منذ امد بعيد ماذا أصنع ولقد انفقت الأعوام أراجع ما أكتب قبل ان أنشر وأذيع ، كما انى لست فى حاجة إلى ان يملى على ناقد قراءة بعينها فإنى من زمن طويل أعرف ماذا اقرأ وما اخالك تجهل أنى قرأت فى الفلسفة القديمة والحديثة وحدها مالا يقل عما قرأت أنت) .

وأجاب طه حسين بعد أن أخرج هذا أيضاً من زمرة الولاء :

أسأل الله أن يقينى وإياه شر الغرور فهو مهلك للنفوس حقا، وليعلم توفيق أنى لن احفل به إلا يوم يخرج كتاب لنا نقرؤه ويومئذ سأعلن رأيى فى الكتاب سواء رضى توفيق أم سخط .

ومع سلامه موسى كان الموقف عجبا فهؤلاء هم دعاة التغريب ورجاله ومدرسته وعصابته يختلفون ويجعل الله بأسهم بينهم شديداً . كتب طه حسين يقول :

ان الاستاذ سلامه موسى ليس من اصحاب الألوان السياسية الظاهرة فقد يكون سعديا وقد يكون حراً دستوريا وقد يكون وطنيا وقد يكون اتحاديا ولكنه على كل حال لايعلن رأيه السياسى أو لايتكلف إعلانه ولا يتخذ لنفسه لونا .

وهو من أنصار الجديد وهو يعلم أنى أرى رأيه واشاركه فيه دون تحفظ

ولا احتياط ولكن نصره الجديد قد اضطره إلى شيء من الأسراف ، فهو مسرف فى ازدراء الأدب العربى القديم والغض منه ، وهو مسرف أيضاً حين يقول ان الأدباء المصريين لم يكن لهم شأن فى حركة الاستقلال ولم يقودوا الأمة فى هذه الحركة .

وقال سلامه موسى فى رده : لقد اتهمنى الدكتور طه بالشعوبية أو كاد وكأنه نسى كفاحى من أجل الشعب ، ضد فاروق الفاسق ، هذا الفاروق الذى وقف طه حسين نفسه فى حرم الجامعة وفى منبرها يخاطبه بالصوت العالى بقوله : ياصاحب مصر ، ان أدب الملوك والأمراء والباشوات هو الذى يدعو إليه طه حسين .

أما الأستاذ الرافعى فان المعركة بين طه حسين وبينه طويلة ممتدة منذ وقت بعيد قبل كتاب الشعر الجاهلى ومن بعده وقد ألف فيه كتابا كاملا (تحت راية القرآن) يرد به على افكاره ثم لم يفلته من بعد فى مقالات كثيرة

من أهم ماعنى به الرافعى التعليق على (انعام) طه حسين بامارة الشعر على العقاد قال طه حسين : ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للادباء والشعراء اسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه .

وقال الرافعى : ليس لدى الآن نص كلام الدكتور طه حسين ولا أنا اذكره بالفاظه بحروفها ولكن الذى اذكره أنى حين قرأته لم ابحث بين ألفاظه عن يقين المتكلم واقتناعه وحججه وادلته ، بل بحثت فيه عن سخرية طه بالعقاد وبالشعراء جميعاً فى أسلوب كأسلوب تلك المرأة العربية فى قصتها المشهورة حين قالت لرجال قومها فى ابيات مشهورة :

وان انتموا لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لاتغيب عن الكحل

غير ان طه فى سخريته كالذى يقول : فان لم تثبتوا ان فيكم من استطاع ان يخلف شوقى فاصغروا واصغروا حتى يكون العقاد هو أميركم .

بقى ان نتساءل لماذا لم تأت الشهادة يوم كان الدكتور عميداً لكلية الآداب

وكان يومئذ حراً لايستذله الاكراه ولماذا جاءت الشهادة وهو يحترف الصحافة. وترى لوكان العقاد من الحزب الوطنى أو من الأحرار الدستوريين أو اتحاديا أو شعبيا ـ أتكون قولة طه يومئذ وهو فى انسلاخة الثانى وانقلابه وفديا ـ أفتكون إلارداً سياسياً على العقاد وشعره ، ونفرة سياسية من هذا الشعر وعقاده :

(٩)

ومما يكشف عن موقف طه حسين من أهل عصره وجيله موقفه من أحمد زكى باشا استاذه القديم فى الجامعة والرجل الذى اعترف بفضله عليه فى البحث والدرس حين هاجمه بعنف فى شان الدور الذى قام به العرب فى الحضارة والنهضة .

يقول أحمد زكى باشا : دهشت حينما رأيتك تقول عنى «أحمد زكى هو الذى أذاع فى الناس منذ سنين فكرة أن العرب سبقوا إلى كل شىء ولايكاد يوجد بين الشعوب شعب سبقهم إلى شىء » هذا كلامك ومعاذ الله ياولدى ، أن يكون صدر منى هذا القول ، بل هى حماقة بعض كتاب الجرائد الهزلية وهى تهرف بما لا تعرف وتختلق القول اختلاقا لذلك قابلتها بصمت الاحتقار .أنك حضرت أكثر دروسى فى الحضارة الاسلامية بالجامعة المصرية فهل سمعت منى هذا القول أو مايدانيه ، وهاهم تلاميذى الكثيرون الذين كانوا معك بهذا المعهد ، وهاهم تلاميذى بالمدرسة الخديوية الذين استمعوا إلى محاضراتى الكثيرة فى نادى المدارس العليا بالقاهرة فهل سمع أحد منى مثل هذا القول الهراء أو مايدانيه ،أنا اعلم انك تعلم، أن العلم أمانة ، وعهدى بك أنك حريص عليها ، فهل من الأمانة أن تنسب لأستاذك مثل هذا القول الهراء وهو حى يرزق » الخ وهذا الرد يحمل عدة معانى :

١ ـ أن طه حسين يعتمد على مصادر ليست أساسية وهى الجرائد الهزلية.

٢ ـ أنه حاقد على كل مايكتب عن العرب ولايطيق الحديث عنه .

٣ ـ انه يتجنى على أساتذته والعلماء بغير بينه أو دليل .

٤ ـ أنه كحاطب ليل لايتوقف عن الهجوم بغير دليل .

(١٠)

روى الأستاذ محمد الهيهاوى: للأستاذ عباس خضر قصة سرقة طه حسين قال :

أن الدكتور طه سرق منه وهما طالبان معا فى الأزهر مجموعة المتون وهى مجلد يجمع عدداً من المتون المؤلفة فى مختلف العلوم واتهمه صراحة بأنه أخذها فأنكر ولكن حدث عند ما كانوا خارجين من الجامع أن انشغل الشيخ طه بلبس حذائه فسقطت المجموعة من حيث كان يخبئها ، حكى لى الهيهاوى ذلك لما سألته عن قوله لطه حسين فى إحدى مقالاته « ألا تذكر مجموعة المتون » .

اعجبتنى مقاله كتبها الهيهاوى فى جريدة المنير التى كان يرأس تحريرها يدل عنوانها على موضوعها « كلية الآداب جائعة عريانة ودار العلوم هى الغذاء والكساء » ذلك عندما قامت دعوة إلى ضم دار العلوم إلى كلية الآداب وكان طه حسين عميداً لهذه الكلية .

(١١)

روى أحمد حسين الطماوى فى حديث مع الدكتور محمد صبرى السربوى قوله:

دخلت أنا والدكتور طه امتحان الليسانس فى عام واحد وعندما ظهرت النتيجة ذهبت فلم أجد اسمى ولا اسمه وفى اليوم التالى وجدت اسمه محشوراً بين السطور فذهبت إليه وأبلغته وقد أثنى على كثيراً لهذا الصنيع ويمضى الدكتور صبرى قائلا : أن حشر اسم طه حسين بين السطور آثار الكثير من الدراسين المصريين وقد قام جلال شعيب بكشف الحقيقة فقال لنا : أن طه حسين ذهب إلى الأساتذة وهم مجتمعون واستدر عطفهم وذكرهم بأنه على أبواب الزواج بفرنسية وأنه غريب وأعمى فرثوا له ومن هناك كان كره طه حسين الشديد لجلال شعيب .

وفى كتاب سامى الكيالى عن طه حسين : يقول طه حسين فى مقدمة رسالته للدكتوراه ليسمح لى بأن اعتذر عن أسلوبى الفرنسى إذا ما بدا بلا ريب

فى كثير من المواضع ركيكا أو خاطئا وكذلك عن الأغلاط المطبعية التى قد تقع فى هذه الرسالة فما كنت إلا غريباً وأعمى .

وقد واجهت الدكتور صبرى بما كتبه فى طه حسين عن نفسه فى هذه الفترة وابنته سامى الكيالى فى كتابه مع طه حسين وأورده كامل زهيرى فى مقال له بعنوان الشيخ فى السربون فى جريدة الجمهورية : كانت حياتى بباريس مقسمة بين ثلاثة معاهد أو أربعة : السربون وقد كنت أحضر دروس التاريخ القديم تاريخ اليونان على جلوتز ، وتاريخ الرومان على بلدك والأدب القديم على لانسون واللغة والاجتماع على دوركايم وديكارت على ليفى بريل واللاتينى على مارنا والثورة على أولار والبيزنطى على شارل ديل والتاريخ الحديث على سينبوس والجغرافيا على ديمانجون وجالوا .

وقال الدكتور صبرى بعد أن امعضه هذا الكلام وتوعر ان هذا الكلام لايسكت عليه لأن طه حسين لم يدرس على كل هؤلاء فان دارس التاريخ لا بد أن يتخصص إما فى التاريخ القديم أو تاريخ العصور الوسطى أو التاريخ الحديث. طه حسين كان متخصصا فى التاريخ القديم فكيف درس تاريخ الثورة الفرنسية وهو تاريخ حديث على أولار وكيف درس البيزنطى على شارل ديل والدكتور طه حسين كان قليل التردد على السربون لعاهته ولا أذكر أبداً إنى رأيته يستمع لأولار ولا لديمانجون على سبيل المثال وكون انه استمع إلى محاضرة أو محاضرتين لأستاذ من الأساتذة لايعنى هذا انه درس عليه ومن ثم لا يعقل انه تتلمذ على هؤلاء الأساتذة الكبار . وإلا فإنى استمعت إلى عشرات الأساتذة فهل ادعى انى درست على كل هؤلاء ، ان مادرسه طه حسين هو اللغة اللاتينية لتعينه على فهم التاريخ القديم . اما الذين نقلوا نقل مسطرة عن طه حسين كالكيالى وكامل زهيرى فان معلوماتها قاصرة بالنسبة للدراسة فى السربون » .

قال الدكتور محمد محمد حسين :

« طه حسين الذى تشهد كتبه بأنه لم يكن إلا بوقا من أبواق الغرب وواحدا من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير يروج لثقافاته ويعظمها ويؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عبادة جلاديهم ، طه حسين الذى لم يمل من الكتابة

عن جامعة البحر الأبيض المتوسط ، الذى زعم لمصر أنها جزء من البحر الأبيض المتوسط فى مقومات شخصيتها وليست جزءاً من نجد واليمن والبحرين والعراق والسودان .

طه حسين الذى لم يتصور العرب فى وهمه أمة، لأن قوام الدول فى زعمه المنافع المادية ولأن تطور الحياة الإنسانية قد قضي منذ عهد بعيد بان وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول .

(مستقبل الثقافة ص ١٩)

طه حسين يزعم للعرب ان السبيل إلى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم ولكن السبيل هو ان يذوبوا فى الغرب وان ينخلعوا من انسابهم ويطلقوا من تربيتهم ليذوبوا فى تربة الغرب ولذلك فهو يهلك أموالهم فى ترجمة شكسبير التى ترجمت من قبل أكثر من مرة ليحابى بها بطانته وحزبه فيغدق عليهم مما تحت يده ، بل هو يهلك أموالهم فى ترجمة مالعن به أجدادهم وماسفه به اسلافهم وسفه دينهم وافترى على نبيهم .

يروى الدكتور زكى مبارك ابان علاقته بالدكتور طه حسين هذه الواقعة

تكلم الدكتور طه بالتليفون يقول . تعال يادكتور زكى بسرعة ، اسرعت إلى مقابلة الدكتور طه وكانت داره جوار دارى يوم كان يقيم بمصر الجديدة .

قال الدكتور طه : هل تعرف يادكتور زكى لوكاندة السكلوب المصرى .

قلت : أعرف ــ قال هناك هندى مسلم حضر معى مؤتمر المستشرقين وأنا داعيه إلى الغذاء ولكنه تعب فى الوصول لأنه غريب .

مضيت إلى السكلوب المصرى وقلت للاستاذ : أنا حاضر لمصاحبتك إلى منزل الدكتور طه حسين واسمى زكى مبارك قال : تشرفنا يادكتور ولكنك زنديق واستاذك زنديق ولن آكل لقمة فى بيت أحد من الزنادقة ولو قضيت الحياة بان اموت من الجوع ورجعت فأخبرت الدكتور طه بما وقع .

فقال نحن ادينا الواجب (البلاغ الاثنين ٢٩ ربيع الأول ١٣٦٧)

(١٣)

ويبقى بعد هذا الحشد من أهل عصره وجيله عدد قليل ، لايكاد يمثل ظاهرة ولاء ولا مدرسة فكرية ولا تقدير ، هم اولئك الذين يخافون طه حسين على مراكزهم ومناصبهم وأوضاعهم وقد حاولت ان أتعرف منهم على وجهة نظرهم فكانوا يخشون الافصاح بها حتى لا تتأثر أوضاعهم فى الجامعة أوفى مجمع اللغة أو فى وزارة المعارف او فى إدارة الثقافة فى الجامعة العربيةوروى الكثيرون عبارات وكلمات لن يزيد ايرادها شيئا نصل به إلى أكثر مما وصلنا عن طريق هذه الوثائق المكتوبة .

ان الخطر كل الخطر ان ينظر الناس إلى طه حسين من خلال ما جمعه فى كتب وانتقاه مما كتبه فى الصحف خلال خمسين عاما، ان هذا الذى اختاره بنفسه لا يمثل الحقيقة ولا نصف الحقيقة ولا ربع الحقيقة ، ان هناك فى بطون الصحف الكثير مما يوحى بالحقيقة الكامنة فى أعماق طه حسين والتى لم يظهر عليها أحد والتى يمكن معرفتها من الدلائل والوثائق والشواهد التى حاولنا أن نقدمها فى هذا الفصل وهى تحتاج إلى تحليل واسع لا يتسع له هذا البحث : أقدم هذا كله للذين مازالت تخدعهم العبارات الرنانة والكلمات البراقة وأوهام البطولة والبلاغة .

(١٤)

وإذا كان هذا هوشأن طه حسين مع أهل جيله فان الأمر كان كذلك مع الجيل اللاحق فقد رأينا كتابات فتحى غانم التى توالت تحت عنوان [طه حسين عقبة فى طريق القصة]وتلك المعارك التى اندلعت بينه وبين من اسموا أنفسهم تلاميذه : عبد الرحمن الشرقاوى وابراهيم الوردانى فهاجموه فلما تعالم عليهم قالوا له : وفوق كل ذى علم عليم :

وأشار موسى صبرى إلى تجربة طه حسين فى العمل مع جريدة الجمهورية يوم وضع اسمه فى قائمة رؤساء التحرير . وفرض أن يشرف علي مواد الجريدة

وفى أمرين وقعت الأزمة(١) فى شأن فرنسا(٢) وفى شان الأغريق . ذلك أن هذين الأمرين هما مصدر عقيدته التى عاش لها يقول : اذكر مرة أن المانشيت الرئيسى فى الصفحة الأولى (كان ديجول فى أزمة) . وغضب طه حسين وقال أن ان وضع اسمه على الجريدة يحمله مسئولية ماينشر فيها وهو لايطلع عليه .

وقال الأصح أن نقول ديجول فى حرج ! .

وقال موسى صبرى : أن ابراهيم الوردانى كتب مقالا وصف فى سطر منه الأدب اليونانى القديم بأنه أدب الأساطير والخرافات والعفاريت (وأن ذلك جعل الدكتور طه حسين مهدداً للثورة والانفعال . وعندما نقل إليه الخلاف بين بعض الأدباء كتب مقالا عنيفا هاجم فيه رؤساء تحرير الجمهورية بعنوان بين السخف والجد ، وأعلن فيه أنه ليس مسئولا عما تنشره الجمهورية وكانت ليلة عصيبة وكانت وجهة نظرى أن واجب الدكتور طه حسين يقتضيه أن يقدم استقالته مادام غير راض ومستنكر لما نشر وأنه ليس من اللائق أبدا أن يعلن فى الجريدة أنه غير مسئول وهذا يعنى أمام القراء أن المسئولين عن التحرير منقسمون على أنفسهم وتدخل صلاح سالم وقدم حلا وسطا وهو أن ينشر مقال الدكتور طه حسين وفى قلبه إشارة داخل برواز بان رئيس التحرير الفعلى (أى موسى صبرى) سيرد على المقال ونشر الرد على طه حسين بما يكشف عن فساد خطته ، يقول موسى صبرى « وهكذا اتسعت المعركة وجاوزت كل حد تخيلناه ، وعلى الرغم من أنها جرتنا إلى ألفاظ جارحة وعبارات قاسية فقد عرضت قضية هامة من قضايا النشر فى الصحف اليومية » وتلك قصة لها مجال آخر ولكنها هنا تكشف أن طه حسين قد لقى عنتا من أهل الجيل الذى ظن أنه جيل اتباعه وتلاميذته أشد مما لقى من زكى مبارك والمازنى .

ولم يتخل طه حسين إلى آخر أيامه عن الدفاع عن تبعيته للغرب ولليونان فقد حمل ذلك على أعناق القراء فى كل عصر ومكان .

* * *

وختامًا

هذا مدخل الى دراسة طه حسين (حياته وأدبه) أردت ان اضعه بين يدى القارىء العربى المسلم الذى لم يشـــهد هذا التاريخ ولم يعايش هذه الوقائع وانما سمع باسم رنان وشهرة مدوية وطبل قوى دون ان يعرف ماوراء ذلك . فاردت ان أكشف له هذه الخلفيات وهذه المواقف بالحق ليتعرف على من أطلق عليه ــ عميد الأدب العربى ــ وله فى ضوء الوقائع ان يحكم : هل يمكن أن يكون مثل هذا الكاتب عميدا للادب العربى الذى يزدريه ويتعقبــه أو قائدا لأمــة هو منــكر لمفاهيمها ، لا يدين لها بولاء ، أو مفكرا لا يثبت أى شىء ويثير من حوله الشكوك والسخريات والأحقاد .

هذا هو السؤال الذى يمكن ان يلقى اليوم بعد ان استعرضنا حيــاة الرجل بكل الدقة والتجــرد من واقع الوثائق التى فى ايدينا وهى كتابات أربعين كاتبا . يكادون أن يجمعوا على وضع الرجل فى الموضع الذى هو أهل له .

يلبس اهواءه صورة البحث العلمى : اسماعيل ادهم احمد
انكر كثيرا ولم يثبت شيئا : عمــر فروخ
ولعه بالزناة والفساق : المازنى
تلك النقيصة الظاهرة فى تردده : العقــاد

كيف يمكن أن يكون موضع القيادة وموضع الثقة من يقول

« أن الانسان يستطيع ان يكون مؤمنا وكافرا فى وقت واحد مؤمنا بضميره وكافرا بعقله فان الضمير يسكن الى الشىء ويطمئن اليه فيؤمن به » هذا مفهوم غربى كنسى مسيحى يرفضه

الاسلام وينفر منه ، ذلك ان الاسلام هو دعوة التوازن بين الروح والمادة والعقل والقلب ، ودين الطمأنينة والسكينة الروحية والالتقاء بين القيم على هدى وبصيرة .

ومن الحق ان يقول قائل : ان مصطفى كامل والرعيل الاول من الوطنيين الذين دعوا الى انشاء الجامعة ما كانوا يظنون أن مشروعهم لا يلبث أن يتحول الى عمل تغريبى خطير وان يعود الدكتور طه من وراء البحار لينشر فى أنحاء المعهد آرائه المصادمة لنصوص القرآن والاسلام فى كتاب الادب الجاهلى وحديث الأربعاء الذى يصور المجونَ والفجور فى طائفة من الشعراء ولم تكن هذه الاراء التى ينشرها طه حسين الا اراء بعض المبشرين الداعين الى هدم مقومات هذه الأمة وقوائم فكرها .

ولقد هوجم طه حسين منذ اليوم الى اليوم الأخير:لم تتوقف حركة اليقظة عن متابعته وكشف شبهاته وتزييف آرائه ودحر مخططه ، ولكنه مع الاسف ظل يرتقى بالرغم من هذه الحملات فى مخطط مرسوم من استاذ الى عميد الى مدير جامعة الى مستشار فنى الى وزير وظل حتى اللحظات الاخيرة من حياته مشرفا على اللجنة الثقافية فى الجامعة العربية ورئيسا لمجمع اللغة العربية وله نفوذه الواسع فى وزارة المعارف والجامعات وذلك مصداق قول هاملتون جب المستشرق :

« سواء قوبلت أراء الدكتور طه حسين بالموافقه أم لم تقابل فلابد أن يقضى نفوذه الواسع الذى يتمتع به الى توطيد المبادىء التى يدعو اليها » .

وقد ظل طه حسين مصرا على اتجاهه ، بعد أن تحول كل الذين كانوا معه فى مخطط التغريب :

منصور فهمى ، زكى مبارك ، اسماعيل مظهر ، محمد حسين هيكل ، وبقى هو وحده يدافع عن التغريب والاستشراق

حتى اللحظات الاخيرة مخادعا بانه يستمع الى اذاعة القرآن أو كاتبا عن (الشيخان) أو غير ذلك مما كان يحـــاول أن يرسم به لنفسه سمت علماء الاسلام بينما ينطوى فى أعماقه على كراهة له عميقة وحقد شديد .

ولعل أعجب ذلك يوم قصد الىمكة وطاف بالبيت مع جماعة اللجنة الثقافية للجامعة العربية ، ولست ادرى كيف وقف الرجل الذى شكك فى بناء ابراهيم واسماعيل للكعبة وشكك فى وجودهما وجودا تاريخيا ، كيف كان موقفه أمام الكعبة وأن نظرة الى الأحداث لتكشف فى وضوح اتجاه الريح :

ولناخذ ما كتبه طه حسين عن نفسه فى مذكرات طه حسين ص ٢٠٣ ـــ التى أصبح اسمها بعد ذلك (الأيام الجزء الثالث)

اقبل من ضحى ذلك اليوم علىأستاذ تاريخ القرونالوسطى وكان من اعظم اساتذة السربون قدرا هو الدكتور شارلى ديل فاذا الاستاذ قد كتب على اوراق صغيرة اسئلة كثيرة وضعها امامه وجعل الطلاب كلما اقبل واحد منهم على الاستاذ يومقونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ . ويقبل صاحبنا (أىالدكتورطه) ترافقه زوجه فاذا اخذت ورقة ودفعتها الى الاستاذ نظر فيها ثم ابتسم ثم قال فى صوت عذب :

ـــ لقد اسعدك الحظ بمرافقة هذه الانسة . حدثنى اذن عن الامبراطورية العربية أيام بنى أمية ، وما أرى الا أنك تعرفها واندفع الفتى فى حديثه لا يلوى على شىء حتى وقفه الاستاذ قائلا :

ـــ حسبك فقد ظفرت بالدرجة العليا ..

هذا ما سجله طه حسين وهذا ما دفعه الى النجـــاح ورقة ربما قالت فيها السيدة للاستاذ : ان هذا هو الرجل المرجى فى مصر لخدمة الثقافة الفرنسية ، وربما قالت له شيئا آخـــر .

ولنذكر يوم أصدر الشعر الجاهلى وسارت المظاهرات الى سعد زغلول تطالب برأسه فقال سعد :

ان مسالة كهذه لا يمكن ان تؤثر فى هذه الامة المتمسكة بدينها ، هبوا ان رجلا مجنونا يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شيء من ذلك ، ان هذا الدين متين ، وليس الذى شكك فيه زعيما ولا اماما حتى نخشى من شكه على العامة فليشك ما شاء : وماذا علينا اذا لم يفهم البقر !

ومن يومها انطلق طه حسين تحت اسم الرحمة لرجل كفيف او التجاهل لرجل يهذى ولكن طه حسين كان يقطع الطريق من مرحلة الى مرحلة مؤثرا فى المناهج الجامعية ثم المدرسية وفى مناهج الثقافة والأدب والتاريخ والفكر جميعا ففى كل ماتناوله سموم مدسوسة واراء للاستشراق منشورة ، وشبهات مثارة وشكوك منطلقة وكتب تدرس فى الجامعة تتناول الاسلام والرسول بعبارات فاحشة ، وحفلات رقص فى الجامعة وفى بيوت الطالبات وشعار فرعونى للجامعة والاحتفال بريتان عدو الاسلام ويكتب طه حسين عن نفسه فيقول : انى اعرف نفسى اكثر مما يعرفها غيرى ، وان الذين ينتقدون ويعيبون ويشهرون لا يعرفون من عيوبى الا اقلها » .

نعم لا يعرفون مثلا قصة صلته بالكنيسة فى فرنسا وهى قصة مشهورة رددها كثيرون فى صحف مكتوبة ومحاضرات منشورة .

ولا يعرفون ذلك الولاء الخفى للصهيونية ، الجاثم وراء النصوص والكلمات وانكار ابراهيم واسماعيل ثم دار الكاتب المصرى ، وماوراء الصهيونية من شيوعية فى دعوته الى تصوير مؤامرات القرامطة والزنج وغيرها على انها حركات عدل وحرية ..

وآراء بعد ذلك مسروقة ، أخذها من هذا المستشرق وذاك .

وقال اوليائه انه القى بذرة الحرية ولو قالوا انه القى بـذرة الشك لكان تصورهم أعمق للادب الذى كتبه طه حسين والذى يقوم على عبارات (لست أدرى ، ماأظن ، يخيل الى، احسب ان كذا) وكل نتاج طه حسين يسير فى هذا الاتجاه الذى يشكك فى كل قائم وحق وموروث ولا يقرر شيئا ما حتى عده بعض الباحثين زعيما للشاكين والمشككين .

امران خاض فيهما الدكتور طه حسين لحساب الصهيونية انكاره ذهاب ابراهيم واسماعيل الى مكة وبناء البيت وانكار شخصية عبد الله بن سينا اليهودى رأس الفتنة فى قصة عثمان (١)

وفى الجامعة ووزارة المعارف قال الكثيرون لقد انتهى عهد دنلوب وبدأ عهد طه حسين .

وحرقت كتبه فى دمشق ، وقامت المظاهرات ضده فى القاهرة وكتب الكثيرون يكشفون زيفه فى عواصم كثيرة ولكن قوى الاستعمار والصهيونية كانت تظاهره وتحميه . وآب التغريبيون كلهم الى مفهوم الاصالة العربية والاسلامية الا هو فقد ظل حريصا حتى آخر أيامه على أن يكون من أولياء الغرب والاستشراق .

وفى كل معركة كان يدخلها يمنى الهزيمة وكل فكرة قدمها طاردتها فكرة أكثر منها حقا واصالة وايمانا ، دافع عن الالحاد ودافع عن الفرعونية ودافع عن الشك ، ونافق الغربيين والأحزاب، وهاجم الأزهر ، والاسلام، عارض كل شيء أصيل فى افق الفكر الاسلامى ، وشكك فى التراث القديم ، ووقف موقف السخرية من الدين وعلمائه ، وحمل لواء حضارة البحر المتوسط والأدب اليونانى ، ووصف بأنه سفير الغرب وأدخل الاساطير مرة اخرى الى سيرة الرسول : واخذ كل نظرياته

---

(١) اقرأ كتابه الفتنة الكبرى .

من مستشرقين هم خصوم لأمته ووطنه وللاسلام ، أخذ من دور كايم رأيه فى ابن خلدون ومن سانت بيف دعوته الى شعر المجون والغزل الغلماني ومن بلاشير رأيه فى المتنبى ومن كازانوفا رأيه فى بشرية القرآن ، ومن الصهيونية انكار هجرة ابراهيم عليه السلام الى الحجاز وبناء الكعبة وقال انهـا بالرغم مما ورد فى القرآن أسطورة وأنكر القراءات السبع التى جاءت عن النبى .

وبالجملة فان أبرز وجوه الاضطراب فى مفاهيم طه حسين يتلخص فيما يلى :

اولا : كسر قاعدة ترابط الادب العربى بالفكر الاسلامى .

ثانيا : انتقص قدر الرعيل الاول من الصحابة ووضعـــه موضع النقد وعامله على أسلوب محترفى السياسة .

ثالثا : وصف القرن الثانى الهجرى بانه عصر شك ومجون

رابعا : أذاع الأدب المكشوف سواء ما بعثه من الأدب العربى القديم (بشار وأبى نواس) . أم من الأدب الفرنسى الذى ترجمه .

خامسا : حمل على الاسلام من خلال الأزهر ، دعا الى الفرعونية ، ودعا الى العلمانية ، ودعا الى الغاء التعليم الدينى

سادسا : اشاع الاسطورة فى السيرة النبوية .

سابعا : عمد الى تدمير الشخصيات الاسلامية اللامعة وفى مقدمتها ابن خلدون والمتنبى .

ثامنا : حاول تتبيع الأدب العربى للأدب اليونانى وتتبيع الفكر الاسلامى للفكر الغربى .

تاسعا : اعتمد مصادر زائفة وناقصة : كتاب البلاذرى فى عبد الله بن سبا والاغانى .

عاشرا : تبعيته الظاهرة التى يفاخر بهــا للاستشراق والتبشير والتغريب .

حادى عشر : موقفه بالمتابعة من الصهيونية العالمية .

ثانى عشر : ســوء موقفه من أســاتذته وزملائه وطلبته وتجريحهم ونقــدهم .

تلك ملامح عامة سريعة أردنا أن نقدمها فى هذا الكتاب الذى نعده بمثابة ((مدخل الى حياة طه حسين وفكره)) آملين أن نقدم فى القريب البحث الكامل الجامع : ((طه حسين مفكرا وأديبــا)) .

والله من وراء القصد .

انور الجنــدى

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة ٨ ش حسين حجازى ت : ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٦ / ٤٦٢٧

طه حسين

حياته وفكره فى ضوء الاسلام

لأول مرة بعد وقت طويل يتمكن أحد الباحثين المسلمين وهو ((أنور الجندى)) من مواجهة عميد التغريب فى الأدب العربى المعاصر والفكر الاسلامى الحديث : (الدكتور طه حسين) الذى شغل الناس أكثر من خمسين عاما بأحجاره وقذائفه التى ألقاها على كل زاوية من زوايا بناء الاسلام من خلال سيرة الرسول والدين والحضارة والتاريخ والأدب ألقاها فى كلية الآداب والصحافة ومجمع اللغة واللجنة الثقافية للجامعة العربية ووزارة المعارف وقد سار طه حسين قدما فى طريقه تحوطه هالة من الخداع والتضليل والحماية تحت أسماء التجديد والتقدم والعصرية والبحث العلمى وظهرت الأجيال الجديدة من الشباب فى هذا الجو المطعم بالخرافة الأسطورية فلم تستطع أن تتبين وجه الحق ، رأت ما أطلق عليه عميد الأدب محاطا بهالة من التبريز والدوى فلم تعرف حقيقة الدور الذى قام به فى مجال التغريب والغزو الثقافى فكان لابد أن ينطلق للحق لسانا (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) ومن ثم كانت هذه المحاولة السريعة التى نقدمها اليوم بين يدى القارىء كمقدمة لعمل كبير يظهر فى القريب باذن الله .

والله من وراء القصد .

دار الاعتصام



